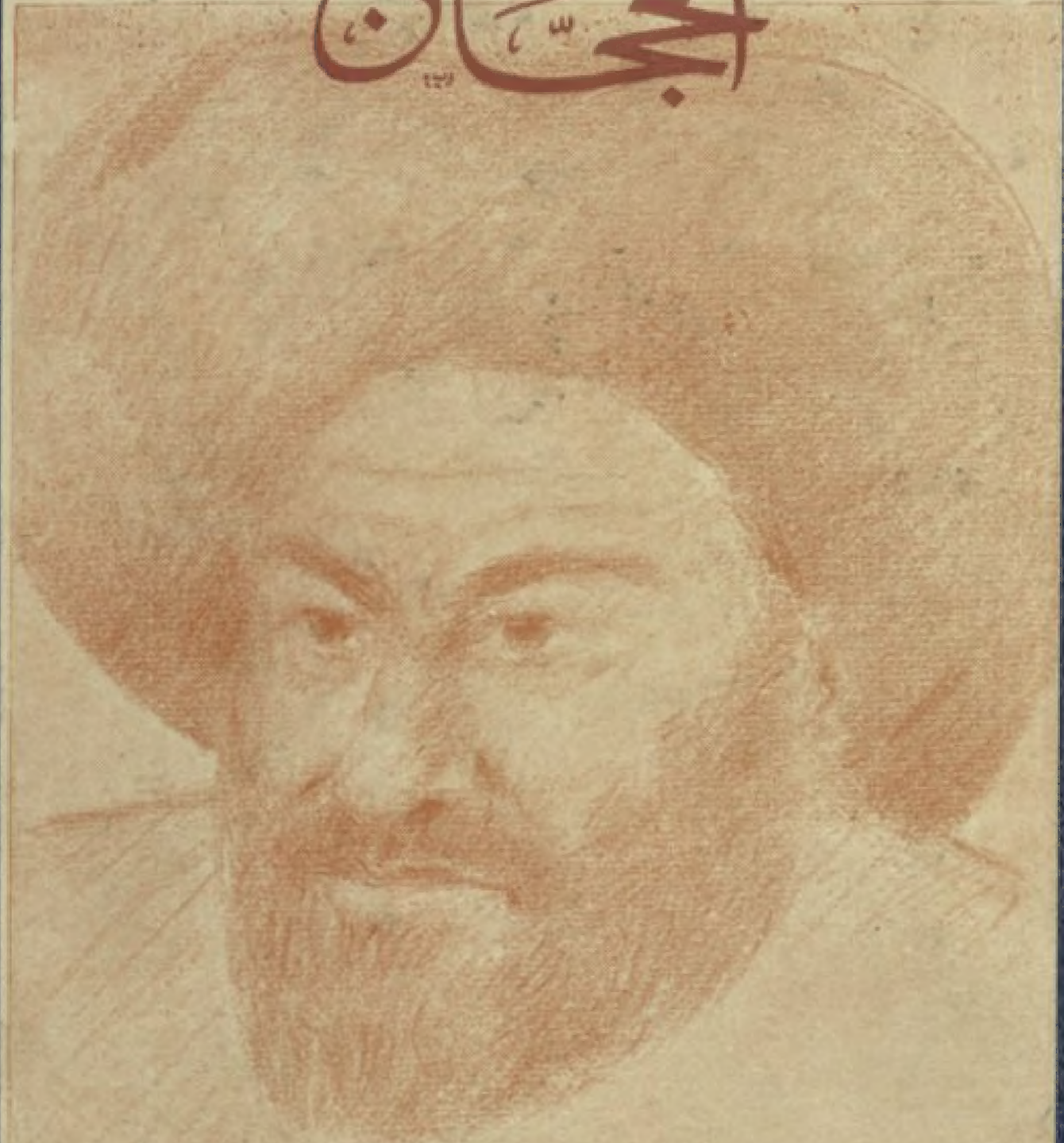


عبد اللطيف شارة

الحجج



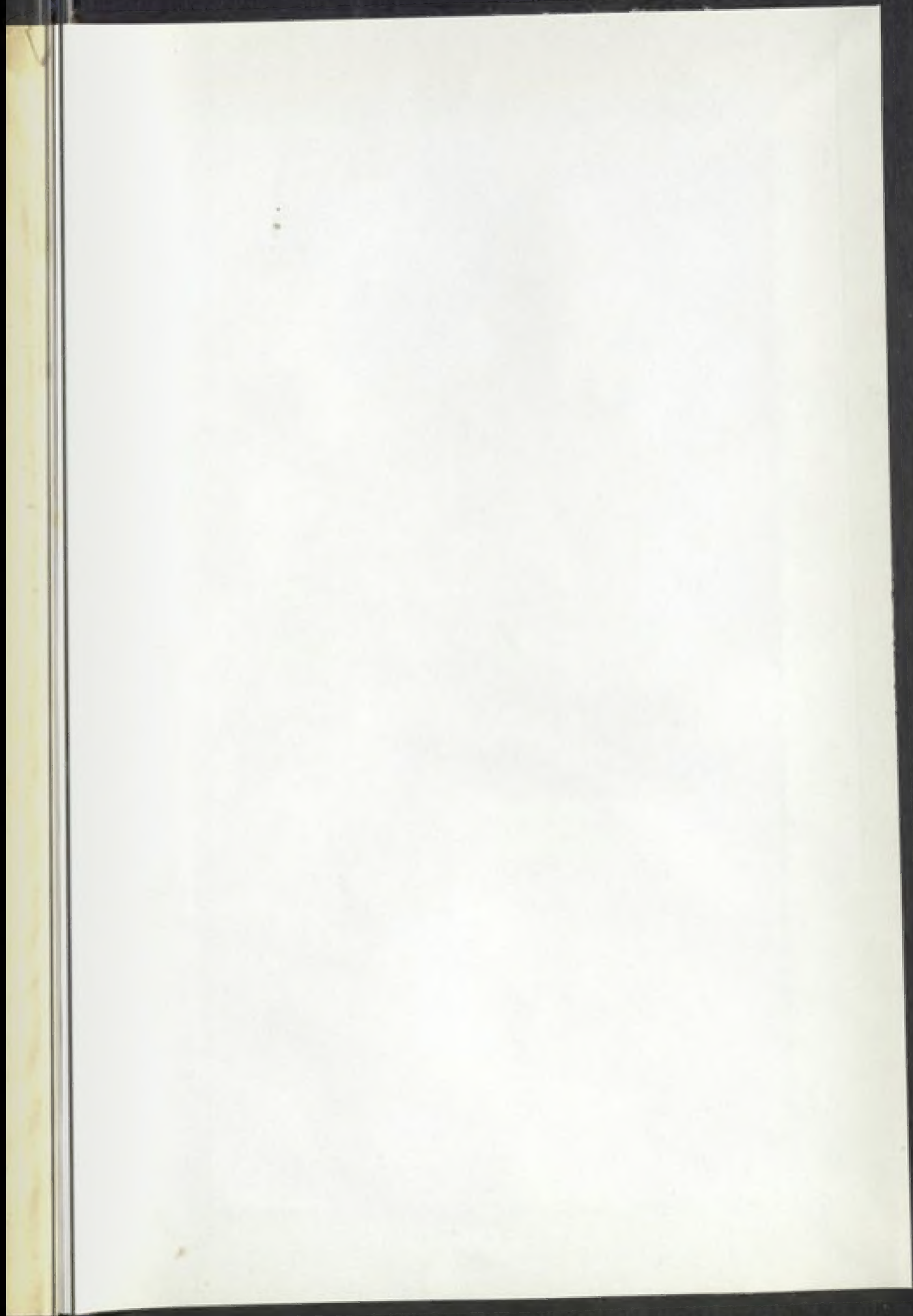
منشورات دار المكشوف

A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



A.U.B. LIBRARY



8000

عبد اللطيف شرارة

923.5567
H154shA
C.1

الحجج طاغية العرب

منشورات دار المكشوف

الطبعة الاولى ، بيروت - لبنان ، اذار ١٩٥٠
جميع الحقوق محفوظة لدار المكشوف

اهداء

الى ارواح الشهداء الابرياء الذين استهوتهم الحرية
فماتوا دفاعاً عنها،

الى ضحايا الظلم والطغيان في مشارق الارض ومغاربها،
الى المعذنين والمعذبات الذين اغلقت في وجوههم
ابواب العدالة،

اهدي كتابي هذا.

للمؤلف

روح العروبة
المرأة في حياة ادغار بو

المكتبة المصرية - ميدا
دار المكشوف - بيروت

في الاعداد

في دنيا الجن
حالات انسانية (قصص)
اجواء واحاديث
من الاعماق (شعر)

مقدمة

قصة الصراع بين الوثنية والايان اروع ما في تاريخ النوع
البشري من قصص لانها 'تجمل' بقطعة الانسان يوم افاق على
انسانيته ووعاها ، يوم ادرك في لحظة نيرة باهرة انه غير
الحيوان ...

كانت اروع قصة ولا تزال ، وستستمر اروع واغنى واذكى
وانمى قصة يمكن الانسان ان يعيشها في نفسه ، وفي بيئته ، وفي
عصره .

اعجل ' فاوضح ' اتنا ، اعني ابناء هذا العصر من كل جنس
وملة وبلد ، لم نوفق بعد الى تركيز فكرة قوية ثابتة عن
الوثنية الصحيحة ، ولا عن الايمان الصحيح .

لا نزال ' نؤخذ ، إزاء هذا الموضوع خاصة ، بالمظاهر الخلابية .
لا نزال نكتفي بالكلمات الرنانة . لا نزال نتأثر بالصّور الخارجية
والوانها الزاهية الصاخبة دونما نظر في الحقائق الفاعلة العميقة
المؤثرة التي توجه سلوك الافراد وتحرك الجماعات .

وعلى هذا ، نحن لا نعرف الايمان ، ولا نفهمه ولا نستشعره
في اعماقنا تجاه دين ، ولا مبدأ ، ولا فكرة ، ولا مذهب ، ولا
كلمة من الكلمات التي ندعي اننا نعمل من اجلها ، او نناضل في
سبيلها . نحن وثنيون في الحقيقة ، وإن كنا ننفي هذا الوصف

عن انفسنا ، وننتكر لمن يجرؤ على وصفنا به .
 ذلك بان الوثنية ليست ضرباً من العبادة مارسه الاقدمون ،
 وفرغ من امره المحدثون . الوثنية فلسفة حياة اصيلة في كليات
 كل انسان لم يمهّد في التخلص من حيوانيته . وكل من لم يستيقظ بعد
 على حياة يملؤها الرفق والحب والعدل والصفاء كان وثنياً وإن
 عاش عمره ناسكاً في المسجد يتلو الاوراد ، او راهباً في الدير
 يتعبّد آناً الليل وأطراف النهار . الوثنية طريقة في التفكير ،
 وأسلوب في العمل ، واتجاه في الشعور ، بنسبة ما هي اعتقادات
 خرافية ، وطقوس صيانية ، وأحكام اعتبارية على الاشخاص
 والحوادث والاشياء . وهي ، الى ذلك ، وحدة متماسكة منسجمة
 الاجزاء ، لا تنقسم على نفسها ، ولا تضطرب في تناول الحياة
 مهما تألبت عليها الكوارث ونازلتها الاقدار .

والوثني مخلوق يستجيب عليه ان يفهم الحياة إلا انها تنازع
 على البقاء ، والسياسة إلا انها خضوع لمقتضيات الظروف ، والسعادة
 إلا انها حيازة اكبر كمية من وسائل الرفاهية المادية ، والعظمة
 إلا انها تصفيق اكثر عدد من الجماهير ، والحرية إلا ان يعمل ما
 يشتهي ، والحب إلا انه عمل جنسي محض إن في بواعثه
 وإن في اهدافه . أما التضحية والنزاعة والنبيل فهذه معان لا
 ظل لها في ذهنه ، بله حياته ، واذا تحدث عنها غيره لوى
 جيده هازناً مغشياً عليه من الضحك .

تلك هي مفاهيم الوثني لقضايا الحياة الكبرى ... وهي مفاهيم
 اساسية ، لا سبيل الى رفع مستوى الانسان إلا حين ينشأ في نفسه
 صراع مع نفسه قصد تغييرها وتحويلها عن وضعها الوثني الاصيل .

لأما إذا بنى شخصيته على أساسها فلا يفيدده معها أن يكون مسيحياً ،
أو أن يعد نفسه مسيحياً ، لأنه في واقع موقفه الانساني والاخلاقي
« وثني مسيحي » . وهو « وثني مسلم » حين يحفظ بتلك المفاهيم
في أساس كيانه الروحي ، وإن سجل على نفسه أنه يعتقد
الاسلام .

أعود بعد هذا الى فكرة الايمان التي أحسبها تقيض الوثنية :
نأمل نجد ، من غير عناء ، أن سقراط الذي شرب السم دفاعاً
عن آرائه لا يختلف في كثير ولا قليل عن غاليليو الذي سملوا
عينيه وعلقوه على المشقة ولم يتنازل عن فكرته في دوران
الأرض . وسقراط وغاليليو لا يختلفان عن أي مسيحي أحرقه
نيرون ، ولا عن أي خارجي قتله الحجاج .

المهم في الانسان ، كي يصبح انساناً ، أن يؤمن ، وأن
يسخر حياته لما يؤمن به . ولا فرق بين وجهات الايمان ، وطنية
كانت او فلسفية او علمية او دينية . ومتى آمن الفرد بفكرة ما ،
وكان إيمانه من الحرارة والعمق والشول بحيث يحمله على التضحية ،
فذاك يعني أنه انتقل من طور الحيوانية ، وأصبح ذات قية لا
تعد ما قية ! أصبح وله « مبرر » لوجوده يستلّه من منطق حياته
ويفرضه على العالم فرضاً ! أصبح بطلاً يتحدى الواقع وينتصر
على ترهاته !

وسر هذه البطولة ، التي لا معدى لاحد عن إكثارها ، أن
الايمان حركة إيجابية تنطلق من اعماق النفس لتتشي وتبني دون
أن يكون لها غاية حيوانية تستهدف بلوغها . أما الوثنية فسلب
مطلق ، أو هي جمود مطلق ، لا تتحرك من تلقاء ذاتها في معارضة ،

ولا تشور من اجل مبدأ او فكرة ، ولكن المؤمنين هم الذين
يصادمونها في تحركاتهم وانطلاقاتهم نحو اهدافهم المثلى ، ومن صدامهم
إياها تدب فيها الحركة . بيد ان حركتها عياء وعناء تحطمت بها
نفسها ، وتشل ، بالتالي ، فاعلية الايمان .

ذلك ما جرى للصراعية بدء عهدنا اذ الدفع الراسي يدعو
الى تعاليم جديدة من شأنها ان تفيض على الملوك مضاجعهم ، وتحرم
ذوي القصور والجواري والامراء امتيازاتهم وملذاتهم . وسوف
نتهي الى ثلث العروش ان لم يطع لها ارباب الثراء والعروش
حداً تقف عنده .

في هذه اللحظة الحاسمة من تاريخ الانسانية وُلد نيرون . وفي
جوف هذا الصراع بين المسيحية الناشئة والوثنية الفاقة ، ظهر نيرون
على مسرح العالم .

ثم ... ثم نشبت معركة بين قوات الطغيان الوثني وطلائع
الايمان المسيحي راحت تتسع وتشد مع الايام ، واستمرت فتنة
وقد طال اربعة قرون عاتية تحمل خلافاً للمسيحيين الاولين
من صنوف الاضطهاد وأقارب العذاب وخروب الحرمان والعنف
والتشكيل ما لا يقبل لاحد من أبناء هذا العصر ، ان يتصور
تحمله ، او يدرك مرادته . فلما خاق الوثنيون ذرعاً ، وانسوا ان
اضطهاداً للحركة الناشئة يزيد لها قوة وشدة ، عمدوا الى التلبس بها
وتبنيها ، والتخذوا من انفسهم حاة لها . وحينذاك هدأ الصراع .

ولكن تغلب النصرانية ، نتيجة انسياق الاسياد الوثنيين في
نيارها وتقبلهم عناوينها ، جعلها تسبطن على الحياة الاجتماعية
سيطرة اسمية لا فعلية ، مظهرية لا جوهرية ، فانطفاأت مع

الأيام جذوة المؤمنين المناضلين ، ولم يبق لها من مجال لوري
تتحرك فيه ... ثم ما كادت تم لها السيطرة حتى أخذت تفكك ،
وتشعب أرواه معتنقها ، وتنضارب اجتهادات أنصارها ، الى ان
فككت الوثنية من استعادة سلطانها الفعلي على النفوس ، تحت
سائر كتياف من الابنان المسيحي ، لم يلبث ان ارق ونهلهل ، فما
اوفي القرن الثامن عشر على نهايته حتى مزق في كثير من الافطار ،
وسفرت الوثنية عن وجهها في حجة من الفلسفات والعقائد ...
ذلك هي حكاية الوثنية مع الابنان المسيحي .

وحكاية الوثنية مع الاسلام ليست اقل روعة وطرافة من
سابقها . غير انها ليست من الوضع بمنزلة تلك ، ولا حيل
فيها الى التبع المتسلسل ، اذ قضي على جزء كبير من تفاصيلها ،
واضح من آثارها ما يجعلنا نتوقف عن ترميمها .
وقد نجم هذا التعموض لان الاسلام نشأ في بيئة غنية المزاج ،
حلبة العربية ، شديدة المراس ، فكان يحكم هذه اللثة قوي
الشكبة ، حارة الحسة . فما كاد يحول جولانه الاولى في صراعه
مع الوثنية ، حتى انهارت مقاومة الوثنيين انصاراً مفاجئاً ، وتصدعت
جبهاتهم في الداخل ، داخل الجزيرة العربية ، يشككي لم يبق امامهم
من وسيلة للنجاة إلا ان يعتنقوا الاسلام . وهكذا كانت ... ثم
هكذا قضي على تاريخهم ومخلفاتهم وآثارهم فضاء تاماً .

وحاولت الوثنية العربية بعد وفاة الرسول العربي ان تمتص
على الاسلام ، وراحت تتجمع وتناضل تهرباً من التبعات السيئة
الذات الدين الجديد على عاتقها ، فوقف لها الحليفة الاولى بالمصاد .

وأحلامها حروباً يسميها المؤرخون «حروب الردة» ، لم تقم بعدها
للوثنين قائمة ... وسارت الحياة العامة في موكب اسلامي صرف
ليس للمختلفين عنه غير الحزبي والدمار .

وهنا لجأ الوثنيون الذين واكبوا الحركة الاسلامية باجسامهم
لا بارواحهم ، بالسنتهم لا بقلوبهم - لجأوا الى المظاهر والعناوين
الاسلامية بحسبون ، ويدافعون عنها ، في انتظار الساعة التي تمكنهم
من الحكم والسيطرة باسمها . واذا كانوا قد تخلّوا عن جهاد
المؤمنين ، وفاتنهم نعم الايمان التي يسخرون منها ، فلن تقوتهم
نعمة الملك والسيطرة والاثراء ، ولن يسمحوا لها ان تقوتهم ، بل
لن يتركوا للمؤمنين فرصة يزحومهم فيها عليها . واذا زوجوا ،
فلكلّ حادث حديث ...

ولم يطل موعده الموقف المرتقب فقد اقبل في اقل من نصف
قرن بعد نشوء الحركة الاسلامية . اقبل والوثنيون ينتظرونه ،
ولكنهم في هذه المرة مسلمون ، فلن تتعرف عنهم الجماهير ، ولن
يتاح لاعدائهم من المؤمنين ان يحاربوهم بسلاح لا يملكونه ...
وعند ذلك دب الانقسام ، وتشعبت مسالك الآراء ، وكثرت
الاجتهادات ، واضطرب الامن وسادت الفوضى .

ونفذت الوثنية المسلمة من هذه الثغرة الى تحقيق احلامها في
الملك . وما هي إلا جولة او جولتان حتى سيطرت على مقدرات
الحكم ، واصبح بيدها الامر ، قنع من نشاء ونعطي من نشاء .
ورجع المؤمنون الى نضالهم ، ولكل مؤمن رأيه وفلسفته ،
وامتد الصراع وامتد ... بشكل جنوني رهيب لما يرسب في
أغواره ، لدى الفريقين المتنازعين ، من أحقاد وثارات ودماء .

ثم مرت فترة اوشك بها الايمان ان يذصر ، وأحاط بالوثنية
الرعب والخلع ، وراحت تتعثر في سلوكها ، تنفض مرة وتكبر
أخرى .

في هذه اللحظة الحاسمة ، وحتى الصراع في اعلى درجاتها ،
اطلقت الوثنية العربية قتي مثل كل ما في روحها من عنف ،
وقذفت به في المعتقد الجاحم ينافح عن حياتها ، ويستعيد سلطانها ،
وينقم لها من اعدائها ، فكان الحجاج ...

... والحجاج ، ككل شخصية تاريخية انتشرت في معاصرها ابلغ
التأثير ، تحول في آخر ايامه ، ثم بعد هلاكه ، الى « اسطورة » تصور
البطش والظلم والقسوة .

لا بد للمؤرخ اذن من السهر ، في مثل هذه الحال ، على فصل
« الاسطورة » وأجزائها المحشوة ، عن « الشخصية التاريخية » لدى
كل حادثة او خبر او رواية او تعليق ، ليتمكن من إعطاء وفائع
ثابتة يفيد منها العلم في توجيه الحياة الانسانية ، ويبنى على اساسها
احكامه ، وإلا فقد البحث التاريخي قيمته ، وأفضى الى ضرب من
التحويل والتعصب السخيف .

بيد ان موقف المؤرخ هنا أدق من الاستقراء ، وأعمق من
تعبير الوثائق ، وأخرج مما يتصوره العالم الذي يكتفي بالملاحظة
ونتهي مهمته عند عرض ملاحظاته والكشف عن تنقيباته . وذلك
لان الاسطورة لا تتلبس بشخصية ما إلا تعبيراً عن حقيقة فاعلة
مؤثرة لم يجد الجمهور سبيلاً الى ايضاحها وتوضيح اثرها في حياته إلا
باستعمال الخيال واستعانة المبالغة .

على هذا النحو تشكلت أسطورة عنزة بن شداد ، وحيث كانت
أسطورة مجنون ليلي ، وأنشئت البنا سيرا أكثر الصالحين والفاجرين
والفاسقين ... والاسطورة إنما تحاك حول شخصية طغت عليها
صورة معينة ، وانتشرت في الناس عنها فكرة معينة .

ثم ينبغي لنا أن نلاحظ ناحية هامة في نشأة كل أسطورة ، هي
أن الجمهور لا يتحكم ، ولا يستطيع أن يتحكم بالأساس الذي نبني
عليه الأسطورة ، أي أنه لا يختار ، بعبارة أوضح ، نوع الفكرة
التي تنتشر عن الشخصية الأسطورية ، ولا يرسم خطوطها الأولى
وإن كان يضخمها ويزيد في ألوانها ويحتملها فوق طاقاتها من مغريات
تفصيلية . فعالم الطائي لم يصبح أسطورة الكرم عن رغبة واعية
في الجماهير لتعظيم حاتم بالذات ، وعنزة لم تصبح أسطورة الفروسية
إكراماً لأخواله الحاميين السود ! وإنما هي الحقيقة ، حقيقة هؤلاء
الأشخاص ، تشيع وتشمل وتفيض ، وتقبلور أخيراً في أسطورة .

... وثمة ناحية أعقد من تمييز الحقائق وفصلها عن التافهات
والأراجيف والمبالغات ، وهي أن لكل شخصية تاريخية بارزة
أعداء وأحباء . ولها في الناس ، في الأحياء منهم ، من يشجب
سلوكها ، ومن يحبده . فكيف يكون موقف المؤرخ ؟
الرأي الكلاسيكي القديم ، وهو الرأي السائد ، يقول بوجوب
الآخذ بمبدأ « الحياد » في مثل هذه الأبحاث والدراسات . ولا
أدري ما هو المقصود بالضبط من كلمة « حياد » في عرض سيرة
أمرئ من الناس ، كأننا من كان ، وكأننا ما كانت سيرته ، لأن
وراء كل موقف أخلاقي يتخذه الإنسان - والحياد موقف أخلاقي -

غاية بحققها ، او يهدف الى تحقيقها ، بمجرد اتخاذها . والغايات
تختلف وتعدد وتتوسع حسب الازمنة والامكنة والاشخاص .
فالحياد في البحث التاريخي معنى غامض مبهم لا يتضح مدلوله إلا
بوضوح الغايات التي يستهدفها .

غير اني استطيع ان اعرض هنا موقفي ، دون ان اطيل
البحث ، فأضع هذا السؤال بين يدي القارئ : اذا حدث لك ان
تقف مرة حكماً بين العدل والظلم ، بين الحرية والعبودية ، ففي
اي جانب تقف ؟

الحياد يقضي ، في مفهومه العام ، ان لا تنحاز الى احد الفريقين
المُتَنَازِعِينَ . اما انا فلا استطيع ، في هذه الحالة واشباهها ، ان
اسكت وانا قادر على الكلام ، وهل اقل من الكلام في مثل
هذا المقام ؟

ثم ان الحياد ازاء اي صراع ينشب بين الحق والباطل ، بين
الاثرة والايثار ... لا يكون ، في جوهر معناه ، الا غفلة
الفكر عن وعي جمالات الحياة ، والاستمتاع بما يحترق قلبها من
افراح ومسرات ، ان لم يكن جنباً بشل نشاط الروح ، وبحملها
على الانطواء في اطار حيواني محض ، تعيش به كما يعيش الضب
في وجاره ، والحلزون في قوقعته .

ولكن استعالة الحياد في المعارك التي تخوضها الحرية ضد الطغيان
او الايمان ضد الوثنية ، او الفضيلة ضد الرذيلة ، لا تقضي الى
استعالة « الانصاف » لان الانصاف ممكن ، وبالتالي واجب ، في
جميع الاحوال والظروف . وعلى مؤرخي السيرة وكتابها خاصة

ان يلتزموا بجانب الانصاف كلما عرضوا لشخصية تاريخية منها يكن شأنها واثرها في الحياة .

بيد ان الانصاف عملية مركبة متشابكة . وهي ، الى تركيبها وتشابكها ، اقرب لان تكون ذاتية من ان تكون موضوعية لانها ليست عمل فكر محض ، ولا عمل عاطفة محض ، ولا عمل اطلاع محض . انها عملية انتخاب ، اعني انتخاب الظواهر والاختيار والافكار والروايات والتفاصيل ، ومزجها في وحدة متناسقة تبرز بها الصورة الحية الصحيحة . والانتخاب عمل الذوق والارادة . لذلك ، لا يستطيع المؤرخ ان يكون منصفاً الا حين يعيد الى ايضاح جملة العوامل والظروف التي تعاونت على ايجاد جو معين فقيت فيه وتعيش شخصية معينة ، حتى اذا تناول هذه الشخصية بالدرس القى النور على محرركاتها الذاتية وبواعث العمل عندها ، ليخلص الى تمييز ما تختص به بما تشارك فيه سائر الناس . وهذا ما حاولت ان اقوم به في دراستي هذه ...

عبد اللطيف شراره

بنت جيل ، ١٢ شباط ١٩٥٠ .

نحو الحجج

١ - ملتقى المطامع

كل حركة اجتماعية شاملة 'مختلف' وجوه النشاط الانساني ، رامية الى قلب الاوضاع العامة ، تؤدي ، بعد ان تبلغ اهدافها المرسومة ، الى فوضى ، ثم الى طغيان .

وذلك لان الحركات الانقلابية 'نجد' ، اول ما نجد ، في تحطيم الانظمة القائمة ، وتهديم العادات والتقاليد المتوارثة ، حتى اذا تم لها ما تريد ، ووقفت الى القضاء على الماضي - وهي لا توفق الى محوه محوآ تاماً مطلقاً - واجهت عندئذ هدفاً ابعد من الاول ، وأصعب منالاً ، وأعسر سبيلاً ، ألا وهو 'البناء' ، على اسس جديدة ، وتركيز واقع جديد ، في شتى القضايا العامة ، والشؤون الحسنة العامة .

لقد كان من امر الثورة الافرنسية الكبرى ، مثلاً ، ان افضت الى سلسلة ثورات ، وأصبحت في جوهر مبادئها بعدة نكسات من تحكم النافرين انفسهم كروبيبيير ومارا ، الى دكتاتورية عسكرية امراً وأفس من عهد الملوك جعلت نابليون 'امبراطوراً' ، وأرغقت الامة الافرنسية بالحروب ، وأخيراً الى رجوع الاسرة المالكة للحكم ، وكانت الثورة قد اندلعت لافصائها عنه ، فكانها دارت

ودارت ، ولم تخرج من دائرتها إلا بعد آلام وكوارث ، حتى
استقرت ، بعد لأي ، في ظل الجمهورية .

وكان من امر الثورة الانكليزية التي تمت على يد كروموويل عام
١٦٥٣ - وكانت تستهدف حماية النظام البرلماني - ان انتهت الى
عكس اهدافها ، وانجابت رهجها عن استبداد مطلق ، تحول معه
النظام النيابي الى العوبة بيد كروموويل نفسه ، فاند الثورة وحامل
لوائها !

اما الحركة الاسلامية - وهي حركة انقلابية أعم وأشمل من سائر
الحركات - فقد وافقت بآدى ذي بدء الى فرض نفسها ، وتمكنت
من توحيد العرب وجمع شملهم داخل الجزيرة العربية ، ودفعت
هم ، بعد ان انتظموا في صفها وانجاهها ، الى الفتح والسلطان ،
حتى اذا اخذوا في اغتطاف النار ، عادوا سيرتهم الاولى ، وانقسمت
الحركة على نفسها ، ودب اليها التصدع ، وراحت تتفك وتفسخ
حتى آلت الى ما آلت اليه من وهن وجود ...

غير اننا هنا ، اي في صميم الحركة الاسلامية ، نجاء مشكلة
اساسية كبرى ، هي ان الرسول العربي وضع أسس « دين » ولم
يضع أسس « دولة » ، ودعا الى مبادئ وتعاليم روحية ، نظم بها
علاقات الافراد ، جميع العلاقات وجميع الافراد ، لجميع اهل
الارض ، للناس كافة ، ولم يدع الى مبادئ سياسية معينة تحدد
السلطة بحدود ، وتخصرها بدستور ، على نحو ما شهد التاريخ عند
الناس والولاطين ، لانه لم يكن يعتبر نفسه غير رسول « قد
خلت من قبله الرسل » ، فليس عليه الا ان يبلغ رسالته ، وقد
بلغها ...

ولكن النبي كان ، الى صفته صاحب رسالة او حامل رسالة ،
 ذا «سلطة زمنية» واسعة ، تمت له بعد بعثته نبياً . واجتمعت
 له عراملها بما انزل عليه من وحي ، وما خاض من مبادئ النضال ،
 وما اظهر من قوة وتفوق في اعماله ومواقفه ، وما اوتي من
 جليل الصفات وعظيم الاخلاق . فمن يخلفه بعد وفاته ؟

هذا هو السؤال الذي واجهه العرب المسلمون بعد وفاة
 الرسول ، وراح كل واحد يجيب عليه بجواب يختلف عن جواب
 الآخر ، ويؤيد رأيه بما انتهى اليه علمه ، وتوافرت لديه حججه .
 واغرب ما في هذه المشكلة ان احداً لم يطرح ذلك السؤال على
 الرسول قبل وفاته ، ولا فكر فيه احد اثناء حياته تفكيراً
 واضحاً تنجلي به الشبهات وينقطع معه دابر الفضول والنخرصات !
 واكبر الظن ان ذلك «السؤال» الذي شغل الدنيا فيما بعد ،
 واقام الحوادث وافعدها ، كان غير وارد في عهد الرسول ، وهو
 لم يكن وارداً لجملة اسباب وظروف ، كلها منطقي ، وكلها معقول :
 منها ان النبي كان منصرفاً الى توطيد المبادئ التي دعا اليها ،
 باذلاً همه واعتماده في تركيزها وتفكيكها من نفوس العرب ،
 مستغرفاً في الاحتياط لها وتدعيم بنائها . ومنها ان اصحابه كانوا
 يخوضون معركة حاسمة لا يضمن احد فيها حياته ، فلم تيسح لهم
 من الراحة والفراغ ما يحملهم على النظر في هذا الامر بشكل
 مطمئن هادئ . ومنها ان الرسالة ذاتها تنطوي على تعاليم وافية ،
 لا يضير الامة من بعدها شيء ، اذا اخذت في تطبيقها ووعتها وعبأ
 كاملاً ...

وليس هذا كل ما هنالك ، فان موقف الرسول نفسه كان

— كما تفهمه اليوم — من الدقة والخرج في منزلة لا سبيل معها
الى « إثارة » مشكلة الخلافة ، إذ كان يجب دوماً ان وقتها لم
يجن بعد حتى نوفاه الله ووقتها لم يجن ... ولا يعد ابداً ان
يكون قد افصاها ، نتيجة اجتهاد سياسي ، عن دائرة جهوده ،
وتفاهها عامداً متعمداً من وقته وتفكيره ، لان في نفسها هذا
حكمة لا يرقى اليها شك ، ولا يظاها تجريح !

تأمل انها لو اثبتت في عهده لأسامت حتماً الى السجام خطظه ،
ولعكرت عليه صفاء الجو الذي أفنى اياه في إيجاده ، ولراحت
نظيره الى أعمال الشؤون الكبرى بما تشيرونه في الداخل ، داخل
الجزيرة العربية ، من اضطرابات وفلاقل كان يجهد في تحاشيها ،
وكان إغفال امر الخلافة اول اسباب ذلك النحاشي ...

بيد ان هذا كله لا يمنع انه كان للشي في الوقت نفسه رأيه
الحاس في الاشخاص الذين تعاون معهم ، وأعانوه على اداء الرسالة
التي جاء بها ، وسامحوا في انتصاره وانتصارها . فمن ان لنا ان
نعرف ذلك الرأي ، وهو لم يستعلن في وثيقة صريحة ، ولا بدا
للناس في وضوح دامغ ؟

الظاهر ... الظاهر مما يؤخذ من سجل السير والاحاديث
والتواريخ انه كان « يميل » الى تفضيل الامام علي بن ابي طالب
على غيره من الصحابة والتابعين ، ولكن علناً صريحاً وابن عمه ،
فلا يملك ان يفرضه على الناس فرضاً . واذا كان في رسالته ان
يجاهد من اجل « الحق » او « الاعتقاد » فان مجاهدة الناس من
اجل « شخص » يمت اليه بكل اوامر القربى ، نجعل المنافقين
— وما اكنوهم في عهده ! — في سعة من الارجاف ، ونمنعهم

قوة معنوية يهاجمون بها كل ما انشأ وأقام .

لذلك أثر التلميح على التصريح ، ولجأ الى الرمزية في إظهار مبله ، الا انها رمزية شفافه ، لا تنصح عن السر ولكنها تكاد ، وتستخدم الإيجاء ولكنها لا تبوح ، وتتملن في الاعمال ولكنها تتحامي الاقوال ، حتى ادركها كل من لازمه وخالطه ، فما كان احد يشك ان الامر سيكون خارج علي .

إلا ان الطامحين الى السلطة من وجوه القبائل وأشراف العرب والانصار ، رأوا في هذا الموقف الغامض - وسلوكهم هو الباعث على غموضه الى حد بعيد - منفذاً واسعاً لمطامحهم ، وتغرة يتسلطون منها الى ألباء والسلطان . فقرت بهم الرأي فرد وفاة الرسول على اضطناع صورة للشورى ، فاجتمعوا دون ان يكون لعلي يد او علم باجتماعهم ، وبايعوا ابا بكر بالخلافة ، وقضي الامر الذي فيه يختلفون .

ورأى الامام ان القضية الكبرى معصومة على يد الذين انتخبوا في عهده ، فوقف الى جانب الشورى يتابع كل ما يجري في محيطها ، ويوجهه ، ويخطط ، ويعمل كل ما يعود على الامة بالخير ، ويدبرها عنها عادة الشقاق .

ولكن الشورى فتحت للروح القبلية وشوائبها افدامة كل الابواب التي اوصدها الاسلام من تنابذ بالالقاء ، الى تخاذل في رعاية الشؤون العامة ، الى عصبية هوجاء في تقدير الاعمال والاشخاص ، الى تذبذب بين المعسكرات المتشقة . فما ان استتب الامر لعثمان حتى نشطت الاحقاد القبلية من عقالمها ، وفامت الاطماع الى جيشائها ، واستعلنت العداوات والخصومات أخيراً في الفتنه التي ذهبت بالخليفة

الثالث ، كما استعانت مشهورات الحكم والباطان في الحوادث العارمة التي حدثت بعد مقتل عثمان . واذا بكل امرئ يريد ان يكون والياً ، واذا بالجماعات تنقسم وتنقسمكك ، وتتألب حول شخص وفكرة ، واذا لكل فكرة مؤيدون ومعارضون ، واذا لكل معارضة فلسفة ، ولكل تأييد فلسفة .

في هذا الجو المكشهر ، في هذه الغمرة الحائقة من الشهوات والمطامع والاحقاد والثارات ، يوبع الامام علي بالخلافة ، فوجد نفسه بين امرين لا ثالث لهما : إما ان يلي طلبات الطامعين بالولاية والحكم ، الرامين الى السيطرة والاثراء - وكانوا اكثر من ان يحصيه عد - وإما ان يقيم حدود الشريعة التي نافح دونها ، فلا يضيع مال الأمة هدرآ ، ولا ينفق إلا في السبل التي امر الله ان ينفق فيها .

كان عليه ، اذن ، حين تولى السلطة ، ان يختار واحداً من هذين الامرين . بيد انه لم يفكر قط في الامر الاول ، ولا خطر بباله ان يحفظ بالخلافة ، فوجه جهده واعتماده الى الارتقاء بقومه نحو الحياة العادلة الخيرة التي تصات بها حقوق الناس ، وتناهى عنها المظالم ، وتناكد فيها عبقرية الدين الجديد ، وبشخص بتحقيقها ما تمحض من جماله وقوته وسموه .

غير ان الامام كان في واد والناس من حوله في واد آخر دوننا تمييز او تفريق بين انصاره واحصائه ، بل ان انصاره اظهروا فيما بعد ، من الشدة عليه ، والعناد في آرائهم ، ما حمله على مكافعتهم ، والزمه جانب التضييق عليهم ، واكرهه على اخذهم بالعنف ، بعد ان اخفقت محاولاته في ارجاعهم الى حظيرة الصواب واقناعهم بالمنطق ، حتى

استشهد أخيراً نتيجة مؤامرتهم ومناوراتهم ...
 وأحدث قتل الإمام علي يومئذ فراغاً هائلاً في كيان العالم
 الإسلامي ، واختل بفقده التوازن الاجتماعي والروحي اختلالاً
 مرعباً إذ لم يبق قوة من مرجع موثوق يرجع إليه في تقويم ما
 اغوج من الأخلاق ، وتسييد ما زلّ من الخطي ، وإصلاح ما
 فسد من حال . وثارت المطامع من كل حذب وحوب ، ونالبت
 بعضها على بعض ، تتساحر في جانب ، وتساند في جانب ،
 وتتضارب جانباً بجانب ، إلى أن التقت جميعها ، وتلك حالها ،
 عند نقطة واحدة : الخلافة .

هذا ما أفضى إليه الأخذ ببدا الشورى في بيثة لم تتحرر
 بعد التحرر الصريح الكافي من عصبانيتها القبلية ، وعذمانها التاريخية .
 ولكن عاصفة الاطماع التي انارتها سياسة الخليفة الثالث ، والتي
 بلغت ذروة جوحها في مقتل الإمام علي ، أخذت تتحدر رويداً
 رويداً نحو الهدوء ، حتى سكنت أخيراً ، ولكن جحراً تحت رماد ،
 في ظل معاوية الأول الذي أنشأ دولة قبلية أموية في دمشق .

٢ - أساس الدولة الأموية

معاوية بن أبي سفيان ، الخليفة الأموي الأول ، هو الذي أسس
 الدولة الأموية . ولكن المهم أن نعرف كيف أصبح معاوية
 خليفة ، وما هي الطرق والوسائل التي مكنته في الأرض ، وجعلته
 يتغلب على غيره من المطامعين .

لا مشاحة أن معاوية لم يرق منصة الخلافة نتيجة شورى ، ولا

وصل اليها عن طريق الوراثة . فهذا مما لا حاجة الى بيانه وتفصيله .
وكل ما في الامر ان ظروفنا ملائمة واتسه ، فأحسن تفهمها وانفن
استغلالها ، فبلغ مدّة الحكم .

إلا ان حكمة وصوله الى الخلافة ، وما تقدمه من حوادث ،
ونحوها له من اسباب ، تلقى النور على اساس الدولة الاموية مسن
جهة ، ونكشف اسرار الاحداث التي رافقت قيامها وأفضت اخيراً
الى ذوالها ، من جهة ثانية .

كان معاوية عامل الخليفة الثاني على الشام ، عاش فيها امداً
ينعم بخيراتها آمناً مطمئناً ، لا يرجو اكثر من ان تصان ولايته
عليها . فلما ولي عثمان شدّ أزره واطلق يده ، الى ان انتسجت
بينه وبين الشاميين مودة عميقة ، فوثقوا به ووثق بهم ، واصبح
الى حد بعيد واحداً منهم ، يشعر معهم ، ويشعرون معه في كل ما
يتناهم وينتابه . وكان لتأقلمه الشامي ، وبراعته في الافادة من ذلك
« التأقلم » ، اثر فعال في اجتذاب السكان اليه وتعاطفهم معه . فلما
أقام على ذلك مدة خلافتي عمر وعثمان حتى تحولت حياته ، كأمير
شامي ، الى « حاجة » حيوية لا غنى له عنها ، ولا غنى للشاميين
عنه .

ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان ، هو قتل عثمان ومبايعة
علي ... وهذا خبر معناه ان أيام معاوية في الولاية امتت معدودة ،
وان مركزه في الشام امسى مقلقاً ، اذ يستحيل ان يرضى به
الامام علي عاملاً ، والامام هو من هو في حزمه وشده . اضف
الى هذا ، ذلك العداء بين الهاشميين والامويين الذي يرقى به الزمن
الى الجاهلية ، الى بدء الحركة الاسلامية ، الى خلافة ابي بكر ، الى

عمر ، واخيراً الى عثمان . فكيف السبيل لانتفاذ الموقف والبقاء
الكارثة ؟

إما ان يقتنع علي بأبقائه في الحكم ، فهذا ما لا طمع له
فيه ، وإما ان يدع عن الخليفة الجديد قبل ان يستنفذ آخر ما لديه
من وسائل العصيان ، إما كانت وجهة العصيان ، فهذا مما يتناقض
مع كيانه القبلي وشخصيته اثوثية للزعامة والتحكم والسيطرة .
فمقد النبوة على المقاومة حتى النهاية ، وقرت رأيه على استجماع القوى
والاسباب التي تهيب له الغلبة ، ثم استغلال جميع الظروف والملازمات
التي كانت تحيط بخصمه !

وكان مقتل عثمان - وهو من اقاربه - اولى تلك الملازمات
وأغناها بالأفكار والحواطر الابليسية . لن يبايع اذن علياً لسبب
واضح «معقول» ، هو النية التي يمكنه ان يلقيها عليه في مصرع
الخليفة الثالث ، ولن يُعَدَمَ بعد ذلك وسيلة تتبع له إقامة البرهان
على هذه التهمة . المهم إيجاد مبرر للعصيان ، وقد وجدته ! ثم لم
يكتف به كمبرر ، وإنما أوغل في استغلاله ، وراح يصور علياً
لاهل الشام ظالماً سفاكاً مغتصباً . فها هم الفئة المجرمون بسرحون
وبسرحون على مرأى منه ومسمع ، ومنهم من اندس في صفوف
جيشه وحمل لوائه . وإذن فعلي ليس الامام الذي تصح مبايعته .
ذلك ما شاع في الشام ، وثتافته اهله ، واضطربت لهوله جموعها .
وهكذا ... رسخ في عقول القوم وأشدنهم ان الخليفة الجديد
مغتصب . ولم يخطر لشائب منهم ولا لشاب ان يعمل الفكر فيما
يلقى اليه من قول ، او ان ينظر للقضية من زاوية غير هذه
الزاوية التي فتحتها لهم معاوية واعوانه ، بل هاجت النفوس وماجت

طلباً بدم عثمان « المظلوم » الشهيد ، وما كانت لتطلب بذلك الدم لو أن الأمر انتقل الى غير علي ! اما وعلي هو الخليفة فلا صلح معه !

ونوات الحوادث بعد ذلك ، وكلها في حملتها وتفصيلها تشدّ ازر معاوية فيما يتغيه من ضعفة موقف علي ، وإنارة القلاقل عليه ، وتعمير الجو حوله ، إذ نكت طلحة بيعته حين لمس جانب الحزم من الامام وقنط من العيالة . وقبعه الزبير على الاثر بالخافز ذاته . ورفقت السيدة عائشة الى جانب هذين ذاغيبه في اقص خيبرها الى أصطياد عصفورين بحجر واحد : إبعاد علي عن السلطة أولاً ، وإبلاء طلحة إمارة المؤمنين ثانياً .

تلفت الامام في هذه الغمرة المظلمة فلم يجد غير مطامع نجش ، وأحقاد تفور ، وشبهات تتكاثف وتحجب النور عن الابصار . ما العمل ؟ أيستقبل ويترك الأمر لغيره ؟ وإذا استقال ... هل تصلح الحال ؟

لا جرم انه سبدعى ممن جديد الى تهدة هذه العاصفة ، وتبديد عوامل الفوضى . ولكن هذه الفوضى ليست وليدة الساعة ، ولا هو عنها مسؤول ! إن جذورها تمتد في أبعاد التاريخ : في عصية الجاهلية ، في الحركة الاسلامية وما رافقها من شؤوب وشجون ، في يوم السقيفة وما انتهى اليه من مبايعة ابي بكر ، في انتقال الخلافة الى الفاروق ، في الشورى التي ادت الى تولية عثمان . وهي تضرب في عرقها القريب بنسب واضح الى اسلوب عثمان نفسه في الادارة . واسلوب عثمان الاداري يتلخص في كلمتين : لوهم والمحابة . فقد وعَنَ حتى أصبح خليفة اسماً ومروءات

المسيح ، وحاجس أهله وعشيرته حتى تحركت الثعرات القبلية ،
ونارت عليه الامصار وفتكت به ا

اما وقد انضح الموقف امام علي ، فلم يبق الا ان يتلافى نتائج
الاجطاء التي وقع بها سلفه ، وان يعضي في سياسة نزوية حازمة ،
مهما اكتنفها من مصاعب ، وعاق سبيلها من عقبات . والناس لا
يتقون الا به ، لما يعرفون فيه من صفات اظهرها منذ نعومة
اظفاره الى يومه ذاك : من شجاعة ، الى نزاهة ، الى شدة في
الحق ، الى صبر على المسكاره ...

غير ان سياسة الحزم والنزاهة التي تشدها المجموع ، في شخص
علي ، والتي اخذ علي في تطبيقها بعد البيعة ، جاءت صاعقة ،
وانقضت على رؤوس الافراد ، فراحوا يتقضون عهدهم فرداً
فرداً ، ويظهرون العصيان واحداً تلو الآخر ، ويتناقضون حيث
يقيمهم النفاق آلام الجهاد ، مما اكراه الامام على امتشاق الحسام ،
وتأديب الناكثين والعاصين والمتنافقين . فغاض اول معركة -
معركة الجبل - ولما تمصر على ولايته ايام . وكانت فاتحة سلسلة من
المعارك دامت تتلاحق باستمرار الى ان جاء الحجاج بن يوسف ،
ووضع لها حداً موقفاً بما اظهر من عنف ، واعتمد من بطش ،
وسلك من سبل الاستبداد .

انتهت معركة الجبل بالتخلص من طلحة والزبير وعائشة ، اي
ان علياً ساهم - تأمل شأن الافئدة وسير التاريخ ا - في تهوية الجو
لمعاوية بما بذل من جهود في القضاء على الطامعين بالملك من اهل
الابجاز ، لانهم كانوا يزاحمون ، في الوقت ذاته ، معاوية بما يراودهم
من احلام ، وينزعون اليه من مطامع .

وجدت واقعة صفين بعد الحبل ، وذلك خاضها الامام نادياً
لمعاوية ، وأرسلت ان يتصرف فيها لولا... لولا الحيلة ، حيلة «الحكيم»
التي تفنق عنها ذهن عمرو بن العاص ، اذ رفع جند معاوية المصاحف
على رؤوس السيوف يناشدون جند علي الرجوع الى كتاب الله
والرضى به «حكماً» . وكان من نتائج هذه الحيلة التي انطلقت
على معسكر الامام ان دب الشقاق الى جيشه ، وتصعدت الجبهة
التي يقودها ، ونشأت فرقة «الخوارج» التي نشجبت معاوية وعلياً
معاً . وهكذا... اسفرت معركة صفين عن زعزعة شبه ثامة لسلطة
الامام .

ولكن الامام نفسه لم يتضعع ، اذ رجع بحارب الخوارج -
وهم اعداء معاوية ايضاً - لينصرف من ثمة الى اعادة الكرة على
معاوية ، فوقعت له معهم عدة مواقع انتصر فيها عليهم ، وشنت
بها شملهم ، وانهمها معركة النهروان .

ومنذ ايقن الخوارج ان لا خلاق لهم في مقاومة علي ، ائت
جنداً وإن حرباً ، لجأوا الى التسامر فيما بينهم على معاوية وعلي
وعمر بن العاص . فنجحت مؤامرتهم على الامام ، وانخفت في
الآخري ، مما اخلى الجو لمعاوية ، وحمله من ايسر السبل الى سدة
الخلافة ، ومنها الى اقامة الدولة الاموية .

فاذا فكرت الآن في ما مرّ بك من حوادث ، وجدت ان
الدولة الاموية بُنيت على اساس من الطمع والتخاذل والخداع
والمصادفة ، اي انها كانت في نشأتها شبيهة ، الى حد بعيد ، بدولة
اسرائيل التي نشأت في قلب البلاد العربية نتيجة الاطماع والحيل
والمصادفات والتخاذل العرب في عصرنا هذا ...

أما الطمع بالملك ، أو الأثراء ، أو السيطرة ، فظاهر بآبئ في تصرفات رجال ذلك العهد ، لا تستغنى عنهم أحداً غير علي ومن حوله من الفقهاء والنسك . ويتجلى لك في سلوك الذين أبدوا الامام أول ما أبدوه كطلحة والزبير وقيس بن سعد وزباد بن أبيه وأبي موسى الأشعري والأشعث بن قيس ، ورهط الخوارج اجمعين الذين انشقوا فيما بعد على انفسهم ، وراحوا بنشدون الخلافه عن طريق « الانتخاب » ، ويقتلون عليها فيما بينهم . وهو اوضع واجنى في معسكر الامويين وانباغهم من عمرو بن العاص ، الى المنيرة ابن شعبة ، الى زياد بن أبيه الذي انحاز الى معاوية بعد قتل علي اختياراً تاماً ، الى بطانة معاوية وصحبه كعبد الرحمان بن خالد ابن الوليد ، والضحاك بن قيس ، وشرحيل بن السمط الكندي وغيرهم ...

والتخاذل - وهو نتيجة الاطماع المتواضعة المتعارضة - تبين ايضاً فيما عايناه الامام من انقسام جنده ، وتدخل اعوانه في الشؤون العسكرية لدى كل شاردة وواردة ، ثم فيما عايناه معاوية نفسه ، ولكن على صعيد ايجابي ، من ارضاء الطامعين واسترضاء الساخطين ، وتأمين الحائزين على مناصبهم ، وتعقب اهل الوجاهة والنفوذ واجتذابهم بما بذل لهم من نفسه ، وأنهى اليهم من انتباهه ورعايته ، وأغدق عليهم من عطايا واموال ...

والخداع يظل عليك لاحب المعالم في اركان الدولة الاموية الثلاثة : معاوية ، وعمرو بن العاص ، والمنيرة بن شعبة . فحيلة « التحكم » يوم رفع المصاحف هي التي ابقت على الامويين ، وصانت حياة معاوية . و « فيض عثمان » هو الخدعة الكبرى

التي التف حولها اهل الشام وانطلقت على غيوتهم . واللجوء الى السم في قتل الحسن بن علي بعد عقد الصلح معه ، والتخلص من عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، والقضاء على الاشتر هو الذي مكّن معاوية في العراق ومصر وسوريا بعض التمكن إن لم يكن كله .

بقي اثر المصادفة في قيام الدولة الاموية ، وأية مصادفة اسعد من تلك التي سلم بها عمرو بن العاص ومعاوية ، وذهب الامام ضحيتها وحده ؟ بل ان المصادفات المؤاتية التي وقعت لمعاوية وحملت اليه النصر لم تقع لرجل غيره في اكثر ما نعرف من حقب التاريخ كالظروف التي احاطت ببيعة علي ، الى ولاية الشام بالذات في تلك البرهة ، الى ذلك الجو الشامل من التفكك الاجتماعي والتخطيط السياسي ، الى... الى ما لا يتسع لذكره المقام . وقد فطن معاوية ، من مؤيديه واعدائه ، على السواء ، الى اختلال هذه الاسس التي قام عليها ملكه . فقد روى ابن الاثير ان معاوية خطب الناس بعد بلوغه نعي الاشتر ، وهو الذي ارسل من دس له السم في العسل ، وقال : « ... اما بعد ، فقد كانت لعلي بن ابي طالب يدان يمينان قطعت احدهما يوم صفين - يعني عمار بن ياسر ، وقطعت الاخرى اليوم - يعني الاشتر . فلما بلغ الخبر سامع عمرو بن العاص قال ساخراً : « ان لله جنوداً من العسل ! »

وفطن معاوية نفسه - وكيف لا يفطن ، وهو ادرى الناس بما صنع وما كان ينوي ان يصنع - الى اختلال الاساس في بنيانه ، فراح يدعمه من هنا وهناك ، ويحاط له بكل ما

ملكته يداه من اسباب الاحتيال ، ويغثال هذا ويقرّب ذلك ،
يرغب مرة ويرهب اخرى ، ويعفو عن اخطاءه ، وينجواوز عن
سيئاته ، ويزرع الحقد في نفوس الشاميين على الامام علي ،
وبأمرهم بسبه من فوق المنابر . ومردة هذا السلوك من الفه الى
بانه هو « الخوف » الذي كان بدأ اقطار نفسه .

انزل الى الاعماق وابحث عن اسرار هذا الخوف المفعج الغريب ،
تجدد في يقين معاوية الخفي البعيد العميق ان هذا الملك ليس له ،
تجدد في شعوره بالجرائم التي ارتكبها ليحقق ما حقق من جناه
وسلطان ، بل ان مغامرته الكبرى في اخذ البيعة لابنه يزيد ، وهو
ما يزال على قيد الحياة ، نشأت في نفسه عن خوفه من اقتضاح
أمره ، واقدم عليها عن خوف ، لانها اوشكت ان تذهب بهيبته
وتقتل نفوذه .

ومبايعة يزيد نفسها نقض صريح لمبدأ الشورى الذي اتبع في
استخلاف الراشدين ، وتخطى واضح لميثاقه مع الحسن بن علي ،
واعتماد على مبدأ التحكيم الذي دعا هو اليه في صفين . فلما قضى
نحبه جاءت خلافة ابنه كخلافته مزعومة الاركان ، مضطربة الاسس
وغم كل التدعيات والاحتياطات التي اتخذها لنفسه ولها .

واعاد النابض نفسه بين يزيد بن معاوية والحسين بن علي ، اذ
نشب صراع بينهما افضى الى غلبة يزيد لنشابه ظروف الحسين
بظروف والده ، وموقف يزيد بموقف والده ، ولكن على شكل
اغنف واحرج مع الفريقين المتصارعين .

بيد ان اختلال الاساس في بناء الدولة الاموية كانت يتسع
وينضح كلما تقدمت الايام . فلما قضى يزيد ، وقف ابنه معاوية

الثاني ، وقد عرف الحلل ، وادرك ان لا طاقة لاحد على رآب
الصدع ، وصارح الناس بالحقيقة قائلاً في خطبة شهيرة : « ايها
الناس ! ان جدي معاوية نازع الامر اهله ، ومن هو احق به
منه لقربته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو علي بن
ابي طالب . وركب بكم ما تعلمون حتى اتته منيته ، فصار في
قبره رهيناً بذنوبه ، واسيراً بخطاياهم . ثم تقلد ابي الامر ، فكان
غير اهل لذلك ، وركب هواه ، واخلفه الامل ، وقصر به
الاجل ، وصار في قبره رهيناً بذنوبه ، واسيراً بجرمه . »

ثم قال : « ان من اعظم الامور علينا علماً بسوء مصرعه ،
وبشئ منقلبه ، وقد قتل عترة رسول الله ، واناخ الحرم ، وخرتب
الكعبة ، وما انا بالمنقلد ولا بالمتحمل تبعاتكم ، فشاكنم وامركم ... »
ودخل بعد هذه الخطبة منزله ونعيب حتى مات بعد ايام قليلة .
وفي رواية ان اهله دسوا له السم تخلصاً من ضميره المستيقظ ،
وافكاره المرة العنيفة . ولا يبعد ان تكون صحيحة . فمعاوية افاد من
السم اكثر من مرة في القضاء على اعدائه ومعارضيه .

ولكن الرائع في خطبة ذلك الخليفة ، وفي تنازله عن الملك ،
واخفاء آثاره بعد ذلك ، هو هذه « التعبيرات » الفصيحة البليغة
عن اخلال الاساس في بناء الدولة الاموية . فنحن لا نستطيع ان
نتصور او نصور هول الاجرام في سياسة معاوية الاول كما
صورها هذا « الانسان » بخطبه ، ونخله عن العرش وميتته
المنجعة .

وكانت نهاية معاوية الثاني ايذاناً بانتهاء العرش الاموي لولا
ان تطبل في عمره مصادفات ابقت على حياة مروان الذي استطاع

ان ينجو من الحجاز - وكان قد دخل في طاعة عبد الله بن الزبير -
ويصل الى دمشق في الوقت الملائم ، وينقذ الامويين من الشقاق
الذي دب فيهم ، ثم يستخلف من بعده ابنه عبد الملك الذي استعمل
الحجاج على العراق ...

٣ - ارض الواقع

البلاد الشامية ارض الواقع !

ذلك يعني ان الشام ، شام ذلك العهد ، اقرب لان تثبت رجالاً
واقعيين اكثر من ان تثبت مثاليين ، بل ان هؤلاء لا ينشأون
فيها إلا نادراً ، وندرتهم بالغة لدرجة لا يعدون معها ولا يذكرون
في خضم السواد الغالب ، واذا ظهوروا فلا يكون لهم اي اثر في
حياة الجماعة وتغيير طرائقها إن في العمل وإن في التفكير .
والواقعي ، هنا ، هو الذي يتقبل الاشياء والحوادث دونما إجمالة نظر
او اعمال فكر ، فهو لا يضيف على الدنيا واحوالها وصروفها
شيئاً من عقله ونفسه ، وإنما يأخذ ما يعطى على انه هو « الممكن » ،
وينفذ ما تأمر به السلطة ، اياً كانت السلطة ، على انه هو « الحق » ،
ويعيش هادئاً مطمئناً ما دامت اسباب الطمأنينة المادية موفورة له .
ثم لا يتأمل ولا يتور إلا في حالة واحدة هي امتناع اسباب
تلك الطمأنينة عليه ، فالسياسة الرشيدة عنده هي التي تؤمن له القوت
وتقده باسباب الحرية الاقتصادية ، حتى يصيب في سعة من واقعه ،
وكلما فتحت امامه ابواب الرفاهية وبشرت له سبلها - كانت
تحقيقاً لمنه الاعلى ، اي كانت هي السياسة المثلى في نظره . والتأمل

الفلسفي عنده ضرب من الخفاقة لا معنى وراءه ، ولا جدوى فيه .
 أما الفضائل والنزعات الأخلاقية السامية فهو يعتبرها « زينة » يمكن
 الاستغناء عنها ، وكثيراً ما يعجب كيف يضعي امرؤ من اجلها ...
 والادب والفن ليسا ، في حساباته ، غير وسائل للهو وتوجيه الفراغ ،
 وإن لم يكونا وسائل للدعاية وبسط النفوذ . هذا هو كيان « الشامي »
 في عهد الامويين .

نستطيع ، من على صعيد هذا الكيان الروحي ، ان نفترس
 سلسلة من الظواهر السياسية التي ظهرت عهد معاوية ومن تلامذته
 من خلفاء ، تلك الظواهر التي شغلت رجال الفكر والتاريخ من
 شرفيين ومشرقين ، ولا تزال تشغلهم الى يومنا هذا .

تأمل الآن موقف معاوية بن يزيد الذي اشرنا اليه ، ثم تأمل
 موقف عمر بن عبد العزيز الذي شجب سياسة جميع الذين تقدموه
 من بني امية ، نجد ان الضمير الاموي كان يستيقظ بين فترة وفترة ،
 ولكن جوة الواقع الشامي ملك على الامويين افطار وعيهم ،
 وساقهم في تيار « العنف » الذي افلح معهم اول مرة ، فانساقوا
 وهم لا يشاكون .

عاك ما يقوله الجاحظ : « ... واهل الشام ذور بلادة وخمول
 وجود على رأي واحد ، لا يرون النظر ، ولا يسألون عن مغيب
 الاموال ... »

واسمع معاوية الاول يوصي ابنه يزيد ، وهو على فراش
 الاحتضار : « ... ثم انظر اهل الشام فأجعلهم الشعار دون الدثار ،
 فان رابك عن عدوك ريب ، فارمه بهم ، فان اظفرك الله به ،
 فأردد اهل الشام الى بلادهم ، ولا يقيموا بغير بلادهم ، فيتأدبوا

بغير ادبهم .

وانقد كان معاوية يعتبر نفسه « مؤدباً » للشاميين خاصة ،
وكثيراً ما اظهر فيه هذه النظرة او الفكرة في سيرته واقواله .
فقد اجاب سودة بنت عمار الحميرية عندما رغبت اليه ان يعدل
في الرعية كلها دون محابة او تفريق ، بقوله : « لمظكم ابن ابي
طالب الجرأة على السلطان فطيشاً ما تظلمون . » واجاب عكرشة
بنت الاطرش حين افحصته فيما طلبت اليه من حق : « هيات
يا اهل العراق ! فقهكم علي بن ابي طالب فلن تطافوا . » وقال
لمحمد بن الاشعث مؤنباً ، وقد تقدم هذا على الاحنف بن قيس
في الدخول عليه : « ... وإنا كما نلي امورك ، كذلك نلي ادبكم . »
ومناظر العجب في سيرة الشاميين مع خلفاء بني امية انهم
تأدبوا بالآداب التي ارادها لهم معاوية ، فلم يكن هم ادنى يد
في توجيه الحكم ، ولا في سياسة الامصار التي استمرت تعج
بالفق والتورات . فما وجد يزيد مثلاً ادنى معارضة شامية حين
افدم على قتل الحسين بن علي ، ولا ثقي عبد الملك بن مروان
ناصر شامياً ينصحه بالرفق والتؤدة ، ولا اهتم احمد من اهل
الشام لفظائع الحجاج في الحجاز والعراق ، بل كانت الشاميون
بطاعتهم العمياء لرؤسائهم وحكامهم كالعراقيين في ثرودهم عليهم ،
اي اداة اضطراب وقلقلة : عاملان متنافضان افضيا الى نتيجة
سياسية واحدة .

ذلك هو القول الفصل في يحمل العهد الاموي ، وسيرة الخلفاء
الامويين . فلو وجد في الشام من يحاسب الرؤساء على تصرفاتهم ،
والحكام على تدابيرهم ، ويدرك عواقب الاعمال التي يقوم بها

الولاة ، ويرشدنهم الى مناهي الخلل في اساليبهم الادارية ، وبجملهم ، بما يبدي من فهم واستعداد للمصيان ، على الافاة والروية ، ثم لو وجد في العراق من يدعو الى الافاة والمحبة وتوحيد القلوب ، ويوقف العصبيات الشخصية والقبلية عند حد معقول ، لما حدث ذلك الذي حدث من فجائع واهوال وكوارث لا نعد ولا نحصى ...

لكن هذا الافتراض او النسبي غير وارد في كلا طرفيه . فالشام هي الشام ، والعراق هو العراق ولا تبديل لقوانين الطبيعة ! ونحن انما نسوق هذا الحديث لايضاح ما ينبغي ايضاحه من وجوه الاختلال في التوازن الاجتماعي بعد استتاب الامر لمعاوية ، ونشوء الدولة الاموية في « ارض الواقع » ، وقيامها على تلك الأسس الواقعية التي شرحناها في الفصل السابق .

الامر الذي لا مندوحة عن ابرازه وتبينه وجلاته للعيان ، كي نصل الى ادراك سيرة الحجاج وفهمه كظاهرة تاريخية أو انسانية معقدة ، هو هذا : ان قيام الشام على رأس الامبراطورية الحديثة ، نتيجة مصادفات عابثة ، وهي لا تلك - في نظر سائر الامصار - مؤهلات الرئاسة ، جعل الحجازيين والعراقيين يتربصون بها الدوائر ، ويضربون لها الضغائن . فكان التوتر يشند كلما لجأ الامويون الى الضغط ، وكانت الثارات والاحقاد تتكاثر وتنتالغ كلما سلك الامويون « سبيل العنف والاكراه » . ثم لم يكن في متناول الامويين غير البطش والارهاب ، بعد ان افلتت الحجابة وتوالت الفتن ، والبطش لا يحمل على احترام البطاشين ، والارهاب لا يرفع من قبلة المرهبين .

اسمع هذا الحديث بين الأحنف بن قيس وصاحب له في

صفين . قال الاحنف وهو يشهد سير المعركة وبشرف على تطوراتها :

- هلكت العرب .

- وإن غلبنا يا أبا بجر ؟ !

- نعم ! وإن كنا نحن الغالبين .

- والله ما جعلت لنا مخرجاً .

- إنا إن غلبناهم لم نترك بالشام رئيساً إلا ضربنا عنقه ،

وإن غلبونا لم يعرج بعدها رئيسٌ عن معصية الله أبداً .

وجاءت الحوادث بعد صفين تؤيد رأي الاحنف إذ لم يكن

يومئذ للعراقين ولا للحجازيين أدنى ثقة برؤساء الشام وقادتها

من وجهة اخلافة ، وكانت من قبل وجهة دينية !

وإذا انت دفقت النظر وجدت ان معاوية هو المسؤول عن

نشوء هذه الروح الاقلبية عند العرب ، وهو النافخ في بوقها ،

ورأيت انه كان اول داعية لانتشارها ، فقد اجاب الامام عندما

دعاه الى المبايعة بهذه الرسالة :

« سلام عليك ! اما بعد فلو بايعك الذين ذكرت وانت

بريء من دم عثمان لكنت كأبي بكر وعثمان رضي الله عنهم

اجمعين ، ولكنك اغريت بدم عثمان المهاجرين ، وخذلت عنه

الانصار ، فأطاعك الجاهل ، وقوي بك الضعيف . وقد أبى اهل

الشام الا قتالك حتى تدفع اليهم قتلة عثمان ، فان فعلت كانت

شورى بين المسلمين . وانما كان الحجازيون هم الحكماء على الناس

والحق فيهم ، فلما فارقوه كان الحكماء على الناس اهل الشام .

ولعمري ما حجتك علي كحجتك على طاحنة والزبير ، وان

كانا بايعاك فلم لبايعك انا . وما حجتك على اهل الشام كحجتك

على اهل البصرة ، لان اهل البصرة اطاعوك ، ولم يطعك اهل الشام .

واضح في هذه الرسالة ، الرائعة في دلالتها ، ان معاوية جعل من قضية الشخصية البهتة « قضية شامية » عامة ، افرد عليها الشاميون . ولم لا يفروا وهي تستجيب لانحى ما يحيش في نفوسهم من مطامح واشواق ، وتلي اقصى ما يأملون من رغبات ؟

غير ان نشوء « قضية شامية » اذى بصورة عفوية لكاد تكون اوتوماتية الى نشوء قضية عراقية ، واخرى حجازية . ثم راحت كل قضية من هذه القضايا الافلية تتلبس بثوب ديني خاص ، وتوسم لنفسها مثالية فكرية خاصة (ايدولوجيا) ، وتفيد من ملائمت الظروف والاحوال مختلف التأويل الفقيهية والشرعية ، وتدس على النبي من الاحاديث الموضوعة والاقوال المتنافضة ما يؤيد وجهة نظرها ، فكان الزبيريون في الحجاز ، والشعبة في العراق ، والحوارج في مختلف الامصار ، والحكوميون الواقعيون في الشام الذين اكنفوا بالواقع واقاموا عليه .

ولم يكن ابتداء الاقطار الاخرى ينظرون الى الشام واعلمها ، في ذلك الوقت ، نظرة اكبار . فقد ذكر المسعودي ان عمر بن الخطاب كتب الى حكيم من حكماء عصره يسأله ان يصف له المحدث وامورنا ومساكنها ، فكتب اليه ذلك الحكيم فيما كتب : ... اما الشام فسُحُبٌ وآكام ، وريجٌ وغمام ، وغسق ركام ، ترطب

الاجسام ، وتصفتي الالوان ، وتبلىد الفهم ، وتنزع غوره ، ونحفي الطبع ، ونذهب بقاء الفريضة ، وتنضب العقول ... »

وروى ابن ابي الحديد ^١ ، ان رجلاً ، يقال له الحجاج بن خزيمة ابن الصفة ، اقبل من المدينة بعد مقتل عثمان الى الشام وقال لمعاوية : « يا امير المؤمنين (ولم يخاطب معاوية بامير المؤمنين قبلها) انك لتقوى على علي بنون ما يقوى به عليك ، لان معك قوماً لا يقولون اذا قلت ، ولا يسألون اذا امرت . وإن مع علي قوماً يقولون اذا قال ، ويسألون اذا امر ... »

وروى صاحب الاغانى الحكاية التالية : « مات رجل من جند اهل الشام عظيم القدر ، ثم فيه عز و عدد ، فحضر الحجاج بن يوسف جنازته ، وصلى عليه ، وجلس على قبره ، وقال : لينزل اليه بعض اخوانه . فنزل نفر منهم ، فقال احدهم ، وهو يسوي عليه : رحمت الله ابا قنسان ، ان كنت ما علمت لتجبد الغناء ، وتسرع رد الكأس ، ولقد رفعت في موضع سوء لا تخرج منه والله الى يوم القيامة . فما قالك الحجاج ان ضحك ، وكان لا يكثر الضحك في جد ولا هزل ، وقال له : اهذا موضع عذا لا ام لك ؟ فأجابه : اصليع الله الأمير ، فرسه حليس في سبيل الله لو سمعه الامير يعني : يا لبني اوفدي النارا ان من تهوين قد حارا

لانتشر الامير على « سعة » ، وكان الميت يلقب بسعة . فقال الحجاج : يا الله ، اخرجوه من القبر ! ما أبين حجة اهل العراق في جهلكم ، يا اهل الشام ! »

ونشأت الى جانب هذه الروح الافليمية عصبيات عنصرية
جائحة فتاكة ، مردها الاساسي الى تلك التفرقة الشديدة التي
اوجدتها السلطة الاموية بين العرب والموالي . فكان الفرس والروم
والاكراد والانباط وغيرهم من العناصر التي قهرتها قوات الاسلام
تقلب يومذاك من هذا الجو البغيض في جحيم لا سبيل الى
الاستقرار معه ، ولا طاقة لها على احتياله ، لما تلاقي فيه من
ازدراء وإيذاء .

وما كان المعارضون ليغفلوا عما تنطوي عليه هذه التفرقة
العنصرية من امكانيات تستمر في تهديم العرش الاموي ، فاستغلها
الخوارج في جانب ، والشيعية في جانب ، كما افاد منها عبادة
ابن الزبير في ثورته افضل افادة . والخطر الكامن فيها انها
تناقض جوهر الدين الاسلامي . فالدين صريح حول هذه النقطة ،
صراحة لا مجال فيها للتأويل والتضليل ، اذ ان سلم القيم عنده
يرتكز على التقوى ، وهي التي تتوزع درجاته فـ لا فضل
لعربي على اعجمي الا بالتقوى .

وكان معقولاً ان تنحاز العناصر الأعجمية المسلمة ، في ذلك
الحين ، الى جانب المعارضة ، اي الى معسكر الخوارج والشيعية ،
لما كانت تجده لديهم من حسن القبول ، وكرم الوفاة ، وانسجام
المبدأ ، وقوة العقيدة ، ولما ييسرون لها ، على الاخص ، من
سبل التحرر ووسائل الانعناق .

ذلك هي التركة التي خلفها معاوية في حياة المسلمين بعد وفاته :
الافليمية ، والعنصرية ، واستيقاظ العصبيات القبلية ، وسياسة
الاذلال ، والحكم الوراثي .

ويظهر اثر هذه التركة ، اكثر ما يظهر ، في العراق وجوارها ... مما يتضح في الفصل التالي .

٤ - ارض التمرد

العراق ارض التمرد .

ذلك هو تاريخها منذ 'عرف التاريخ الى يومك هذا . والتمرد ، في جوهر معناه وكما قتل في سيرة العراقيين ، ضرب من الحبيوة الصاخبة التي تحمل صاحبها على الانطلاق المحض ، دونما نظر في العواقب والاعدا ف . والتمرد انسان يستعلي بروحه عن الوجود ، حتى ليصبح الوجود عنده « فيداً » ، يجهد في تفكيكه والتخلص منه . ولا تسله بعد ذلك عن سبب ، فانه لن يعدم - وهو النائر - ان يجد فيها حوله ، ومن حوله ، الف سبب وسبب لتبرير ثورته ، وفلسفة انطلاقه وجروحه ، لان تعلقه الشديد بنفسه ، برأيه ، بهواه ، بمطامحه ، بحريته ، بكرامته ، بأي موضوع من الموضوعات ، اقوى واشد وأفعل من تعلقه بالبقاء او الحياة . وقد قال اندره بريشون ، وهو من افذاذ المفكرين : « التمرد يحمل برهانه بذاته لذاته مستقلاً كل الاستقلال عن الظروف التي حتمت نشوئه » ، كما انه لا علافة له بمدى ما يصيب من نجاح او اخفاق في تبديل الواقع الذي يشور عليه . »
 تلك هي سيرة « الكائن العراقي » ، فانه لا ينبغي من الحياة ان يعيش . اما السبب فهو انه يريد ان يعيش على هواه ، دون ان يتقيد بقانون ، او بسلطة ، او بقاعدة ، او بإرادة شخص من

الأشخاص . ولذا تراه في نضال دائم متصل مع الحكام ، مع القواعد ، مع السلطات . ولا يفتقر عن التمرد أبداً ، حتى ليمرّد على التمرد نفسه . وهنا يبدأ ويطمئن . وهذا يعني أنه لا يطمئن ولا يبدأ إلا حين يكون الهدوء نفسه ضرباً من التمرد .

غير أن المشكلة الكبرى التي يعانيها العراقي في نفسه ، ويعانيها الباحثون في نفسيته ، ليست في أن العراقي لا يحتمل الحياة إلا حين تكون الحياة « على هواه » ، أو إلا أن يكون في جو من الحرية يمكنه من التصرف بها على هواه ، وإنما المشكلة هي أن هذا « أقوى » متقلب متغير . فقد يكون اليوم غير ما كان بالأمس ، وهو اليوم غيره غداً . وهكذا تتصل أسباب التمرد في نفس العراقي ، فلا تنفذ إليه من باب حتى يفتح لها عليه الف باب . وهكذا ... تتنافض تلك النفس أيضاً في غرداتها وتوراتها ، فما نردت عليه اليوم ، تتمرد لأجله غداً . أرايت إلى غرابة هذه العقدة ؟

لقد وقف الاسكندر حيالها ذاهلاً مضطرباً لا يدري ما يفعل ، ولا كيف يفعل ، حتى اقضى به الاضطراب الى حالة فقد معها إترانه ، فقال لأرسطاطاليس : « لقد اعباني أهل العراق ! ما أجري عليه حيلة إلا وجدتهم قد سبقوني الى الخلاص ، فخلصوا قبل إيقاعها بهم ، وقد عزمتم على قتلهم عن آخرهم ! » فأجابته المعلم الاول بنودة وحكمة : « إذا قتلتمهم فهل تقدر على قتل الفراء الذي عذّي طباعهم ، ونخصهم بهذا الذكاء ؟ فإن ماتوا ظهر في موضعهم من يشاكلهم » .

وجاء بعد الاسكندر بالف سنة وما ينفذ عليها ، رجلي يقال
له عثمان بن حيان المري ، واذا به يعاني من العراق واهله ما
خافه منهم الاسكندر عبداً وقاماً ، ويعرب لاهل الحجاز في المدينة
عن بلانه بقوله : « إني رايت العراق دالة عضالاً . . . والله لقد
اعطوا بي . واني لأراني سأفرقهم في البلدان ثم أقول : لو فرقتهم
لافسدوا من دخلوا عليه بجدل وحجاج ، وكيف ؟ ولم ؟ وسرعة
وجيف في الفتنة . . . »

أما الجاحظ - وهو عراقي - فإنه يعمل فكره في وجوه
المشكلة ويقول : « إن اهل العراق اهل نظر وذوو فطن ذكية ،
ومع الفطنة والنظر يكون التنقيب والبحث ، ومع التنقيب والبحث
يكون الطعن والقدح والترحيع بين الرجال ، والتمييز بين الرؤساء
وأظهار عيوب الامراء . . . وما زال العراق موصوفاً اعله بقله
الطاعة ، وبالشقاق على اولي الرئاسة . »

ويصف المسمودي ارض التمرد بقول : « . . . وأما العراق
فمنار الشرق ، وسرة الارض وقلبها ، اليه تبادرت المياه ، وبه
انصلت النضارة ، وعنده وقف الاعتدال ، فصفت امزجة اهله ،
ولطفت اذهانهم ، واحتدت خواطرهم ، وانصلت مسراتهم ، فظهر
منهم الدهاء ، وقويت عقولهم ، وثبتت بصائرهم ، وقلب الارض
العراق ، وهو المحبس من قديم الزمان ، وهو ملك النور ، ومسرح
العبيين ، ومدنه المدائن ومسا والاهاء ، ولاهله اعدل الالوان ،
وأنتى الروائح ، وأفضل الامزجة ، وأطوع القرائح ، وفيهم جوامع
الفضائل ، وفوائد المنبرات ، وفضائل كثيرة . . . »

واغرب عهد ظهر فيه تمرد العراقيين على الرؤساء هو عهد

الامويين . فقد بلغ فيه الصراع بين واقعية الشام ومثالية العراق
 درجته القصوى ، لاسيما أن معاوية غذى الروح الاقليمية ومدّها
 في نفوس الشاميين خاصة بأسباب الشدة والبأس ، ووجههم أكثر
 ما وجههم نحو العراق والكبد لاهله والغص من كرامتهم ، والعمل
 على اذلالهم ، ولكن بوسائل خفية ، وطرق ملتوية غير مفضوحة ،
 كان افدر معاصريه على سلوكها والافادة منها ، كتخلصه من
 الحسن بن علي بحمل امرأته على دس السم له ، واستلحاق زياد
 ابن ابيه بنفسه ، وإيلاء الكوفة للمغيرة بن شعبة ، واستنهار
 أخلاف بين الشيعة والحوارج .

وما فاض معاوية ووفي الامر يزيد ، كان العرافيون في بجران
 من الغلبان لا يستفيقون منه لأنهم خذلوا علياً وما افادوا من
 خذله غير الذلة والدمار ، وخذلوا ابنه الحسن وأكرموه على
 مصالحة معاوية ، وراح ولاية الامويين كزياد بن ابيه والمغيرة
 ابن شعبة يذيقونهم البلاء اشكلاً والواناً . فكانوا يتجنبون
 الفرض ، ويتربصون الظروف للانقضاض على الامويين وتشتت
 شملهم وبحق سلطانهم . ورأوا في استخلاف يزيد ما يعينهم على
 النورة ، ويحفزهم الى الوثوب ، لان يزيد لم يكن يمنع بشيء
 من الشعبية في صفوف المسلمين عامة ، ولا كان على شيء من
 الكياسة او المهارة التي تمكنه من إخماد الفتن وتدارك الثورات .
 فاجتمع اهل الكوفة ، وكتبوا للحسين بن علي يبايعونه ويعيدونه
 بالتأييد ومحاربة اعدائه واعدائهم من جند الشام ، وسدنة العرش
 الاموي .

ولكن العراق في هذه الاثناء كان موزعاً بين ثيارات ثلاثة :

الخوارج ، والشيعة ، والزبيريين وهم حزب عبدالله بن الزبير الذي ذرّ قرناه بعد وفاة معاوية . فلما وفد الحسين على الكوفة لم يجد من ينصره ، واستشهد في وقعة الطف الشهيرة .

غير ان استشهاد الحسين افضى الى زيادة البلية في جميع الامصار ، وفي العراق خاصة ، اذ سجل عند ذاك الحزب الزبيرى تقدماً كبيراً في الجزيرة العربية ، وانبت اعوانه وانصاره يدعون الناس الى مبايعته حتى تمت له البيعة في قسم كبير من العراق ، بعد ان بايعته مصر والحجاز واليمن ، وانضم اليه عددٌ من اهل الشام ، وقارب ان يُنصب خليفة على جميع المسلمين .

وهنا ... هنا ، في هذه اللحظة الحاسمة من تاريخ الدولة الاموية ، رجع العراق الى غمره ، ونشأت فيه الى جانب الحركات السياسية الاولى (الخوارج ، الشيعة ، الزبيريون) حركة جديدة هي حركة « التوابين » الذين لم يبايعوا عبدالله بن الزبير ، ومضوا يطلبون ثأر الحسين . وظهر يومذاك « المختار الثقفي » الذي نادى بمحمد بن الحنفية اخ الحسن والحسين خليفة ، وفاد حملة النار ، ودارت بينه وبين الزبيريين معارك انتهت بخمود فتنه وقتله ، ولكنه انشأ حزباً جديداً ومذهباً جديداً عاش من بعده حقبة غير يسيرة في العراق .

بيد ان اسلوب عبدالله بن الزبير في ادارة البلاد كان ينطوي على كثير من الغفلة وقصر النظر اذ استعمل اخاه مصعباً على العراق ، فجعل هذا كل جهته في قتال الخوارج والشيعة والتوابين ، حتى اذا وفق الى قتل المختار الثقفي وخنق حركته الجديدة في مهبها ، ذهب وفد من اهل الكوفة الى الحجاز لمبايعة عبدالله

ابن الزبير ، فما كان منه الا ان اخذ في لومهم وتقريعهم ، عوضاً
عن قبولهم وتوجيههم نحو محاربة اعدائه الشاميين . ثم لم يكتف
باللوم والتقريع ، وانما اوغل في المقابلة بينهم وبين اهل الشام حتى
انتهى الى التآمر على الشاميين وحسن طاعتهم لرؤسائهم . فرد عليه
احد مندوبي الكوفة بقوله : « ان مثلنا ومثلك ومثل اهل الشام
كما قال اعشى بكو بن وائل :

عَلَّقْتُهَا عَرْضاً ، وَعَلَّقْتُ رَجُلًا غَيْرِي وَعَلَّقْتُ أُخْرَى غَيْرَهَا لِرَجُلٍ
أَحِبِّينَاكَ لِحَنٍ ، وَأَحْبَبْتَ أَنْتَ أَهْلَ الشَّامِ ، وَأَحْبَبَ أَهْلُ الشَّامِ
عَبْدَ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ . »

ولما انصرفوا من حضرته كاتبوا عبد الملك وغدروا بمصعب ...
واخذت الحوادث تتوالى في الحجاز وتعد ونجود الى ان
نبت أخيراً عرش أمية وتم الامر لعبد الملك بن مروان بن الحكم .
ولكن كيف نبت عرش أمية وسط هذه الزعازع ؟

٥ - ارض الاربيحية

الحجاز ارض الاربيحية .

هكذا كانت ، على الأقل ، في صدر الدولة الاسلامية ، اي على
عبد الخلفاء الراشدين . والاربيحية - كما سبق لي ان عرفت في كتابي
« روح العروبة » - غريزة تدفع صاحبها على تقدير الجمال في شئ
انواعه ومظاهره . وانما قلت غريزة لان مظهرها رد فعل عفوي
لا يبعته الجمال في النفس من متعة وارباح . وهذه العفوية في
الاستجابة هي التي جعلتها غريزة لا عادة ولا عملاً إرادياً . وقلت

ان تجد غير ارجي في الحجاز بان نشوء الحركة الاسلامية . فقد
كان الحجازيون مستغرقين في جو رومانطيق غريب ، لمحبة العشق
وسداه الغناء . وعلى هامش العشق والغناء نشأت ضروب من
اللبو ، وحالات من الاجتماع ، واوضاع وعادات وتقاليد تنضج كلها
عن نفاق في مثالية جمالية خارقة ، وتعبّد عميق لصور الجمال الحسي
والمعنوي . اما المرأة ، فذلك كانت قبلة الحياة ، اليها يتجه الغاؤون
والانقياء والجنود والنجار والساسة والقواد والولاة . فلا حديث
لهم غيرها ، ولا تفكير الا فيها ، الى ان نشأت في قلب المدينة
حركة نحت عجيبة ، واخذ النحشون يزدادون مع الزمن عدداً
ونفوذاً .

ومن هؤلاء النحشين رجل اسمه هـ هيت ، قال لعبدالله بن ابي
امية على مرأى من النبي ومسمع : « ان فتح الله عليكم الطائف
فسل النبي ان يب لك هـ بادية » بنت غيلان بن سلمة ، فانها
هيفاء ، شجوع ، نجلاء ، ان تكلمت تغتت ، وان قامت تكتت ،
تقبل باربع ، وتدير بثمان مع نعر كأنه الافحوان ، وبين رجلها
كاللآلء المكفوء ، كما قال قبس بن الحظيم :

تغترق الطرف وهي لاهبة كأنما شفت وجهها نراوا
تنام عن كبر شأنها فاذا مشت رويداً فكاد تنقص

فقال له النبي : « لقد غلغلت النظر يا عدو الله ! » ثم جهلاه عن
المدينة الى الحى (جبل) بالمدينة على ثلاثة اميال من العقيق) .
فلما وفي ابو بكر ابي ان يردّه ، وكلمته في شأنه عمر فقال :
« ان رأيت لاضرر من عنقه . » ولكن عثمان سمع له فيما بعد ان يأتي
كل جمعة الى المدينة .

ومنهم أيضاً رجل يقال له « النعاشي » وشي به بعضهم لمروان
ابن الحكم أنه لا يقرأ من كتاب الله شيئاً . فأرسل في طلبه
واستقرأه أم الكتاب ، فقال : « والله ما معي بناتها ، أو ما أقرأ
البنات ، فكيف أقرأ أمهن ؟ » قال مروان : « انزأ لا أم لك ! »
وامر به ، فقتل !

وحديث نصر بن حجاج ، الذي قتل نساء المدينة بجهالة ، مشهور .
فقد اضطر عمر بن الخطاب إلى نفيه حرصاً على العواتق وقد سمع
بأذنه هناكهن يحبه وتدهن فيه .

وقريب منه حديث طوبى المغني الذي قضى معظم أيامه بين
النساء يتحدث عن أسرار هذه ، ويروي أخبار تلك وحبها لذلك ،
حاملاً دفة « خفية » يتغنى في حلقات يعقدها له شباب المدينة في
نجوة عن العسس والشرطة والعيون . ولما سُئِلَ عن مولده قال :
« ولدت يوم قبض رسول الله ، وفطمت يوم مات أبو بكر ،
وختنت يوم قتل عمر ، وزوجت يوم قتل عثمان ، وولد لي يوم
مات علي ! »

بيد أن التخنت ظاهرة اجتماعية ذات دلالة سلبية ، بمعنى أنها
تكشف إلى حد بعيد عن المحلل في أخلاق المجتمع ، ولكنها هنا ،
في الحجاز ، في ذلك العصر ، تشير إلى طغيان الخس الجمالي وتأثر
المجتمع بالوان من الحياة هي تعبيرات عن المرح الذي يرافق
التوثب والنشاط ، وإلا ، فليس من المعقول أن تكون الحجاز
تجناز يومئذ مرحلة التحلل والحركة الإسلامية في عنفوان ازدهارها
وانطلاقها .

نأمل هذه الحكاية القصيرة : سمع عمر بن الخطاب امرأة

في الطواف نقول :

فمنهن من تسقى بعذب مبرد ، نفاخ فتلكم عند ذلك قرّت
ومنهن من تسقى بأخضر آجن أجاج ، ولولا خشية الله قرّت
فهم شكواها ، وبعث الى زوجها ، فوجده متغير القم ، كريمة
الرائحة ، فضبطه بين خمس مائة من الدراهم وطلافيها ، فاختار
الدراهم ، وطلقها .

ثم تأمل هذه الروح المريحة التي تقطر بالظرف عند النساك
والتعبد من اهل الحجاز . فقد روى عبد الله بن عمر - وهو
من الانقياء المشهود لهم بالصلاح - هذه الرواية عن نفسه : « خرجت
حاجة ، فرأيت امرأة جميلة تتكلم بكلام أرفقت فيه (اي كانت
بديشا) ، فأدريت ناقتي منها ثم قلت لها : يا امة الله ، ألسنت حاجة !
أما تخافين الله ؟ فسفرت عن وجه يبهز الشمس حسناً ، ثم قالت :
تأمل يا عم ، فاني ممن عناه العرجي بقوله :

أماطت كساء الحر عن حر وجهها
وأدنت على الحدين برداً مهلهلاً
من اللاني لم يحجبني يغبين حسبة
ولكن ليقتلن البري المغفلاً

فقلت لها : « فاني أسأل الله ألا يعذب هذا الوجه بالنار ! »
وبلغ ذلك سعيد بن المسيب وهو سيد التابعين وإمام من أئمة
الفقه فقال : وأما والله لو كان من بعض البغضاء لقال لها : أعزني ،
فتحك الله ، ولكنه ظرف عباد اهل الحجاز .
واسمع هذا الحديث بين امرأتين من اهل المدينة تعذل احدهما
الآخرى . قالت الاولى :

- ذكروا في الحكمة : لا تلم من أساء بك الظن اذا جعلت
نفسك غرضاً للنهضة . ومن لم يكن عوناً على نفسه من خصه ،
لم يكن عنده شيء من عقدة الرأي . ومن قدم على الهوى ، وهو
يعلم ما فيه من المنفعة ، سخط على نفسه اذ ان العدل ، وضيق الحزم .
فاجابته الثانية :

- ليس الهوى الى الرأي فيملكه ، ولا الى العقل فيدركه ،
أما سمعت قول الشاعر :

ليس خطب الهوى بخطب يسير لا يذيقك عنه متن خبير
ليس امر الهوى يدبره لرأي ولا بالقياس وبالتفكير
إنما الامر في الهوى خطرات محدثات الامور بعد الامور
وسئل ابو توفيل : « هل علم احد من العشاق ؟ » فقال :
« نعم ! الجلاف الجافي الذي ليس له فضل ، ولا عنده فهم . فان من
في طبعه اذن ظرف ، او معه دماء اهل الحجاز ، وظرف
اهل العراق ، فلا يعلم منه ! »

ودوى الاصمعي رواية لا يمتد مدى صحتها ، ولكنها تعبر تعبيراً
واضحاً عن طبيعة الحجازيين ، ونكشف سرائر حياتهم النفسية ،
سواء كانت موضوعاً او واقعية قال :

قدم عراقي بعيدل^١ من الحضر^٢ العراق الى المدينة ، فباعها
كلها إلا السود ، فشكا ذلك الى الدارمي ، وكان قد تنسك وترك
الشعر ولزم المسجد . فقال : ما تجعل لي على ان اجبال لك بحيلة

١ نصف الحمل .

٢ جمع حار ، وهو النفاق .

حتى نبيعها كلها . قال : ما شئت . فعتد الدارمي الى ثياب
نسكه ، فالفها عنه ، وعاد الى مثل شأنه الاول ، ونظم شعراً
رفعه الى صديق له من المغنين ، فغنى به ، هذا هو :

قل للمليحة في الحمار الاسود ماذا فعلت بزاغدي منعبد
قد كان شجر للصلاة ثيابه حتى خطرت له بياض المسجد
ردي عليه صلاته وصيامه لا تقبله بحق دين محمد !

فشاع هذا الغناء في المدينة ، وقالوا : « رجع الدارمي وتعشق
صاحبة الحمار الاسود » ، فلم تبقى مليحة بالمدينة الا اشترت خماراً
اسود ، وباع التاجر جميع ما كانت معه !

وشأن الحجازيين مع المرأة والعشق لا يختلف في شيء عن
شأنهم مع الغناء والشعر ، والحر فيها بعد . فقد ملأوا الدنيا
دنياهم تلك ، باخبار المغنين والشعراء ، ونهاك المساكين منهم
والكبراء على السماع والشراب وفرض الاشعار الغزلية الرفيعة ،
وللجوارى والقبان في هذه المضامير من البدائع والروائع ما يلا
خزائن الكتب العربية . ويكفي ان يستعرض القاري سيرة
شاعر مثل عمر بن ابي ربيعة الذي بلغ عدد معشوقاته ما يقرب
من العشرين ، ثم سيرة مغن كان سريح او معبد ، ومغنية كجيلة
التي كانت تستقبلها المدينة استقبال الفاتحين ، ونشيعها في موكب
الملوك كلما اقبلت او سافرت ، ليدرك تماها الحجازيين على المنع
الروحية والمادية ، ويعرف انه امام ارواح ثقافة تناهت في
لطفها وحسن نقيتها للحياة ونصرفها بها ...

هذا الغلو في حب المرأة والتعلق بها ، هذا الامراف في
الغناء وسماعه ، هذه الغزارة في تدفق القرائع الشعرية ، هذا

الظرف عند الفسك والفراء والحفاظ والمتعبدن ، هذا الولوع
 بالحياة الفنية الخاصة من شوائب المهوم والارقام ، هذا الانصراف
 في مجموع الشعب عن السياسة ومشاكلها ، هذه التجربة النفسية في
 الاستجابة للأحاسيس الخالية ، كل ذلك جعل المدينة - والحجاز
 بصورة عامة - غير قابلة لان تكون مركز العاصمة ، عاصمة الخلافة .
 ورأى الامام علي ان موقفه السياسي في الحجاز ، بعد مقتل عثمان
 وانقسام قريش واتساع الجبهة الاسلامية ، اصبح مضعفاً . فانتقل
 من المدينة الى الكوفة ، وانتقل معه الفقهاء والنسك والقواد
 وصفوة الاصفياء من اغوائه ، كما انتقل الى دمشق من بعده
 الطامعون بالوظائف والناقمون على مبايعة علي والمونورون من
 الامويين وسائر القرشيين . وبذلك افقرت الحجاز من وجهائها
 ومننفذها ، وخلا الجو إلا من بعض المشايخين والمصطادين في المياه
 العكرة ، وأوهم مروان بن الحكم الذي حضر واقعة الجمل ،
 وحرض الناس على محاربة علي ، ولكنه هزم فيها دون ان
 يصاب بأذى . فرجع الى بيته في المدينة يدس على الفاشيين
 ويؤلب الناس خفية ، حتى اذا قتل الامام واستتب الامر
 لمعاوية هدأ في وجاره لا يبدي ولا يعيد .

ولكن الحوادث تتابع بعد موت معاوية بشكل أهمل معه
 امر الحجاز اهمالاً تاماً ، اذ كان من سياسة معاوية ان صرف
 الحجازيين عن الاشتغال بالسياسة ، وتركهم لقياسهم وجوارهم
 وعشاقهم وشمراتهم ينلهون بهم عنه . وكان من امر الحسين بن علي
 ان خلى الحجاز وذهب الى العراق ، وعند ذلك نهض عبدالله
 ابن الزبير ، واستقل بالحجاز ، واخذ بجهز الجيوش ويعيد العدد

لفتح الامصار واحذ البيعة . وسجل في برعة قصيرة تقدماً كبيراً في الجزيرة ومصر والعراق .

غير ان ابن الزبير لم يكن من البراعة السياسية بحيث يستغل الاحداث وملابساتها استغلالاً يدينه من اهدافه ، اذ شدد التنكير على امويي الحجاز من جهة ، وسمح لهم ، من جهة ثانية ، ان يغادروا البلاد الى دمشق . فكان من مروان بن الحكم ان فرّ الى الشام عوضاً عن ان يبايع ، وقد اوشك مرة ان يتقدم من خصمه ويبايعه !

وهكذا افلت الامر من يد الحجازيين ، اذ وصل مروان فرأى الامويين ، بعد تنازل معاوية الثاني ، في حالة من الشقاق غريبة . فجمع شملهم ، ونولى قيادتهم ، وحارب الطامعين وعلى رأسهم الضحّاك بن قيس وعمر بن الأشدق . ثم هاجم ان نصب نفسه خليفة . بيد انه لم يعمر كثيراً ، فمات بعد ستة اشهر من ولايته وحلّ محله ابنه عبد الملك .

٦ — ميدان الاستبداد

عندما يضع زيد من الرؤساء قانوناً ، ينص مثلاً كما يلي : « يجب على الناس ان يحبوا اسرة زيد ، مادة اولى ، والمادة الثانية : عليهم ان يحترموا اسرة زيد . » ثم يضي — وهو الرئيس — في تنفيذ هاتين المادتين اللتين وضعنا في قانون سته لنفسه وللناس ، وراح يطبقه على نفسه وعلى الناس ، فماذا تكون النتيجة ، نتيجة ذاك القانون وتطبيقه ؟

لا جرم ان سائر الاسر منقذ معارضة لهذا القانون ، لا لأن كل اسرة تشعر بالحيف الذي ينالها منه فحسب ، بل لانه يتعارض ، في جوهره ، مع منطق الفكر الانساني . فالطب والاحترام عاطفتان لا سبيل الى ايجادهما عند الآخرين بمجرد ان نقول لهم « يجب » . فمن اين جاء هذا الواجب ؟ وكيف نكون ؟ ومن أقر وجوبه ؟ وما يقرب وجوبه ؟ ولماذا يجب ان نحجب ونحترم اسرة زيد لا اسرة عمرو ؟ ولماذا اسرة عمرو لا اسرة بكر ؟

هذه الاسئلة وما يتفرع عنها من قضايا فكرية وفلسفية ، وما يترب عليها من جدل وحجاج ، وما تفضي اليه من بطلان صفة الوجوب في دعوى زيد الرئيس ، تحول دون تنفيذ قانون زيد ، وإن كان رئيساً ، وتضطر زيدا نفسه الى إرغام معارضيه على قبول وجهة نظره بالقوة . وهذا هو « الاستبداد » . فالاستبداد ينطوي ، اذن ، في قرارة قراره ، على عجز في المنطق عند المستبد ، لا يلبث ان يعرض عنه بما يظهر من « تفوق » في العذر والحداع ، والمراوغة والقوة المادية .

ذلك هي سيرة كل مستبد ، فقد سن هتلر قانوناً ينص على ان العنصر الجرمانى افضل العناصر البشرية في العالم ، وبالتالي على العالم كله ان يدين للجرمان بالطاعة . فلما رفض العالم هذا القانون ، اذ لم يقم عليه اي دليل ، لجأ هتلر الى القوة ، الى الحرب ، وكان ما كان ... ونلك هي المشكلة التي وقع بها الامويون عيناً وقاماً . فقد ادعوا ان الشام احق بالخلافة من الحجاز ، ثم ان قريشاً احق من سائر القبائل العربية ، ثم ان بني امية احق اخيراً من سائر القرشيين . فلما طليب اليهم الدليل على هذه الدعاوى ، جهزوا

اعل الشام في جيش كبير ، وقدموه حجة على حقهم ، ولكن
الجيش حجة لا يقتنع بها اهل العراق ، ولا اهل الحجاز ، ولو
افتنهم عن آخرهم ...

هذا الاصرار من قبيل الشاميين على اخضاع العراقيين
والحجازيين ، وهذا الاصرار من قبيل العراقيين والحجازيين على
رفض الواقع الشامي والنسك بيد او فكرة فتح مبدان
الاستبداد ، وقسح في المجال امام الطامعين بالحكم والولاية ،
فراح هؤلاء يبدؤون في كبت التمرد العراقي ، والاربعية الحجازية ،
وتجسسون معاركهم الى الارهاب والتعسف والارهاق اقرب
منها الى حفظ النظام او صون الشريعة كما كانوا يعبون ، وكانت
حجتهم الوحيدة فيما يرتكبون من جرائم ، ويقدمون عليه من
فظائع ، هي « ارادة السلطان » و « طاعة السلطان » ، وهي في نظر
العراقيين والحجازيين حجة راحية ضعيفة لا اساس لها من عدل ،
ولا من منطق ، لانها تؤيد سلطة غاشية مفضية ، على المسلمين ان
يجاهدوها وان يقهروها ... الى ان يرجع الحق الى نصابه ، والعدل
الى محرابه .

وأول من لجأ الى العنف من ولاية الامويين - وكان من
الطبيعي ان يلجأ اليه - هو زياد بن ابيه الذي قدم البصرة
بعد ان ولاه معاوية ، والى تلك الخطبة الشهيرة المعروفة
به « البقرة » لانه لم يبدأها بحمد الله والثناء عليه ، حيث قال :

« كان الخوارج يدينون بالعدل الجمهوري كما عبر المشرق » فان هؤلاء « وكان
الشيعة يعتقدون ان آل الرسول احق الناس بولاية المسلمين ، وكان الزبيريون ينفون
عنوى معاوية في حصر السلطة بقرين الشام ، ويرون انها لقرين الحجاز .

« اما بعد ، فان الجهاد الجلاء ، والضلالة العمياء ، والغي المرفى بأعله على النار ، ما فيه سفهاؤكم ، وبشتل عليه علماءكم من الامور العظام ، ينبت فيه الصغير ، ولا ينحاش عنها الكبير . »
وانتهى من هذه التقريعات القاسية ، التي زرعت احقاداً جديدة في نفوس البصريين ، الى التهديد والوعيد .

« ... فاي اي ودلج الليل ، فاني لا اولى بمدلج إلا سفكت دمه ... » وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة : فمن غرق قوماً أغرقناه ، ومن أحرق قوماً أحرقناه ، ومن نقب بيتاً نقينا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفناه حياً فيه ، فكفوا عني ايديكم وللسنكم اكفف عنكم يدي ولساني ، ولا تظهر من احد منكم ريبة ، بخلاف ما عليه عامتكم ، الا ضربت عنقه . »

ولكن اهل العراق يعرفون ان زياد ابن امرأة بغي ، فهو مجهول الاب ، وضع النسب ، ويعرفون ان معاوية استلحقه بنسبه اتقاء لمعارضته واستنصاراً به على علي ، ويعرفون ايضاً وايضاً انه كان عامل الامام والحاز الى معاوية لبقاء علي وظيفته ، وانه لا يملك من وسائل التأيد غير سيوف اهل الشام ، فما كفوا عنه ايديهم ولا ألسنتهم ، بل راحوا يسخرون منه ويلصقون به افح التهم وأشنعها ، وراح هو ، من جانبه ، يتخذ توعداته ، ويضرب الاعناق ، وراحت الاحقاد والثرات تتكاثف وتتراكم ...

وعندما هلك المغيرة بن شعبه ولجأ الكوفة من بعده زياد ، فشحص اليها من البصرة ، وهناك جمع الناس في المسجد الجامع وخطب قائلاً :

« ... ان هذا الامر اتاني وانا بالبصرة ، فاردت ان اشخص

البكم في الفين من شرطة البصرة . ثم ذكرت انكم اهل حق وان
حكمكم طال ما دفع الباطل ، فأتيتكم في اهل بيتي . فالحمد لله
الذي رفع مني ما وضع الناس ، وحفظ مني ما ضيعوا .

ومذ فرغ من هذه الخطبة التي تنضح بالعجب واللزم والتكبر
انها لت عليه الحصى من فوق المنبر ، فجلس حتى امسكوا . ثم
دعا قوماً من خاصته وامرهم ، فاخذوا ابواب المسجد ، ثم قال :
« لياخذ كل رجل منكم جليسه ولا يقولن من جليسي . »

ثم امر بكربي فوضع له على باب المسجد ، ودعاهم اربعة
اربعة يحلفون بالله : « ما منا من حصبك . » فمن حلف خلاه ،
ومن لم يحلف حبسه وعزله حتى صار الى ثمانين رجلاً ، فما ترك
المسجد الا وقد قطع ايديهم !

هذه الاساليب الادارية القاسية ، البالغة في قسوتها ، مكنت
زياد من ادخال الرعب في قلوب العراقيين ، ووفرت له هدوءاً
نسبياً رفع من مقامه في نظر اسباده الامويين . فلما هلك ، حل ابنه
عبيد الله محله ، فتخذ من سيرة ابيه قدوة ، وراح يتقرب من
اهل الشام بزيادة الضغط على اهل العراق ، والهجوء الى تدابير
اصرم فاصرم الى ان قتل الحسين بن علي ، فانفجر العراق حينئذ
انفجاراً هائلاً قتل في سلسلة ثورات حولت البلاد كلها فيها ومن
فيها الى هشم مشعل .

ذلك هو الاصل الذي توفي اليه قسوة الحجاج الشهيرة ، وهذا
هو الموقف الاداري ، الذي يجب على الامويين ان يتفوه ليصونوا

ملكهم في العراق ، وبمحافظة عيبيهم في نفوس اهليه ، دهم عليه
زياد ونسبه « الطامعين في الولاية » اليه ، فكان الحجاج اول من
ثقبه ، واقتفى خطى زياد ، ونسج على منواله . وقد نستغرب اذا
علمت ان في المؤرخين من يقول : ان زياداً يضرب في أعراقه
الى ارومة ثقفيه ، اي الى ارومة الحجاج ذاتها .

هاك ما يذكره ابن ابي الحديد في شرح النهج : « فأمّا زياد
فهو زياد بن عبيد ، ومن الناس من يقول عبيد بن فلان وينسبه
الى ثقف ، والاكتون يقولون : إن عبيداً كان عبداً وأنه بقي
الى ايام زياد فابشاه . واعتقه ... ونسبه زياد لغير ابيه لثول ابيه
والدعوى التي استلحق بها ١ ، فقبل نارة زياد بن سمينة ، وهي امّة
للخارث بن كلدة بن عمرو بن علاج الثقفي طبيب العرب وكانت
تحت عبيد . فاذا اخذت برواية المسعودي ، وهي ان ام الحجاج
كانت تحت الخارث بن كلدة ، قبل ان يتزوج منها يوسف ،
امدركت هذه القرابة بين الطامعيتين في البيضة . ان لم تكن في
الوراة ، ار في الوراة ان لم تكن في البيضة ، او في كليهما
معاً .

ولكن القرابة بسبب زياد والحجاج نطل سافرة واضحة في
اكثر من ناحية : في البلاغة الرائعة عند كل منهما ، في القدوة
الشديدة ، في اسلوب الادارة ، في ضمة النفس ، في الميل الى
العنف لتحقيق الذات وتوكيد السلطان . واذا انت غارت بين
نصرفات الرجلين ، هالك هذا التشابه في حياتيهما ومسلكتيهما .

وأعجب من ذلك كله أن العصر كان يجمع من فيه يتزعج إلى الاستبداد
نزعة إجماعية لا يعلم إلا أنه كيف نشأت ، وما هي أصولها . ولا
يستبعد أبداً أن يكون توفيق معاوية ، على إفطاح رسائله ، هو
الذي حمل الولاة والأمراء والساسة على التمرد ، وأنغرام باصطناع
القسوة حبساً ، والمراوغة حبساً ، والاعتبال حبساً ، بالإضافة إلى
هذه المسافة بين طبيعة الشام الوافعية ، وطبيعة العراق النورية ،
وطبيعة الحجاز الأريحية ، وتفاعل هذه الطبائع فيما بينها حول انهيار
السلطة والطمع فيها .

تأمل الشام نفسها حين اضطرب الموقف فيها بعد هلاك يزيد ،
وتداول ابنه معاوية عن الخلافة كيف احتالف الأمويون فيما بينهم
على الرئيس الجديد ، وسالت دعاؤهم ، وكثر تناحرهم حتى أقبل
مروان بن الحكم من المدينة ، هارباً من عبدالله بن الزبير ،
وكيف اضطرب مروان إلى خوض معركة ليتمكن من ناصية الأمر ،
ثم كيف سلم الخلافة شرط أن لا تكون في ولده من بعده ،
وكيف أنه عمل على مبايعة ابنه عبد الملك ، مما أحفظ عليه
أحدى نساءه ، وكانت أم ولي العهد ، فقتله ختناً - تأمل ذلك
كله ، نجد أن روح الاستبداد كانت قد تغلغلت في النساء والرجال
والكبار والصغار من أبناء ذلك العصر .

في هذه الظروف العاصفة الخالكة التي تغيرها نزعة الاستبداد
ارتقى عبد الملك بن مروان منصة الخلافة ، وكانت خلفته نفسها
تعبيراً عن سيادة الطفيلان ، لأن الأمويين لم يكن لهم في ارتقائه
رأي ولا حيلة ، بله سائر القبائل والأمصار .

ولم يكن عبد الملك أدرك حرج الموقف ودقته ، فخطب في

مكة ، بعد قتل عبدالله بن الزبير وقال : « اني والله ما انا
 بالخليفة المستضعف (يريد عثمان بن عفان) ، ولا بالخليفة المداهن
 (يريد معاوية بن ابي سفيان) ، ولا بالخليفة المأفوت (يريد يزيد
 ابن معاوية) ، فمن قال برأسه كذا ، قلناه بسيفنا كذا ... »
 واذا انت رجعت الى اكثر مواقف عبد الملك وجدت كلمة
 « سيف » تعود مراراً وتكراراً على لسانه ، فقد خطب مرة فقال :
 « ايها الناس ! ان الله حد حدوداً وفرض فروضاً ، فما زلتم
 تزدادون في الذنب ، وتزداد في العقوبة حتى اجتمعنا نحن وانتم
 عند السيف . »

ونظر مرة الى ابنه الوليد ، وهو يبكي عليه عند رأسه فقال :
 « يا هذا ... احسين الحمامة ! اذا انا مت فشم واتزر ، والبس
 جلد ثمر ، وضع سيفك على عاتقك ، فمن ابدي ذات نفسه لك ،
 فاضرب عنقه ، ومن سكت مات بدائه ... »

ولما ورد اليه كتاب الحجاج يخبره بخروج ابن الاشعث ،
 خطب في الجامع فقال : « انت اهل العراق طال عليهم عمري
 فاستعجلوا قسدي ، اللهم سلط عليهم سيوف اهل الشام حتى
 يبلغوا رضاك ، فاذا بلغوا رضاك لم يجاوزوا الى سخطك . »

نحن اذن امام خليفة قام بالسيف ، وسيعيش على السيف ،
 ولن يؤمن الا بالسيف ، ولن يرى اصلاح من السيف لادارة
 البلاد وسياسة العباد .

« عنق ابو اسحاق النظام على هذه الخطبة بقوله ياخطب عبد الملك : « وما والله لو لا
 نبيك من هذا المستضعف ، وسبك من هذا المداهن ، لكنت منها ابعد من العتوق ، والله
 ما اخذتها بورانة ، ولا سابقة ، ولا قرابة ، ولا بدغوى شورى ، ولا يومية . »

هذا هو فيه الادارة والسياسة بصورة عامة ، فكيف يكون
رأيه في ادارة العراق خاصة ؟ ومن هو الرجل الذي يتولى حكم
العراق اولئك حاله مع الامويين ؟ ابن هو المخلص له اولاً ، ولبنى
امية ثانياً ، وللشام ثالثاً ، ويكره العراق واهله رابعاً ، ويحسن
استعمال السيف على اعنف ما يحسن استعمال السيف اخيراً ؟ من
هو ؟ وابن هو ؟

فكر طويلاً في هذه العقدة وقلبها على جميع وجوهها ،
فراى ان يستشير . ثم جمع اهل بيته وأولي النجدة من جنده ،
وقال :

« ايها الناس ، ان العراق كدر مآثها ، وكثر غوغاؤها ،
واملوح عذبا ، وعظم خطبها ، وظهر ضرامها ، وعسر إخماد
نيرانها ، فهل من يهد لهم بسيف قاطع ، وذهن جامع ، وقلب
ذكي ، وانف حمي ، فيخمد نيرانها ، ويردع غيلاتها ، وينصف
مظلومها ، ويداوي الجرح حتى يندمل ، فتصفو البلاد ، ويأمسح
العباد ؟ »

فسكت القوم ولم يتكلم احد ، فقام الحجاج وقال : « يا امير
المؤمنين ! انا للعراق . » فأجابه عبد الملك : « اجلس ، فليست هناك . »
وقبض كلامه : « مالي ارى الرؤوس مطرقة والالسن معتقة ! »
فتم يجيبه احد ، فكرر الحجاج : « انا بجدل الفساق ، مطفى . نار
النفاق ، وقاضم الظلمة ، ومعدن العفو والعقوبة ، وآفة الكفر
والريبة . » فردّه الخليفة : « اليك عني وذاك ، فليست هناك . » ورجع
لهرة الثالثة : « من للعراق ؟ » فسكت القوم وقال الحجاج : « انا
للعراق . » فقال عبد الملك : « إذن اترك صاحبها والظافر بغنائها . »

وان لكل شيء يا ابن يوسف آية وعلامة ، فما آيتك وما علامتك ؟
قال : « العقوبة والعفو والافئدة ، والبسط والازورار ، والادناء
والابعاد ، والجفاء والبر ، والتأعب والحزم ، وخوض غمرات
الحرب بجنان غير هبوب . فمن جادلني قطعته ، ومن نازعني قصته ،
ومن خالفني نزعته ، ومن دنا مني اكرمته ، ومن طلب الامان
اعطيته ، ومن سار الى الطاعة بجلته . فهذه آيتي وعلامتي . وما
عليك يا امير المؤمنين ، ان تبولني ؟ فان كنت للاعتناق قطعاً ،
والاموال جتمعاً ، وللارواح نزاعاً ، ولك في الاشياء نقاعاً ، ولا
غلبتبدل في امير المؤمنين ، فان الناس كثير ، ولكن من يقوم
بهذا الامر قليل . » فاجاب عبد الملك : « انت هذا ، فما الذي تحتاج
اليه ؟ » قال : « قليل من الجند والمال . » فدعاه صاحب الجند
وخازن المال وطلب اليهما تجهيزه بما يحتاج اليه .

ارأيت الى هذا النبالك الذي ابداه الحجاج على ولاية العراق ؟
ارأيت الى هذه التبعة الخطرة التي انتدب لها الحجاج نفسه ؟
ان ينسب موقفه هذا طيبة ولايته ، وسببهم لدى كل لحظة
بعد اليوم ان حياته في خطر ، وسيخلق منه هذا الشعور وحده
فذاً من افذاذ التاريخ .

سيخوض اذن ميدان الاستبداد ، وسيكون الجهلي فيه على
جميع من تقدمه وعاصره ، لم يكن عن اقتناع وعقيدة ،
فدفاعاً عن نفسه على الاقل ، وادواء لما يغتلي في ماضيه مسين
احقاد . والويل له كل الويل اذا فطر فابطات به رحمة ، اولوت
سيفه رافة ، واخذته بانسان عاطفة !

ولكن من هو هذا الذي زج بنفسه من تلقاء نفسه في انون

الطغيان ؟ من كان ومن يكون ؟ وما خطيه ؟ وما دماء البظلم
نفسه وبجملها على ظلم الناس ؟

من هو ابجد حجاج

١ - الطائف

يقوم الى الجنوب الشرقي من مكة المكرمة ، على بعد اثني عشر فرسخاً ، جبل كبير ، يمتد الجوانب ، منشعب الفروع ، رجب الاطراف ، يقال له « جبل غزوان » .

ينفترع هذا الجبل في الجانب الشمالي الغربي من امتداده الى جهة فروع ، فتتوزع اسمه عدة هضبات ، تنفرج فيما بينها عن واد دعاه العرب « بطن وج » .

هناك ، في ربوات غزوان ، وفي بطاح وج ، كان يقيم بنو عدوان في الجاهلية الذين انبتوا « تحكم » العرب ، عامر بن الظرب العدواني المشهور بعدالة قضائه ، وصفاء ذهنه ، ونزاهته في الحكم . وفي ذات يوم ، بينما كان رهط من بني عدوان يرعون غنهم في وعر الجبل ، اقبل عليهم رجل رث الثياب ، عاري القدمين ، ولكنه قوي البنية ، عريض المنكبين ، وطلب اليهم ان يكونوا في خدمتهم ، يؤدّي المهام التي يؤدونها ، من حرث الارض ، ورعي الماشية ، وغزل الصوف . فلما سُئِلَ عن اسمه قال : « انا قسي بن منبه بن ... بن ... الى ان وصل الى « نزاره » . ولم يكن ، في الواقع ، غير عبد آبق هرب من سيده « اي رغال » الذي قال

فيه حسان بن ثابت الانصاري :

إذا التقى فآخركم فقولوا نعلم نعمة شأن أبي رغال
أبوكم أحب الآباء قدماً وأنتم مشبهوه على مثال
أما نسب الحقبى فلا يزال مرأ من إررار التاريخ .
وطير الرعاة خبر قسي إلى زعيم القبيلة عامر بن الظرب ، فقبل
به وزوجه بأمرأة عدوانية ، بعد أن أدخله في قومه .
وكان من أمره ، على نوالى الأعوام ، أن خلتف عدداً كبيراً
من الأولاد ، استطاعوا فيما بعد أن يستولوا بالقوة على الجبل
والوادي معاً ، وأن يطردوا الخوالم العدوانيين منها عقب
عراك دام طويلاً كثير فيه الأخذ والرد ، والكسر والنصر ،
وانتهى أخيراً باستسلام بعض العدوانيين ، وفرار البعض الآخر .
وما هي إلا أعوام تلت الغلبة حتى انقلب اسم قسي الغالب
إلى « ثقيف » الذي « ثقف » أرض بني « عدوان » ، أي لقبها كما يلقى
الضال كنزاً ضائعاً .

وكانت طبيعة تلك الأرض التي تجودها السماء بالمطر ، والجبال
بالبنايع ، والهواء المعتدل بالخصب - كانت تسمح بإنشاء المساكن
وعماره المنازل . فهاجرو بنو ثقف المغاور والكهوف والاكواخ ،
والخيام ، تدريجياً ، وراحوا يبنون البيوت في سفوح مضاب
غزوان ، على الجانب الأيمن من بطن وحي ، لاسيما بعد أن كثرت
ولدهم ، وعظم شأنهم في العرب ، وأصبحوا هدف الغزوات والحملات
من مختلف القبائل والعشائر .

ثم انتسج ، بين القرية النقفية الناشئة والقرية القديمة مكة ، ضرب
من التحالف الطبيعي الذي تفرضه الحضارة والجوار ، وينطلبه دفع

الغارات وحماية المساكن . وهكذا... أصبح القرشيون، والمخيريون خاصة، أحلاف التفقيين يرثون منازلهم، وينشدون نجاتهم في الملمات، ويعتمدون عليهم في كثير من الظروف والمناسبات .

عاشت قرية بني ثقيف دهرًا تنمو وتزداد سكانًا وعمرانًا واسمها « وادي وج » الى ان قدم اليها ذات يوم رجل من اقليم الصدف يقال له « الدموت » بن عبد الملك من اهالي حضرموت ، وقد جاء لاجئًا سياسيًا يرجو الحماية لانه قتل ابن عم له ، وفر يحمل مالا كثيرا ، وكان من قبل يمارس التجارة في عاصمة حضرموت .

وفد هذا الرجل على بني ثقيف ، فاقبده الى منزل شيوخ القبيلة مسعود بن معتب الثقفي . ومنذ اطمأن به المقام ، تقدم الى الرئيس مشروح هندسي عظيم ، هو ان يبني طولفًا (اسوار من الماء) حول القرية كلها لمنع بها الغزاة من الدخول . قال مسعود :

- فكرة جليقة بمنازة ! ولكن تخفيفها بخراج الى مال كثير !

- لا اقدم المال . ولي رجاء واحد اليكم .

- هو ؟

- ان تزوجوني احدي بناتكم .

- ليكن ، فانت اهل ونحن كرام .

وتم زواج الدموت بأسرع ما يمكن ، وافيت الزينات ، واحتفلت القبيلة كلها به ، حتى اذا زفت اليه العروس بوشى العمل ، فلما بني الطوف وانتهى الامر أصبح اسم القرية « الطائف » .

والطائف اول بلد عربي ثلث فيه التقياقة الحضرية عند عرب الشمال ، فكانت في صحراء البداوة واحدة حضارة ، لانها ذات مزروع ونخل واعناب وموز وسائر الفواكه ، وبها مباء جارية

تنصب منها الى تباله .

وعندما اودى النبي محمد في مكة ، ومنع القرشيون عنه وعن أسرته الطعام وعلموا بقتله ، فزع الى الطائف يستعدي اهلها على ظالميه ، ويستجدهم في محنته ، ويلقهم رسالته ، ولصكنهم - وهم احلاف القرشين - افلكوا احداثهم يرمونه بالحجارة ، ويسخرون منه ، ويقذفونه باقبح التهم والزرايات . فقام على وجهه عازباً الى ان رقت حاله بعض قتيان قريش المتقيين في الطائف ، فبعثوا اليه بمنقود من العنب يدفع به جوعه وظمأه . ذاك اول ما كان من اهل الطائف في بدء الحركة الاسلامية !

يقول باقوت : « ... وهي ، مع هذا الاسم الفخم ، بليدة صغيرة على طرف واد . وهي محلتان : احدهما عن هذا الجانب يقال لها طائف ثقيف . والاخرى على هذا الجانب يقال لها : الوعط . والوادي بين ذلك تجري فيه مياه المدايع التي تدبغ فيها الأديم ، يصرع الطير رائحتها اذا مرت بها ، ويونها لاطنة حرجة ، وفي اكثافها كروم على اكثاف ذلك الجبل ... »

اما مناخها ، فهو من الصفاء والعذوبة والاعتدال ما جعلها مصيف الطبقة الارستقراطية من العرب ، اذ كانت البلدة الوحيدة التي تمر بأطوار من البرد الشديد في فصل الشتاء ، بالإضافة الى ما يغمر جوانبها من الاشجار ، والكرمة خاصة . ويحكى انه لما حج سليمان بن عبد الملك مر بالطائف فرأى يبادر الزبيب ، فقال : « ما هذه الجرار ؟ » فاجيب : « هذه ليست جراراً ، ولكنها يبادر الزبيب . » فقال متعجباً : « لله دري قسي بأي ارض وضع سهامه ، واي ارض مهد عش فروخه ! » وقال الشاعر محمد بن

عبدالله النسيوي ، يصف زينب بنت يوسف أخت الحجاج بالنعمة
والرفاعية :

نشئوا نعمة نعمة ومصيفها بالطائف

ونقول الأسطورة^١ : ان الطائف هذه كانت في ايام العرب
البائدة ، في اقصى العصور ، مقراً لعبد ضخم بن ارم بن سام بن
نوح ، جامعاً بولده ومن تبعه واقاموا فيها دهرأ بادوا بعده ،
ونذكر انهم هم اول من كتب بالعربية ووضع حروف المعجم ،
وهي حروف ا ب ت ث ... التسعة والعشرون حرفاً . فاذا صح
ذلك - وليس ثمة ما يمنع صحته ، لجعلنا بتاريخ الحروف العربية -
كان اشارة الى اصالة الروح الحضري في الطائف ، وعمق جذوره
في تاريخها .

وعندما جاء الاسلام كانت للطائف موقف معارض ، شديد ،
اذ راح اهلها يناصرون أعداءه ، ويؤلبون عليه القبائل .
هذا في فجر الدعوة الاسلامية . فلما اشتد أمر الرسول العربي ،
وقويت شوكته حاصر الطائف بعد غزوة حنين ، ودام حصارها
خمس عشرة ليلة . وطائف ثقيف هي التي ابت ان تسلم ، وكان
عروة بن مسعود وغيلان بن سلمة ، وهما من سادات ثقيف قد
ذهبا الى جرش يتعلنان صنعة المجانيق والذبايات للحصار ، لما احصوا
من قصد رسول الله إياهم ، ولكن المدينة سلمت قبل عودتهما ، فلم
يشهدا الحصار ، ولا حنيناً قبله^٢ .

١ مروج الذهب ج ٢ ، ص ٦٠ .

٢ تاريخ ابن خلدون : الكتاب الثاني في أخبار العرب وأحوالهم .

وكان استسلام الطوائف المسلمين في سنة تسع من الهجرة صلحاً
اذ لم يشأ النبي ان يدخلها عنوة ، فكتب لاهلها كتاباً وفك عنهم
الحصار .

على ان هذه الغزوة تركت في نفوس اهلها اثرأ لا ينحى ،
فطفقوا يناصرون اعداء آل محمد ، منذ نسم السلطة عثمان بن عفان ،
والمحازروا يحملتهم الى صف معاوية واعوانه .

في هذه البلدة العريفة في حضارتها ، الموقلة في عداوتها لبني
هاشم ، ولد الحجاج بن يوسف الثقفي عام ٤١ للهجرة (٦٦٣ م) ،
اي في السنة ذاتها التي بوبع بها معاوية في القدس .

٢ - بنو ثقف

كان العرب الاقدمون يجعلون النسب قبعة من القيم العليا
توازي في نظرهم الفضل والادب والاخلاق ، أو تسو عليها في
اكثر الاعتبارات والحالات . فمن لم يكن متحداً من قبيلة
عريفة في الجاه والسؤدد ، سلك الى المكارم والفضائل سبلاً ترفع
ذكره ، وتعوض عن نفسه ، ونشط الى تحقيق اعمال جليلة
يدفع بها ما يعترضه من تنكر الجماعة لأجداده ، وانكارها لسابق
فضله .

وهكذا ... نجد ان العرب التفتوا ، اول ما التفتوا ، عندما
نشأت الحركة الاسلامية ، الى القائم بها والداعي اليها ، يلحظون
فيه ، اول ما يلحظون ، ارومته ، فاذا هي في « قريش » .
وقريش كانت تتمتع في الجاهلية بما يشبه السيادة على غيرها من

قبائل العرب . وجاء الاسلام فوطد هذه السيادة وجعلها حقيقة لا يرقى اليها ريب ، ولا يجسر احد على الوقوف امامها . ولكن سيادة قريش كانت عبثاً ثقيلاً على اكثر القبائل التي تنافسها في العدد والنفوذ ، وتزاحمها على السلطان والسيطرة ، مما جعل تلك السيادة القرشية ينسوج احقاد وضغائن ، وفن وثورات تظهر نارة وتكمن تارة .

وكانت ثقيف ابز القبائل التي تتحدى لمنازعة قريش السيادة ، ونطمح الى اخفات صوتها واحتلال مكانتها حتى ان احد ابنائها ، وهو امية بن ابي الصلت الشاعر المعروف ، زاحم ، او خطر له ان يزاحم النبي على النبوة ! وحديث ذلك مبسوط مشهور في اكثر كتب التاريخ .

غير ان الثقيفيين لم يكونوا بالمنزلة الاجتماعية الاصلية التي ينشدونها وإن كان لهم من الاحترام وبعد الصيت وبسطة الجاد ما جعل سائر القبائل نجسهم ونحش بأسهم في جانب ، وحمل القرشيين على مخالفتهم ومساندتهم في الجانب الآخر .

نأمل ان مناوئي الدعوة الاسلامية أسفوا ان لا يكون القرآن قد « نزل » على رجل في القرينين عظيم ، والرجل الذي يعنون هو احد بني ثقيف ، ومن المؤرخين من يقول : انه « عروة بن مسعود » ومنهم من يقول : انه « حبيب بن عميرة » وكلاهما من ثقيف . وهذا ما حدا الوليد بن يزيد ، الخليفة الاموي الشاعر ، على القول في معرض الفخر :

انا ابن عظيم القرينين ، وعزها ثقيف وفهد والعصاة الأكابر

كانت ام الوليد بنت محمد بن يوسف الثقيفي أم الحجاج .

ثم تأمل كيف يفخر امية بن ابي الصلت بقوله :

فومي ثقيف ، إن سألت ، وأسرتي وبهم أدافع ركن من عاداني
قوم اذا نزل الغريب بدارهم ودّوه ربّ صواهل وقياف
لا يكتنون الارض ، عندسؤالمهم لتلتس العلات ، بالعيدات

والظاهر ان يجد الثقيفين يرجع ، في حقيقته ، الى ثرائهم وغنى
أرضهم وسعة تجارتهم اكثر مما كان قائماً على بطولات وفضائل
وأباد لهم في حروب العرب . فهم يثلون ، الى حدة بعيد ، زهرة
الوثنية العربية وحضارتها ، وما يرسب في اغوار هانيك الحضارة
الوثنية من عرامة وقوة وشراسة ، مع ما يظهر به مسن مظاهر
الترف ، والبدخ ، والاسراف في المتسع المادية ، كزركشة اللباس ،
وزخرفة الاثاث ، والنياهي بآلات الطرب وعدد القبان والجواري ،
والاقبال على الصيد والشراب ...

هذا هو شأنهم قبل الاسلام ... وعيبيهم الاكبر في ذلك العهد ،
اي في الجاهلية ، انهم لم يكونوا ذوي نسب واضح . وما هذا
بالشيء القليل عند قوم يحسبون النسب ، في اعلى مراتب التقيم !
وعوان نسبهم على العرب كان علة العلى فيما ابدوا من شراسة ،
واقدموا عليه جملة من فتك وبطش .

قال ابن الكلبي : ... ويقال : إن ثقيفاً كان عبداً لابي
رغال ، وكان اصله من قوم نجوا من ثود ، فانتس بعد ذلك الى
قبس .

وروي عن علي بن ابي طالب انه مرّ بثقيف فتغامزوا به ،
فرجع اليهم وخطبهم قائلاً : يا عبيد ابي رغال ! انما كان اباكم
عبداً له ، فهرب منه ، فتقيفه بعد ذلك ، ثم انتس الى قبس .

وفي نهج البلاغة أن مشاجرة كلامية وقعت بين الإمام علي وعثمان ، فقال المغيرة ابن الاخنس - وهو ثقيفي - لعثمان : « اياك فيك » ، فاضطرب علي في المجلس وقال له : « يا ابن اللعين الابتر ، والشجرة التي لا اصل لها ولا فرع ، انت تكفيني ! فوالله ما اعز الله من انت ناصره ، ولا قام من انت منهضه ... » وفيه تعبير واضح بنسبه .

وقال الحجاج مرة في خطبة خطبها بالكوفة : « بلغني انكم تقولون : ان ثقيفاً بقية من ثمود ، وهل نجا من ثمود إلا خبارهم ، ومن آمن بصالح فبقي معه ، عليه السلام . وقد قال الله تعالى : وثمود لما ابقي ، » وعندما بلغ ذلك البصري ، تضاحك هازئاً وقال : « حكم الكنع لنفسه ! إذا قال عز وجل : فما ابقي ، اي لم يبقهم بل اهلكهم » .

ويحكى ان المغيرة بن شعبة ذهب - وكان والي الكوفة - الى دير هند بنت النعمان بن المنذر وهي فيه عبياء متوهمة ، فقبلها : - امير هذه البلاد بالباب .

- قولوا له : من ولد جيلة بن الاهيم انت ؟
- لا .

- أفمن ولد المنذر بن ماء السماء انت ؟
- لا .

- من هو اذن ؟

« الكنع : اسم علم للشخص الذي لا يحترم نفسه ولا يحترمه الناس ، وكان هذا المرقب الذي وقفه الحسن البصري - وهو من اكابر الطاء في عصره - سبباً في نزوحه عن العراق ، لان الحجاج طلبه من بعده ليعتق به ، ولم يظهر له اثر الا بعد موت الحجاج .

- المغيرة بن شعبه الثقفي .

- ما حاجته ؟ دعوني اكلمه بنفسي ... ما حاجتك ؟

- جئتك خاطباً .

لو كنت جيتي لجمال او مال لا طلبتك ^١ ، ولكنك اردت ان تتشرف بي في محافل العرب فنقول : نكحت ابنة النعمان ابن المنذر ، وإلا فأي خير في اجتماع اعور وعمياء ^٢ ؟ فقال المغيرة وهو مغضب :

- اما نحن فممن بكر بن هوازن ، فليقل ابوك ما شاء !

وقال الحجاج يوماً لأبي العوس الطائي : « أي أقدام : أنزول ثقيف الطائف ، ام نزول طيء الجبلين ؟ » فقال له أبو العوس : « إن كانت ثقيف من بكر بن هوازن فنزول طيء الجبلين قبلها ، وإن كانت من بقايا ثمود فهي أقدم . » فقال الحجاج : « إتقي ! فاني سرب الخطفة للاحق المتهور . »

هذه الروايات - وما أكثر أمثالها - تشير الى خعة نسب الثقفيين وارذراء الاشراف ، اشراف العرب أيامهم . وهناك روايات أكثر من هذه تشير الى توتر العلاقات بين الثقفيين والهاشميين خاصة . فقد روى الزهري ان النبي قال : « بنو هاشم والانصار (الأوس والخزرج سكان المدينة) حلفان ، وبنو أمية وثقيف حلفان . »

وعندما انتصرت الحركة الاسلامية في داخل الجزيرة اضطر بنو ثقيف ، تحت ضغط الحوادث العسكرية والسياسية القبلية ، الى الانضمام اليها ، أي انهم دخلوا الاسلام إبقاء على ثرواتهم ، وصوناً

١ أي قلت طلبك .

٢ كانت المغيرة اعور .

لأرواحهم ، وحفظاً لجاههم المادي ، وعاشوا أيامهم وثنيين بالروح ،
متدينين اسماً ومظهراً ، الى ان انطلقت العصبية القبلية من مكمنها ،
وثارت الاطماع حول الوظائف والولايات ، ومهدت لها معاوية سبل
الظهور ووسائل العمل . وهناك اسنان وجه التقفيين الحقيقيين وابدوا
للناس صفعتهم ، فاذا هي تستل في شخصين هائلتين : الخنار والحجاج .
ولكن الوجوه الباردة من بني ثقف ، التي تؤكد اصالة الروح
الوثني عند هذه القبيلة ، اكثر من ان يحصها عد . فلما من اسرة عربية
انتجت إنتاج ثقف من الشخصيات القوية الشاذة ، في مختلف ميادين
النشاط الانساني : في الطب ، في الشعر ، في الحرب ، في السياسة ،
في الادارة ، في الاقتصاد ، واخيراً في الادب والخطابة ، حتى ايعجب
المرء ان يرافق الشذوذ قبيلةً بكاملها طبقة ثلاثة اجيال متوالية .
فمنهم ابو محجن الثقي الذي اقام عليه عمر بن الخطاب الحد
مراراً لمعاشرته الجُر ، وهو لا ينتهي عنها ، وتقاء الى جزيرة في
البحر ، وبعث معه حرسياً يراقبه ، ولكنه افلت من منقاه وخلق
بسعد بن ابي وقاص ، وهو يومئذ يحارب الفرس في وفعة
القادية . ولما بلغ عمرَ خبر هربه ، كتب الى سعد بجيشه ، فحمله
في القصر . وتطلع ابو محجن ذات يوم الى الحرب فراءها مشتعلة ،
فذهب الى زوجة سعد ، وطلب اليها ان تخلّي عنه وتعيده فرس
زوجها ، فامتنعت عليه قائلة : « وما انا وذاك ؟ » فرجع يرسف في
قيوده ويقول :

كفى حزناً أن توندي الخيل بالقنا
وأترك مشدوداً علي وثاقها
إذا قمت عنائي الحديد وغلقت

مصاريع من دوني نضم المناديا ...

فقلت له سلمى : « يا بني قد استخوت الله ورضيت بعهدك » ،
لانه علمدها ان يعود الى السجن بعد ان يخوض الحرب ، ثم
اطلقته ، وسلمته فرس زوجها .

بعد المعركة ، اقبل ابو محجن مرهواً يا قلم به من مات جليبة
وابدى من شجاعة فادرة ، يفتخر ويقول :

لقد علمت تقيفة غير فخر يا انا نحن اكرمهم سيوفاً
واكثروهم دروعاً سابغات واصبرهم اذا كرهوا الريفوا
فان احبس فقد عرفوا بلائي وان اطلق اجرتهم حنوقا
فقلت له سلمى : « يا ابا محجن ! في اي شيء حبسك هذا
الرجل ؟ » فاجابها :

- اما والله ما حبسني بحرام اكله ولا شربه ، ولكنني كنت
صاحب شراب في الجاهلية ، وانا امرؤ شاعر يدب الشعر على لساني ،
فينفته احبائاً ، وقد حبسني لانني قلت :
اذا مات فادفني الى جنب كرمة تووي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفني بالفلاة فانسني اخاف اذا ما مات ان لا اذوقها .
فلتمت الى سعد واخبرته خبره ، فدعا به واطلقه ... ولكنه
لم يقلع عن مجونه .

ومنهم امية بن ابى الصلت الشاعر الجاهلي الذي عاش دهره
غريب الاطوار ، منفرداً بيمرله ونزعائه وافكاره ، وذهب به
الشذوذ الى استعمال الفاظ لا وجود لها في لغة قومه ولا قبل
لاحد بفهمها .

ومنهم الحارث بن كلدة « طيب العرب » الذي وفد على كسرى

أوشروان ، وجرت له معه مطاردة في مختلف الموضوعات الفكرية
والطبية والاجتماعية كان من تأثيرها في نفس الملك الفارسي ان امر
بندون كل ما قاله الخارث .

ومنهم المغيرة بن شعبه الداهية الذي اوحى لمعاوية بتنصيب
يزيد من بعده ، والمغيرة بن الاخنس الذي قتل مع عثمان في
داره ، ومحمد بن عبدالله النيمري الشاعر الغزل الذي احب زيلب
أخت الحجاج وشلب بها ، وطريق بن اسماعيل أحد الشعراء
الشاهير في العصر الاموي ، وقد كانت ماجناً خليعاً من طراز
ابي نواس وسلفه ابي محجن ...

والخص ما يخص به افراد هذه القبيلة خصلتان : العنف ،
والانتماء من كل ما يقيد الفرائز وبكلمة واحدة : الروح الوثني ،
اذ قل ان تجد فيهم شخصاً يتقيد بما يتقيد به عامة الناس من
دين او اخلاق او عرف ، هذا الى تفاد عيب في اذعانتهم ،
وقوة خارقة في امزجتهم ، وقدره واضحة على التكيف .

وليس هذا مما يوحى به سلوك الحجاج وحده وسلوك اخيه
الذي ولي اليمن في عهده . لا ... وإنما نجد هذه الخصائص
لدى كل تقني ان في الجامعة وانت في الاسلام . فقد حكى
بعضهم حكاية رجل من بني تقيف واجد مع الخوارج ، ووقع
اسيراً بين يدي الحجاج ، فقال له هذا : « اكفرت ؟ » فأجابته
« نعم ، لو كان شيء أشد من الكفر لبؤت به ! » فخلت سبيله .
وروى المسعودي في مروج الذهب حكاية تقني قدم على
الحجاج من البادية ، فرأى ابن عمه يولي الناس ، فدار بينها
الحديث التالي :

- ايها الامير (بخاطب الحجاج) لم لا توليني ؟ ض هذا الخضر ؟
 - هؤلاء يكتبون ويحسبون ، وانت لا تكتب ولا تحسب .
 بلى ! اني والله لاحسب منهم حسباً ، واكتب منهم كتباً .
 - ان كان كما ترعهم فاقسم ثلاثة دراهم بين اربعة انفس .
 - ثلاثة دراهم بين اربعة ... ثلاثة بين اربعة ... لكل واحد
 منهم درهم يبقى الرابع بلا شيء !
 كم هم ايها الامير ؟
 - اربعة .

- نعم ايها الامير ! قد وقفت على الحساب : لكل واحد منهم
 درهم ، وانا اعطي الرابع منهم درهماً من عندي .
 وضرب بيده الى تكتنه فاستخرج منها درهماً وقال :
 - ايكم الرابع ؟ فلا هاله ! ما رأيت كاليوم زوراً مثل
 حساب هؤلاء الخضرين .

فضحك الحجاج ومن معه ، ثم قال لمن حوله :
 - ان اهل اصبهان كسروا خراجهم ثلاث سنين ، كلما اتاهم وال
 اعجزوه ، فلأرسلهم بيدوية هذا وعجزهته . فأخلق به ان ينبغي .
 ثم كتب له عهده على اصبهان . فلما وصل اقبل عليه اهلبا
 واحتفلوا به ساخرين منه لعلمهم انه بدوي لا يرقى الى نقض ما
 يبرمون ، والخلاص مما يحسبون . فلما استقر في داره واجتمع
 الوجباء حوله ، قال :

- ما لكم نعصون ربكم ونغضبون اميركم وتنقصون خراجكم ؟
 - جور من كان قبلك ، وظلم من ظلم .
 - فما الامر الذي فيه صلاحكم ؟

- تؤخرنا بالحراج ثمانية أشهر ونجمعه لك .
 - لكم عشرة أشهر ، وثلاثون بعشرة ضمنا ، يضمنون .
 وأقروهم . فلما قرب الوقت رآهم غير مكترئين لما نذبوا
 إليه ... حتى اذا شعروا بظالمهم وتسويفهم جمع الضمنا وقال لهم :
 « المال ! » فأجابوه : « أحببنا من الآفة ما نقض ذلك . »
 ومنذ احسن انهم يفتاؤون عمدا ، جمع الناس ثمانية ، وآلى
 ان لا يفطر ذلك اليوم - وكان في شهر رمضان - حتى يجمع
 مال الدولة او يضرب أعناقهم . وجاء بأحد الضمنا فضرب عنقه ،
 ووضع رأسه في بكرة كتب عليها « فلان بن فلان أدى ما
 عليه » . وفعل ذلك مع خمسين آخر . فلما رأى القوم الروؤس
 'تقطع' ونجعل في الأكياس خفوا اليه ضارعين : « يا امير !
 توقف حتى نحضر لك المال ! » ففعل ، ودعبروا فأحضروه في
 أسرع وقت . وعندما بلغ الحجاج ذلك قال : « إنا معاشر
 نقيف ولدنا نجيب ! »

هذا العنف ، وهذه القسوة ، وهذا التحلل من القيود الانسانية
 والاخلاقية ، وهذه الجرأة في وضع القول الصادم موضع العمل ،
 هذه الروح الوثنية ، بكلمة واحدة ، تتجلى واضحة في سيرة
 المنيرة بن شعبة ، وعبد الرحمان بن عثمان ، والخنار بن عبيد ، ومحمد
 ابن يوسف اخي الحجاج ، وكاهن من الحكام والولاة النقيين ، كما
 تتجلى في اشعار شعرائهم الذين ذكرناهم .

وكان من الطبيعي ان تتوتر العلاقات بين الهاشميين والنقيين
 لتعلق اولئك بالمثل الدينية الجديدة ، ورعايتهم لها في حياتهم
 وحياة الناس ، وزندقة هؤلاء ، واخذم الحياة على انها دنسا

وحسب ، دونما نظر او اعتقاد بالدين . وقد همت ثقيف بالارتداد
بعد موت النبي ، ولكن عثمان بن ابي العاص اشار عليهم - وكان
مطاعاً فيهم - بالبقاء على الاسلام قائلاً : « لا تكونوا آخر العرب
إسلاماً ، وأولهم ارتداداً » .

ثم كان من الطبيعي ان ينحاز بنو ثقيف الى الجهة المشاورة
للهاشميين ، اي الى عثمان في عهد عثمان - كما رأيت في امر المغيرة
ابن الاخضر - والى معاوية في الصراع الذي نشأ بينه وبين علي ،
ثم الى الامويين عامة بعد معاوية الاول ، والمروانيين خاصة بعد
معاوية الثاني . والصلة بين المروانيين والثقفين قديمة ، يرقى بها
الزمن الى عهد الرسول ، اذ طرد الحكم بن ابي العاص الى الطائف
لنجسه على نسائه . فلما ذهب اليها اخذ معه ابنه مروان ،
ومكث فيها طيلة ولايتي ابي بكر وعمر حتى تولى عثمان فرده
الى المدينة ، اي ما يقرب من خمس عشرة سنة نشأ بها مروان
في كنف الثقفين ، ونا في وسطهم ، وتخلق باخلافهم ...

وروى الاعمش ان علي بن ابي طالب قال علي المنبر في
الكوفة : « لقد همت ان اضع على ثقيف الجزية لان ثقيفاً كان
عبداً لصالح نبي الله عليه السلام وانه سرتحه الى عامل له على
الصدقة ، فبعت العامل معه بها ، فهرب واستوطن الحرم . وان
أولى الناس بصالح محمد . واني اشهدكم اني قد رددتهم الى الرقاء
ذلك ما قاله الامام في بني ثقيف من على منبر الكوفة ،
اي من على المنبر ذاته الذي سيقف عليه الحجاج الثقفي ، والبا

من قبل ابن مروان ، يخطب القوم انفسهم الذين شهدهم الامام
علي ، على ارجاع اهل الحجاج وآله الى الرق !

٣ - حادثة بأسة

ولد الحجاج عام ٤١ للهجرة (٦٦٣ م .) في اسرة معذبة
منكدة تجتاحها العواصف العاطفية والازمات النفسية الحادة ،
يرمقها الفقر ، ويسيطر على جوتها الخول والذل ، ويعطل بهجة
حياتها ماضي الام التي طلقها زوجها السابق ، وبسيء الى طمانينتها
الكدح في سبيل اللقمة .

والظاهر ان امه - وهي الفارعة بنت هذيل بن عروة
ابن مسعود (عظيم القريتين) - تزوجت قبل ان تقترن بابيه مرتين
الاولى من اخارث بن كلدة الطيب ، والثانية من شاعر ثقي
اسمه المغيرة ، طلقها الاول بعد افتقاره منها بايام لسبب ناله خلاصه
انه وجدها تتخلل عند السحر ، فقال لها :

- ان كنت بادرت الغداء فانت شرعة ، وان سكنت بنت
والطعام بين اسنانك فانت فذرة .

فاجابه وهي تنالم لطلاقه اياها :

- كل ذلك لم يكن ، لكني تخللت من شظايا السواك .

ولكنها ما لبثت ان تزوجت من الشاعر المغيرة بن شعبه ،
فأقامت معه ردماً مسن الزمن ولدت فيه ابنة منه لم تعمر

١ - هذه نقطة غامضة عند المؤرخين ، وليس لدينا من المصادر ما يوضحها ، وهي
تختلف في ايراد اسم الزوج الاول .

كثيراً... وكان نصيبها من المقيمة نصيبها من الحارث إذ طلقها
 لأسباب مجهولة. فاعترض سبيلها بعد هذين الطلاقين 'معلم' بأحد
 في الطائف اسمه يوسف بن الحكم من أبناء عمومتها، وتزوج
 منها، فولدت له ثلاثة أولاد: محمد، والحجاج، وزينب، وكلهم ذور
 عاغات، الأول ردي، الحلفة، عظيم الحجمة، والثلاثة خضبة الفيسل،
 عنيفة المزاج.

أما الثاني - وهو الحجاج - فقد وُلِدَ مشوهاً لا دور له على
 ما يذكر المسمودي، 'فتقب عن ذبوره'، كما ذكر أنه ذابى أن
 يقبل ندي أمه.

هذان حادثان: ماضي الأم، والعاهة الجسمية لا يستطيع
 الباحث أن يمر بهما دون أن يعيرهما انتباهه، إذ لا يعد ابتداءً
 أن يكون لهما الأثر الأكبر في تكوين نفسية الحجاج وبناء مزاجه
 الغريب.

أما سيرة أمه الأولى فأكبر الظن أنها أساءت إلى كيان
 الأسرة التي أنشأها بعد تجربة أو تجربتين أخفت فيها. وما كان
 زواجها من معلم بعد ما منبت به من طلاق إلا رضا بالقليل،
 وقناعة بالرزق اليسور فخيال زوجها الأول ما انفك يراودها،
 وحنينها إلى تلك الأيام التي قضتها بقربه كان يشتد ويتراخى مع
 الأحوال والشامبات، فما كانت تتجأ بقرب يوسف - والد الحجاج -
 حياتها الصحيحة، أعني أنها التزمت طرأاً في الحياة لا يلائم ميولها

١ - أكد لنا البروفسور اسيريدون أبو الروس، والبروفسور الطون مرعب،
 ومما من أساطين الطب في لبنان، أن هذه الظاهرة شذوذ في تكوين الإنسان، تظهر
 عند بعض الأطفال في غشاء يغطي مؤخرة الطفل، وتكفي عملية جراحية بسيطة لإزالتها.

ولا يتسجم مع نزعاتها ومطامعها ، ولم تلتزمه إلا لضيق في ظروفها ،
وغسلاً لآلامها ... التي ظهرت في اولادها .
ثم ما يكون من امرأة طلقت مرتين وتزوجت للمرة الثالثة ؟
أتواها تحس بالنوب الى البناء العائلي الصحيح ، ام تريد ان
تستتر وتهدأ ؟

لا مجال للاخذ بالفرضية الاولى . واذن نحن امام سيدة شبه
منهزمة افترنت رجل منهم ايضاً لان « اجداده كانوا ينقلون
الحجارة على اكتافهم » ويجفرون الآبار بأيديهم ، وهو لم يلجأ
الى التعليم الا نكسياً بعد ان اغتبه الخيل وضافت في وجهه
سبل الرزق . وما كان التعليم يومئذ مهنة رابحة ، ولا كان من
ينتهه على شيء من الاحترام في المجتمع .

في هذا الجو المظلم ولد الحجاج ، ولينته ولد كغيره من
الاولاد ! واذا جاء « الخفش العيقين » اصك الرجلين ، مسح
الجامعيتين ، الى رأس كبير مستطيل « كأنه غرس بين كنفيه » ،
بما حل والدته - وهي والدته - على التبرم به والتناقل في تربيته ،
فاطلقت عليه اسم « كليب » ، اي كلب صغير ، لما ظهر عليه من
البشاعة وسوء المظهر .

ونشأ الطفل في حجرة بلوذا صبية الحلي الذين كانوا يأنون
ليقرأوا القرآن ويتعلموا مبادئ الكتابة والحساب ، يحملون معهم
بأعليم ما يرسله اهلهم من زبيب وتمر ونقود ، حتى اذا بلغ

« الخفش : ضيق في العجين وضف في البصر حنقة . اصك الرجلين : هو الذي
نصب إحدى ركبته بالأخرى عند العدو . الجامعيتان : ختان تكشفان أصل الذنب ،
وهما من الانسان موضع رقبتي الحمار .

السادسة او السابعة من سنته كان على امام بسيط بالقراءة ، وما هي إلا سنوات قليلة انهم بعدها علومه في مدرسة ابيه ، حيث اظهر من الشغف بالعلم ، والميل الشديد للمطالعة ، ما جعله يفوق ابناء جيله ، ويسى الى عينيه ، فتسلق اجفانه من السهر والانكباب على الدرس .
 ها هو الآن في الثانية عشرة من سنه لم يبق له ما يدرسه على ابيه . وها هو ابوه يضيق به ذرعاً ، فقد عجز عن إعالة اولاده ، واضطر الى الافادة من جهوده وجهود اخيه محمد ، عليهما يعينانه في تحصيل كفاف يومه بعد ان حافت به وبالبلاد الحجازية كلها ازمة اقتصادية خانقة ، لان عامل معاوية على الحجاز - وكان زياد بن ابيه يومئذ - اغرق البلاد بالفوضى ، وحكم فيها الجور وضجت منه قاطبة ما بين حاضرها وباديها ، فكان يجمع الاموال لينفقها على العساكر من جهة ، وعلى الخصام الامويين لاسترضائهم ودفع عدوانهم وانقاء سخطهم ، من جهة ثانية .

ولم يكن من يوسف ، تجاه تلك الازمة الخانقة ، إلا ان وضع ابنه الحجاج عاملاً في مدبغة من مداخل الطائف حيث يتقاضى لقاء عمله ما يسد به رمقه . فكانت حياته هناك ضرباً من الاشغال الشاقة . بيد انها زرعت في نفسه من الاحقاد ما لا قبل لاحد بنصوره ، وفتحت ذهنه على صور والوان من العذاب والاهانة قل ان يشهدا من لم يمر بها .

تصور هذا اليافع الفقير الذي اطالع على كثير من الكتب ، والذي ورث عن اهل القدامى طموح العزة ، يقضي ايامه في مستنقع المدبغة ، يشم اكروه الروائح ، ويزاول اثقل الاعمال على نفسه ، من نقل الجلود ورشها بالملح وتنظيفها من الشعر بين زمرة

الجزارين والدباغين ومن اليهم من لا هم غم غير تحصيل القوت ،
والعش الحسيس الذي يشبه عش البهائم .^١

تصوره على هذه الحال وهو يفكر في طريقة لتخلص من
جوه الخائق ذاك . ولكن كيف الخلاص ؟ وابن الطريق اليه ؟
لم يكن امامه الا ان يارس المهنة التي مارسها ابوه من
قبله ، ولاسيما ان اباه اصبح عاجزاً عن متابعة التدريس بشكل
يرضي امهات الاولاد وآباءهم ، فتترك المدبغة ، وعاد الى الحجرة
الضيقة يعلم الاولاد مكرهاً ايضاً وايضاً ، اذ ليس في التعليم ما
يرضي مطامحه . غير انه افاد من عمله الجديد افادة كبرى اذ
اتصل بالناس ومشاكلهم اتصالاً قريباً ، وتعرف الى طبائعهم ،
واكتسب خبرة عميقة بمعاشرتهم واساليب التصرف معهم ، والناس
لبسواء ، في نظر المعلم ، غير تلامذة كبار ، لا تختلف طبائعهم
الاصيلة عن الصغار في كثير ولا قليل ، فاذا وفق المعلم الى
ادارة صفته وضبطه وتوجيهه كان حريصاً ان يوفق الى
ادارة البلاد ، وضبط الامن ، وتوجيه الناس حين يمارس هذه
الامور او ما يشابهها ويرادفها . ذلك هو شأن موليبي الذي
بدأ حياته معلماً ، وكان من قبل عاملاً ، فلما افضى اليه الحكم
ايدى من البراعة ما جعله قدماً تنصاع اليه الحوادث والاشخاص .
ولكن المجتمع العربي الذي عاش فيه الخجاج لم يكن يحتم

١ قال كعب الاشعري ، وهو خارجي ، يهجو الخجاج :

ان ابن يوسف غره من غزوكم	خضع الخجاج لجانب الامصار
لو شاهد الصديق حسين تلافياً	ضاعت عليه رغبة الاقمار
ورأى معاودة الدباغ غيبة	ايام كان يحالف الانصار

غير قادة الحرب ، ورجال المناير ، وعمال الولايات ، وائفة الشرع
والنفع . اما المعلمون فلم يكن ، كالتجسيع العربي اليوم ، بحسب لهم حساباً ،
او يقيم لهم وزناً ... وهذا ما حمل الحجاج على التبرم بمهنته ، وجعله
يفكر تفكيراً جدياً في منصب تظهر به مواهبه ، وتطمئن اليه نفسه .
ولم لا يفكر بتبوء منصب رفيع في الدولة وقد عرف « حارة
البلغايا » في الطائف التي كانت تقطنها نسبيته ، والتي نشأ منها وفيها
زياد بن ابيه ؟ أيكون زياد افضل منه في نظر الناس ؟ وما هو
وجه افضليته ؟ والمغيرة نفسه ، ألم يبلغ ما بلغه زياد بما بذل من
خدمة واطهر من مواهب ؟ وعبد الرحمان بن عثمان ... وغيرهم
وغیرهم ، كي لا يذكر الا ابناء ثقيف ؟

لا مشاحة ان باب المناصب مفتوح امامه ، كما فتح لغيره
من ابناء عمومته الذين لا يزيدونه رفعة شأن ، ان في النسب وإن
في المعرفة ، هذا ... إن لم يكونوا دونه مرتبة او مراتب في
كلهما . ولكن السؤال الذي لم يجد له جواباً هو : « كيف
يصل الى المنصب ؟ »

هنا طفق الحجاج يفكر كغيره من الوصوليين ، فراح
يدرس الواقع السياسي ، ويفيد من معطياته ، ويراقب
تطوراته ، ويتأمل مراحل سيره واتجاهه ، ويعني اكثر ما
يعني بسيرة الذين تقدموه من الولاة وامراء الجيوش واصحاب
العمالات ، ويعمل الفكر في الاساليب التي اوصلتهم ، حتى اهتدى
الى المنفذ الذي يتخذ منه اسمه الى مسمع الخليفة : ان يكون
من اعوانه في اي صراع يحدث بينه وبين اعدائه .
وجاءت الحوادث تقدم له عدة فرص لا « فرصة » واحدة . ففي

عام ٦١ للهجرة مات معاوية وولي ابنه يزيد ، فما كان من عبد الملك
ابن مروان إلا ان دخل على يزيد فقال :

- أربضة لك الى جانب ارض لي ، ولي فيها سعة فأقطعنيها .
- يا عبد الملك ! إنه لا يتعاضني كبير ، ولا أخدع عن صغير ،
- فأخبرني عنها ، وإلا سألت غيرها .
- ما بالحجاز اعظم منها قدراً .
- قد أقطعتك !

وهكذا ... دخلت الطائف في اقطاعية عبد الملك يوم كان
الحجاج في العشرين من سببه ، في عنقوان توليه وطروحه .
ثم كان من يزيد ان استعمل على الحجاز عثمان بن محمد بن ابي
سفيان . وعمالة عثمان هذا تعني ان الجو ، جو المدينة ، خلا لمروان
ابن الحكم ، اذ انتقل الحسين بن علي الى الكوفة ليجهاد فيها
فامتلات الحجاز بالمفاسد . وشاع استعمال المسكرات في مكة
نفسها والمدينة ، وانصرف الناس الى الملاهي انصرفاً شبه ثم ،
وعمت الفوضى الاخلاقية جميع الطبقات ، حتى اذا قتل الحسين
تحوّل نظر الحجازيين الى السياسة ، وراحت الحجاز تبعج بالفق ،
كعهديك بالعراق او ادهى وأمر : اغاشيون قاثون قاعدون يقتل
عبيد الحسين . وعبد الله بن الزبير يدعو الجماهير والافراد الى
مبايعته . وبنو أمية في ضيق ما بعده ضيق ، لتألب الكتل
والاحزاب والقبائل عليهم . والامصار الباقية كاليمن وعمان
وحضرموت ومصر مشدوعة في غمرة الحوادث يشجاذها الف تيار
وتيار ، لا تدري اي نهج تسلك اذ لك ما كان يجري والحجاج واقف
يتأمل متحفزاً للسير في ركب المنصر ، متمنياً في قرارة نفسه ان

يؤول الملك الى عبد الملك ، بعد ان دخلت بلده في اقطاعه .
 ونفي الى يزيد ما فعله اهل المدينة من طرد عامه والتنسيق
 على الامويين ، فسبّر اليها جيشاً من اهل الشام يقوده 'مسلم'
 ابن عقبة المزي . وما كاد هذا يصل اليها على رأس جيشه حتى
 انضم اليه الحجاج نقديراً منه ان ساعة 'المنصب' دفت . ولكن
 المعركة التي وقعت يومئذ في المدينة تحولت الى مذبحة هائلة
 طارت فيها الرؤوس وقطعت الاعناق . فهرب الحجاج ناركاً والده
 لا يعلم من امره شيئاً ... ولا يلوي على شيء .

كان من نتائج هذه المعركة ان عرف كبار الامويين اسم
 الحجاج ، وليس هذا بالشئ القليل ! بيد انه اضطرّ بعد ان هرب
 الى خوض معركة ثانية وقعت بين مروان بن الحكم وعبدالله بن
 الزبير اصاب فيها بالفشل لان الحملة التي جهزها مروان لم تقو
 على الجموع الزاحفة نحوها من مكة والبصرة معاً . واستطاع الحجاج
 ان يهرب وينجو بنفسه . غير انه لم يهرب هذه المرة وحده ، وانما
 رافق اياه في الهزيمة ... ورمى العلم الذي كان يحمله بيده !

وادرك صاحبنا هذه المرة ان لا سبيل الى نجاحه كجندي
 بسيط . فاذا كان يروم الوصول الى 'مركز' يلعب فيه ، فعليه ان
 يعمل على تولي قيادة او رئاسة او ادارة عامة ذات مجال رحب
 يتسع لمواهبه وميزانه التي بدأ يستشعرها في نفسه . كان مقتنعاً
 انه يصلح للقيادة ، وكان مقتنعاً انه لا يصلح كجندي . وهو لن
 يبلغ مركز القيادة إلا اذا وفق في الخندبة . ارأيت الى العقيدة
 النفسية التي كان يتخبط فيها ؟

الا ان طموحه كان من القوة بحيث دفعه على الاصرار ،

والحجاج حتى على نفسه . فما كاد عبد الملك يستوفي على مقدرات
 الخلافة حتى راح الحجاج يتقرب منه ويتقرب الى ان اطمأن
 اليه الخليفة الجديد ، وارسله عضواً في وفد لمفاوضة زفر بن الحارث
 الذي ابن المباينة - وكان من قبل قد حارب مروان . فلما
 وصل الوفد للمفاوض يحمل كتاب عبد الملك الى زفر ، ورئيسه
 يومئذ رجاء بن حيوة ، كان وقت الصلاة قد حان ، فقام رجاء
 وصلى مع زفر ، وصلى الحجاج وحده . وبعد سئل عن تقرده بالصلاة
 قال : « لا اصلي مع منافق خارج على امير المؤمنين وعن طاعته ! »
 وتتافل الناس يومئذ هذه الحكاية الطريفة حتى بلغت مسامع
 عبد الملك ، فاكبر اخلاص الحجاج وشعر بضرورة مكافأته ، فباي شيء
 يكافئه ؟

ليس امامه الا ان يجمعه والياً على احدى المقاطعات ، فارسله
 حاكماً على بلدة اسمها « نباله » تقع على بعد خمسين فرسخاً من
 الطائف في اتجاه اليمن ، من ارض نباله ، اي مسيرة سنة ايام .
 لا قبل عن فرح الحجاج وانتشراح صدره باذي ذي بدء ،
 اذ اصبح الآن « حاكماً » وانتهى من الدباغة ، والتعليم ، والجنديّة ا
 لن يقوى احد بعد اليوم على تغييره بامه ، ولن يحسر المحكومون
 على الهزء بدمامته ، وانتقاض شأنه . وماذا تهمة الدمامة وفي يده الآن
 ان « يتزين بزین المومس » ، وان « يرتجل شعره » ، ويخضب اطرافه .
 ولكنه سيظل عابساً ، مقطب الجبين ، قليل الضحك ، صوناً للوقار ،
 وابقاء على الضيبة .

وجيء بالدليل فسار امام الحجاج ، حتى اذا فرلا من نباله سأل
 الحجاج ، وفد شعر بالضيق :

- اين هي ؟ وعلى اي سمت هي ؟

قال الدليل وأشار بيده :

- نستقرا عنك هذه الاكمة .

نأمل الحاكم الجديد ما حوله ، فاذا هو لا يحكم إلا رفعة صغيرة من الارض ، بالاضافة الى بعدها عن عاصمة الدولة ، وأحسن انه « منفى » أكثر بما هو « مثاب » على إخلاصه ، أو مكرّم لنبوغه ، فغلى الدم في عروقه ، وشعر برارة تغمر افطار نفسه ، ثم قال بعصية ظاهرة :

- لا اراني اميراً إلا على موضع نتر منه اكمة ! اهون بها

من ولاية !

وعاد ، كاسف البال كسير الحاطر ، الى الطائف . وماذا في

الطائف ؟

انه لا يملك فيها ما يقتات به ، ولا يحمل أهلها له غير المفت والاذدراء . فحدث فراره في المعارك ملاً معادل الرجال ونوادي النساء ، وقد أصبح في سن تقضيه ان يتزوج وان يني مستقبله . وابة فتاة ترضاه زوجاً وهو على هذه الحال من الدمامة والاملاق وسوء السعة ؟ ومن ابن لشاب عرف بالجبن وضعة النفس وهزال المرعى ان يشير انبياء الاوانس او يحملين على اجتذابه وكل ما فيه ، وما يدور حوله ، وما يسمع عنه ، منفرد مقيت ؟

لقد كان من امره ، وهو غلام ، ان خلق النيري الشاعر في ازفة الطائف يشتبه افصح الشبهة على مسمع من صديق له كان يسير معه ، فسأله الصديق : « من هذا ؟ » فقال الشاعر : « هذا الحجاج بن يوسف ! دعه فاني ذكرت اخه في شعري فأحفظه

ذلك ! ،

وكان منه ان نازع عمرو بن المغيرة بن شعبة - زوج امه الثاني - الى ابن زياد في ميراث اخيه لامه ، واغلظ الكلام لعمرو الذي ابي اعطاه شيئاً ، فأمر ابن زياد ، فضرب اسواطاً على رأسه .

وكان منه ما علمت من تحرشه بحاشية الخلفاء ، وتوافقه للولاية ، وتفحمة مجالس الكبراء عليهم يلقون اليه بولاية او يسترونه على رأس كنيية .

هذه الحوادث وامثالها كانت تعيش حية في اذهان مواطنيه من اهل الطائف ، فلما رجع اليها من نيابة وأحسن بالزورار الناس عنه واحتقارهم اياه وتلبت الجور حوله ، ندم على ما فرط منه ورأى ان ولاية حذيفة كنيالة او احقر منها افضل من معاشره هؤلاء القوم الذين يعرفون عيوبه ، ويذكرون مساويه امامه ، ويأبون الا الغض من شأنه والنيل من كرامته .

لم يبق امامه الا ان يجر الطائف لان تقامه فيها يعني الانتحار ، ولكن يجرها الى ابن ؟ عليه ان يؤمن فوت يومه على الاقل ! وليترك الان الزواج والنفكير في الزواج رينها يصبح في وضع يمكنه من الوقوف على قدميه . عليه ان « يتخزع » عملاً يقصيه عن شائبه ويخفيه عن اعينهم بحيث لا يسمع ما يسمع ، ولا يشهد ما يشهد . عليه ان يكون رجلاً لا طفلاً في تناول الحياة والتصرف بشؤونها . وسيعرف بعد اليوم كيف يقتضى

لنفسه من الناس ، وكيف يجزيهم على نفورهم منه ومقتهم إياه .
 ذلك ما فكر فيه ... ثم ما لبث أن يتم وجهه شطر وزير
 عبد الملك وأحد أعرانه المقربين منه ، وهو روح بن زبياع الجذامي ،
 وكان يشغل وظيفة رئيس شرطة الخليفة . فدخل في سلك الشرطة
 آملاً أن يتولى رئاستها في المستقبل ، ويفيد منها في تأديب خصامه
 وشفاء احقاده التي كانت تتكاثر وتتراكم في صدره يوماً بعد يوم .
 وعناك ... في الشرطة ، أبدى من الخلق والمهارة وحسن تفهم
 الأمور - وكان قد قارب النضج - ما جعل ابن زبياع على اكباره
 وتعظيم شأنه . وكان كل همه محصوراً في إستماع صوته للخليفة ،
 وإشهار نفسه كعبد مخلص من عبيد المؤمنين ، فلم يترك فرصة
 إلا استغلها لإظهار تلك « الصفة » ، ولا مرت سائحة إلا انتهزها
 لانتحال تلك السمة ، وهي سمة يابغا غيرهِ ، ويعتذر عنها من
 لصقت به ، ولكنه كان يعرف وحده ، غنوة عن الناس أجمعين ،
 أنه لم يطلبها ، ولم يحتسب للانسام بها إلا لغرض في نفسه ، فهي في نظره
 وسيلة ، وإن كانت تظهر للملأ في شكل غاية . كان - وهو شرطي -
 عالماً مغلفاً من الاحلام والمطامع والضغائن والخاوف والافكار ،
 ثم لم يكن لينفتح امام غيره الا عن طاعة للرؤساء ، واجلال للخليفة ،
 ورضا بقضاء الله وقدره .

وفي ذات يوم اختلى عبد الملك بوزيره روح بن زبياع ، وتحدث
 اليه عن انتشار الاجرام في بلاد الشام خاصة ، وسيادة الفوضى في
 الاقطار العربية عامة ، وشكا ما يعانيه من عصيان العسكر ،
 وفقدان عيبة الشرطة ، واضطراب رجالها في تعقب العصاة والمجرمين
 وتقاعسهم عن القيام بواجباتهم . فقال الوزير :

- يا امير المؤمنين ، ان في شرطي رجلاً لو قلته امر العسكر
لأرحلهم برحيلك وأنزلهم بنزولك !
- من هو هذا ؟

- رجل من الطائف يقال له الحجاج بن يوسف .
أجال عبد الملك نظره في اللانهاية ، ثم اطرق يفكر ... هذا
الاسم ليس غريباً عن ذهنه ، فهو يذكر جيداً انه تحدث عنه في
أكثر من مناسبة ، لا بل يذكر انه حارب من أجل أبيه مروان ،
ثم امال عمامته على جانب رأسه وقال :
- إنا قلناه ذلك .

ونقل الحجاج قرار الخليفة بهدوه وإرنياح ... وعزم هذه
المرّة على أخذ نفسه بالشدّة ، فلن يستجيب بعداً لنزوانه ، ولن
يترك لأعصابه سلطاناً على عقله ، خشية ان يصيبه ما أصابه لأول
مرة ، اذ أدرك ان موقفه من الخارج أصبح بمزلة لا خيار له فيها
بين حالات متعددة ، فهو إما ان يصبر ويصابر الى ان تقبض
الظروف له ما ينشده ، وإما ان تنهار جميع احلامه ويضطر الى
الاعتكاف في الطائف منبوءاً مهاناً ، فاختر الصبر والانتظار .

ولكن العنف صفة نلارم طبيعته ، او هو شيء مركّب في
فطرته لا يد له فيه ، ولا هو قادر على التملص منه ، فاذا قتل
في سلوكه جاء عفويّاً ، يصدر به عن ورائات قديمة زُرعت في
نطقه ، ومث في دمه ، فلا يملك إلا ان يكون عنيفاً .

وحدث ان نادى العسكر ذات يوم وامرهم بالرحيل ، فتخلف
اعوان روح بن زباع خاتمة ، وعصوا اوامره ، فوقف عليهم وهم
على طعام يأكلون ، وحدّجهم بنظرات ماكرة ، ثم سأل :

— ما منعكم ان ترحلوا برحيل امير المؤمنين ؟

فاجابوه هازئين بصوت واحد :

— انزل يا ابن اللغناء ! كل معنى .

سكت برهة ، وحينئذ ترنخف من الغيظ ، ثم قال :

— هيات ، ذهب ما هنالك !

ثم امر بهم فجلدوا بالسياط جلداً مبرحاً ، وطوفهم بالعسكر ،

وامر بفساطيط روح بن زنباع فأحرقت عن آخرها . وهلع روح

لما اصابه ، فأمرع نحر عبدالمك ، ودخل عليه باكياً ، فسأله

الخليفة : « ما لك ؟ »

— يا امير المؤمنين ، الحجاج بن يوسف الذي كان في عبيد

شرطي ، ضرب عبيدي واحرق فساطيطي !

— علي به .

ودخل الحجاج للمرة الثانية في حياته على الخليفة ، وكانت

الاولى يوم اوفده الى زهر بن الحارث ، ولكنه لم يخاطبه فيها مباشرة ،

فقال له :

— ما حملك على ما فعلت ؟

كان الحجاج قد اعد هذا الموقف لعدته ، فأجاب :

— ما انا فعلت يا امير المؤمنين !

— ومن فعله اذن ؟

— انت والله فعلت ! انما يدي يداك ، وسوطي سوطك . وما

على امير المؤمنين ان يخلف على روح بن زنباع للفساطيط فساططين ،

والغلام غلامين ، ولا يكسرني فيها قدمي له .

تأمل عبد الملك فأعجبه هذا الحل الذي اوحى به الحجاج ،

ولكن كلامه ينطوي على إجماعات أخرى أدق وأعمق من وضع حل لمشكلة بسيطة ، إجماعات تناول شخص الحجاج نفسه ، وتعمل الخليفة يطمئن إليه كشخص ، فقرّبه منه ، وأصبغ عليه النعمة ، وراح يستظهر به في الازمات ، ويستشير به في مشكلات الأمور ، والحجاج يفتن في إعظامه ، ويبالغ في خضوعه له ، وينكر الخطأ لبلوغ مآربه عنده . فكان ذلك الموقف آخر عهد الحجاج بالنعامة ، إذ انتهى بتجراح فائق من جميع جوانبه : رجع روح مسروراً ، والجنود اخلدوا للسكنة وامتنعوا عن الشعب ، والخليفة سرّ لما رآه من فطنة رجل يخلص له الخدمة .

ومنذ ذلك الحين ونجم الحجاج في صعود ولعان ...

٤ - مع الخليفة

أصبح الحجاج ، بمعنى من المعاني ، صديق الخليفة ، وكانت صلاحيات الخليفة من السعة والكثرة بحيث تشمل سلطاته جميع الشؤون العسكرية والإدارية والقضائية والاقتصادية . كانت يولي من يشاء ، ويعزل من يشاء متى شاء ، وتجيئ إليه الأموال ، وينفقها دون محاسب ، ويعين القضاة ويعزلهم ، ويجهز الجيوش ، ويحدد الجند ، ويعلن الحرب ، ويعقد الصلح . كان يفعل كل ذلك دون رقيب . كانت الدولة هي الخليفة ، وكان الخليفة هو الدولة ، فمن بعده الخط بصدافته يصبح على يقين من انشلاق نجمه ومناغة اسمه .

غير أن صداقة تنشأ بين ملك وفرد من أبناء الرعية لا تكون

ابداً خالصة من كل شائبة ، وانما هي تقوم ، اذ تقوم ، على اساس من « الاستغلال » بين الطرفين المتصادقين ، تختلف وجهته باختلاف مواهب كل منها وحاجته للآخر . ونلك هي صداقة عبد الملك للحجاج .

رأى عبد الملك في الحجاج خير « تعبير » عن فكرته في الرجل الذي يحسن استعمال السيف او العنف ، وراح يروى ما يصدر عنه ، فلذا به يحقق له ما يتوق اليه من تجرد في الفلك ، واذعان للاوامر ، وطمع برضاء الرئيس ، واستهانة بآراء الآخرين وافكارهم . وهذه صفات نادرة قل ان تجتمع في « إنسان » ، واذا تجملت له في ظرف ، فلا بعقل ان تستر على تجمعها في كل الظروف لما هي عليه من التضارب والتناقض . فكان من عبد الملك - وهو من اقذاذ الخلفاء - ان احتضن الحجاج ، وضمه الى حاشيته ، وقربه منه ، واوغل في تقريبه دون ان يتوك له مدى حراً يحول فيه . وكان من الحجاج ان ماشى عبد الملك في جميع خطواته ، واخذ عنه دروس العنف ، وهو المبال اليها بطبيعته ، واتقنها ، وراح يطبقها بمخاديفها لا يراعي في تطبيقها غير ارادة « أمير المؤمنين » ورضاه .

واذا انت تدبرت ثقافة ذلك الجيل وفعت الى « آداب » خاصة بمعاشرة السلطان ، ونصيحته ، وطاعته ، وصحبته ، وطرائق التصرف معه ، ووجدت ان الحجاج لزمها واثاب بها وراض نفسه عليها حتى اصبح يمثلها اصدق تمثيل .

واول هذه الآداب ما كان مستقى من القرآن واحاديث النبي وسيرة الصحابة في الدرجة الاولى ، ثم ما وضع الى ابناء ذلك

العصر من مظاهر الحياة المدنية عند جيرانهم كالفرس والروم في الدرجة الثانية ، واخيراً ما وصلوا اليه من تجارب عاشوها ومروا بها . جاء في القرآن : « يا ايها الذين آمنوا أطيعوا الله والرسول واولي الامر منكم . » وجاء فيه ايضاً : « اما جزاء الذين يجاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فساداً ان يقتلوا او يصلبوا او تقطع ايديهم وارجلهم من خلاف او ينفوا من الارض . » وتستجد الحجاج يردد هاتين الآيتين لدى كل مناسبة ، ويتوسل بهما عند كل مهاجمة .

وفي الحديث الشريف : « من فارق الجماعة ، او خلع يداً من طاعة ، مات ميتة جاهلية . » وروي عن النبي ايضاً انه قال في جمع من اصحابه : « الدين النصيحة ! الدين النصيحة ! الدين النصيحة ! » فسألوه . « لمن يا رسول الله ؟ » فقال : « لله ولرسوله ولأولي الامر منكم . »

اما سيرة الخلفاء الراشدين فكانت تدور في ذلك الفلك ، فلك « الطاعة » : الخلفاء يطيعون الرسول ، والرسول يطيع الله ، وعلى الناس ان يطيعوا الخلفاء ، لانهم اولو الامر . وما كانت الفتن التي نشعل لتخمد الا استناداً الى هذا الواجب ، واجب الطاعة . ولا كان الولاة يجبون الاموال ، ويجندون الجند ، ويقبسون حدود الشريعة إلا أداء لفريضة الطاعة الدينية ، فاذا ظهر العصيان قمعه القوة المسلحة ، وذلك هو الجور الفكري الاجتماعي الذي كان يسيطر على الناس في عهد عبدالملك ، وما تقدمه من عهود .

ولكن طاعة الحجاج للخليفة امر مفروغ منه . المهم هو علاقته بالخليفة ، وطراز صداقته له ، واسلوبه الخاص في الافادة

من هاتيك الصداقة :

يقول ابن المقفع : « ينبغي لمن خدم السلطان ان لا يغتو به اذا رضي ، ولا يتغير له اذا سخط ، ولا يستغنى ما حقه ، ولا يلحف في مسأله . »

ويقول في مقام آخر : « لا تكن صحبتك للسلطان إلا بعد رباطة منك لنفسك على طاعتهم ، فان كنت حافظاً اذا ولوك ، حذراً اذا فربوك ، أميناً اذا اتعنوك ، ذليلاً اذا حرموك ، راضياً اذا اسخطوك ، ذمكهم وكانك تتعلم منهم ، وتؤدبهم وكانك تتأدب بهم ، وتشكرهم ولا تكلفهم الشكر ، وإلا فالبعد منهم كل البعد ، والحذر منهم كل الحذر . »

ولم يكن الحجاج غريباً عن هذه النصائح التي يلقي بها ابن المقفع ، بل كان يعيش في حميم الاجواء التي اوحى بها ، وكان المثل الحي الذي يشخص « صحبة السلطان » ان في طاعته ، وان في ذله ، وان في تصرفاته ، وذمذباته في التقرب والابتعاد . وهذا هو الذي ادى الى وثوق عبد الملك به ، وحمله على استعانة في توطيد ملكه اولاً ، وادارة ذلك الملك اخيراً .

واغرب ما في تلك الصلة بين عبد الملك والحجاج انها لم تكن مبنية على إعجاب ، ولا على مودة ، ولا على شعبية تحمل الخليفة على استرضاء عامله . كل ما يظهر منها عند الاول نعاطف وتهيؤ وتحقير وانزوار ، وعند الثاني غلظة وصغار واستعطاف ونجمل ونودد . واستمرت مع ذلك قرابة اربع عشرة سنة اقوى من الاعاصير والعواصف لم يزعزعا غلغل الرعية وتبهرها ونظمتها من الحجاج ، ولا فالتها الحوادث ، على عراقتها باضطراب يشلها

ويكفي الناس شرها . وإذا كانت غشياً مآً عنيفاً ، لا تلبث ان تعود
من بعده الى سيرتها الاولى ، وينقلب عنفها الى رفق وموادة .
ذكر الجاحظ ان عبد الملك جلس يوماً في مجلس خاصته ،
وقبض على حبه فشملها ملياً ، ثم اجرت نفسه ، ونفخ نفخة اطلالها
ثم قال : « ما اقول يوم المسألة عن امر الحجاج ، وقد ادحض
المنج على العليم بما طوته الحبيب ؟ أما إن نليكى له قرآن في
لوعة يلها التذكار ! كيف وقد علمت فتعاصيت ، وسمعت
فتعاصيت ، وحمل الكرام الكاتبون ^١ . والله لكأني آلف هذا الطعن
على نفسي ... وما عو إلا الغل الكامن . اللهم انت لي أوسع ، غير
منتصر ولا معتذر ! »

احس وراء هذا الكلام الذي قاله عبد الملك في اواخر ايامه
ان الحجاج كان قد اكراه عبد الملك على مصادقته يوم صادفه ،
ولكنه اكراه من نوع غريب دقيق في منتهى الدقة . اكراه
يظهر به المكروه على عمل انه هو الذي اخذ العمل الذي اكراه
عليه ، ويسدو وكأنه فعله ببل حريته ، حتى اذا صفا جوهه ،
ونفادت الايام عليه ورجع الى نفسه ، خامره نوع من الندم
كهذا الذي نلمسه في كلام عبد الملك عن الحجاج . بيد ان الدقة في
الموقف تتركز عند هذا السؤال : كيف اكراه الحجاج عبد الملك
على مصادقته ؟

الواقع ان عبد الملك ولي الامر في ظرف من اخرج الظروف ،
فهو لم يكن ، كما علمت ، ولي العهد الشرعي ، وإنما فرضه ابوه

^١ يشير الى العقيدة الدينية التي يعتقدونها المسلمون ان عن بين الانسان وشماله كاتبين
يسجلان حسنه وسيئاته .

فرضاً على الناس^١ ، فما كاد يضطلع بأعباء الحكم حتى وجد نفسه محاصراً من جميع الجهات ، والزعازع تشور في وجهه انى تلفت ، وغلك عليه اسباب الهدوء والطمانينة .

وهنا اترك الكلام السعودي يعرض لك بأسلوبه الخاص واقعة الحال : « كان عبدالملك بن مروان قد سار في جيوش اهل الشام ، فنزل بطنائت ينتظر ما يكون من ابن زياد ، فانه خير مقله ، ومقتل من كان معه^٢ ، وهزيمة الجيش بالليل . والله في تلك الليلة مقتل جيش ابن دجلة ، وكان على جيش بالمدينة لحرب ابن الزبير ، ثم جاءه خبر دخول بابل بن قيس فلسطين من قبل ابن الزبير ، ومير مصعب ابن الزبير من المدينة الى فلسطين ، ثم جاءه خبر مير ملك الروم لاون بن فلقط ونزوله المصيحة^٣ يريد الشام ، ثم جاءه خبر دمشق ، وان عبيدها وأوباشها ودعاترها قد خرجوا على اهلها ونزلوا الجبل ، ثم انه ان من في السجن بدمشق فتحوا السجن وخرجوا منه مكبرة ، وان خيل الاعراب اغارت على حصص وبعليك والبقاع ... »

تأمل هذه الظروف واحكم ... بيد ان عبدالملك لم يهن ، ولم يضعف ، فقفل راجعاً الى فلسطين ، حيث التقى بابل بن قيس

١ عندما ولي مروان بن الحكم قرر المؤتمرون من بني امية واعوانهم في مؤتمر الحامية ان يكون الامر من بعده لخالد بن يزيد بن معاوية ، ثم عمرو بن سعيد الاشدق . ولكن مروان نقض العهد وحل الناس على مبايعة ابنه عبدالملك .

٢ كان ابن زياد قد توجه من قبل الامويين للقضاء على ثورة قام بها الشيعة في العراق اخذاً بنار الحسين بن علي .

٣ من تغور الشام بين انطاكية وبلاد الروم بقرب طرطوس .

في اجنادين ومزق جيشه ، بعد ان هادن ملك الروم وارضاها بالهدايا .

ثم عاد الى دمشق وجيز الكتاب وأعد العدة وسار للاقافة زفر بن الحارث ، فحاصره وارغمه على المبايعة . وبينما هو يتأهب للحرب في العراق وافاه نيا استيلاء عمرو بن سعيد بن العاص الاشديق على دمشق ودعونه الناس لمبايعته بحجة ان عبد الملك مغتصب ، فكرت ثانية نحو دمشق ، وحاصرها الى ان طلب منه عمرو التائر الامان فأمته ، حتى اذا دخل المدينة غدر بالاشديق ومكث لنفسه في بلاد الشام ، فلم يبق له بها من منازع .

ولكن الامصار الاخرى : الحجاز واليمن والعراق - العراق على الاخص - كانت تعج بالفق ، وقومج بالاضطرابات ، فأخذ عبد الملك نفسه بالحزم ، ونجهاز لمحاربة الزبيريين ، فوفق الى القضاء عليهم في العراق ، وقتل مصعب بن الزبير اخ عبدالله ، وولى اخاه بشر ابن مروان الكوفة ، وخالد بن عبدالله البصرة .

كان الحجاج رفيق عبد الملك وصاحب جنده في جميع هذه الاحداث . فلما استتب الامر للخليفة في سوريا والعراق ، ولم يبق امامه من معارض غير الحجاز ، شعر الحجاج ان « الفرصة » مؤاتية اذ كان - دون شك - يتنبح القضايا السياسية ويدرس اتجاهاتها ، فتقدم من عبد الملك وقال له :

- رأيت في منامي اني سلخت عبدالله بن الزبير من جلده . فابعثني اليه وولتني قتله .

تأمل عبد الملك ، فرأى في هذا « انتقام » غريبة لا يرقى اليها خيال ! فاذا كان لاحد ان يحلم فانما يحلم بولاية او رئاسة او قيادة .

أما ان يحلم بسلخ امرئ من جلده فهذا ما لا يحظر على بال . ولا
يبعد ان يكون حلم الحجاج صحيحاً ، فكثيراً ما نصدق الاحلام .
وما هي الا إطرقة قصيرة لتغرق فيها عبد الملك الذي كانت
ينوي ان يذهب بنفسه لمحاربة عبدالله بن الزبير ، حتى عدل عن
نيتة وامر بنسير جيش للحجاز بقيادة الحجاج .

ارأيت كيف اكراه الحجاج عبد الملك على توليته اول ما
ولاه ؟ كل ما في الامر ان الحجاج كان يعرف نقاط الضعف
في عبد الملك ، في شخصيته وفي ظروفه . وكان يعلم انه العزم
ان العنف ، وحده هو الذي يمكن سلطان عبد الملك في الارض ،
وان لا حياة لعبد الملك إلا به . فكان يشعره في الساعة اللازمة
انه هو القادر على إنقاذ السفينة من الغرق ، كلما تعرضت سفينة
عبد الملك ذاته للغرق ، وما أكثر ما تعرضت له !

هذا الاكراه المحجوب الذي يجريه الحجاج على الخليفة ، ويصطنع
فيه أساليب الانحاء عند الطرف العصب ، كان يتشكل في فوالب
عديدة ، تختلف باختلاف الاحوال والمناسبات . وبرز هاتيك القوالب
اثنان : الملق والحضوع . فلما من مخلوق اتصل بالحجاج او عامله او
تحدث اليه او عاش معه إلا كان يشعر بنقرة منه وشتوخ فيه
وعناد مرّ لا يقوى عليه قوي ، إلا شخص واحد هو عبد الملك ،
فانه لم يظهر له منه غير الاذعان والطاعة والذل ، وما اطل عليه
عبد الملك إلا رآه بوجهه الخاضع الذليل ، ولا طالع عبد الملك مرة إلا
بوجه ذليل خاضع . وقد بلغ من حرصه على رضا امير المؤمنين
ان كان يصل كل من يمدحه عنده ، ويحشى أكثر ما يحشى ان
يتعرض له احد بسوء في حضرة الخليفة .

إسمع : « كان الحجاج يستقل زياد بن عمرو العتكي ، فلما
 اتى الوفد على الحجاج عند عبد الملك بن مروان ، قال زياد : يا
 امير المؤمنين ! إن الحجاج سيفك الذي لا يذبو ، وسيفك الذي
 لا يطيش ، وخادمك الذي لا تأخذه فيك لومة لائم . فلم يكن
 بعد ذلك الخف على الحجاج ولا احب اليه منه . »

وكتب مرة الى عبد الملك في عظة عطشها فشتمه اصحابه
 ورد عليهم ، يقول : « بلغني ما كان من عطاس امير المؤمنين
 ونشيت اصحابه له وردة عليهم . فيا ليتني كنت معهم فافوز
 فوزاً عظيماً ! »

وكتب اليه ايضاً في احدى المناسبات : « إن خليفة الرجل
 في اهله اكرم عليه من رسوله اليهم ، وكذلك اخفاء ، يا امير المؤمنين ،
 اعلى منزلة من المرسلين . »

وكان من اثر هذه التلقيات في نفس عبد الملك ان جعلته
 بدوره ضعيفاً خائراً حيال خادمه ، فلم يكن بملك ان يقسو عليه
 ويخلص منه ، رغم انه هم مراراً وتكراراً بابعاده ، ولكنه كان
 يتراجع كل مرة عندما يبلغه جواب الحجاج ، ويلس خضوعه
 وتذله وتواضعه .

في اليه مرة ان الحجاج يسرف في انفاق المال ، وانه يذر
 على غير طائل من غير حساب ، فكتب اليه يلومه على اسرافه
 ويتوعدده . فأجابه الحجاج شعراً :

اتمني كتب للخليفة ضمنت قراطيس ...

ومنها كتاب فيه لين وشدة وذكر وفي الذكر الذي للرب منفع
 وكانت بلاداً ، جثها ، ذات فتنة بها كل نيران الحوادث تلح
 فما زلت فيها اعمل الحزم جاهداً فأعطي على حين العطاء وأمنع
 فلا تهمني إنسي لك ناصح ولست مع النصع المبين أضيع
 فرد عبد الملك عليه كتابه وكتب في حاشيته : « صدقت يا
 أبا محمد ، وبروت ! »

وحاول مرة ان يستجيب لضراعات الناس وتظلماتهم ، فكتب
 اليه يأمره باعتزال عمله الكتاب التالي : « من عبدالله عبد الملك بن
 مروان الى الحجاج بن يوسف . اما بعد ، فقد أصبحت بامرئك يوماً
 يقعدني الاشفاق ويقييني الرجاء . عجزت في دار السعادة وتوسط
 الملك وحين المهل واجتمع الفسكر التمس العذر في امرئ . فأنا
 لعمر الله في دار الجزاء وعدم السلطان واشتغال النفس والركون
 الى الزلة من نفسي ، والتوقع لما طويت عليه الصحف اعجز . وقد
 كنت اشركك فيها طوقتني الله حملاً ، والآث بحقوي من امانة
 الله في هذا الخلق المرعي ، فدللت منه على الحزم والجد في امانة
 بدعة وإنعاش سنة ، فقعدت عن تلك ونهضت بما عاندها حتى صرت
 حجة العائب ، وعذر اللاعن ، والشاهد القائم . فلعن الله ابا عقيل وما
 نجى فالأم والد وأخيت نسل . فلعمري ما ظلمكم الزمان ولا
 قعدت بكم المراتب . لقد البستم ملبكم ، وأقعدتكم على دوالي
 خططكم ، وأحلنكم على قدر منعكم . فكنتم بين حافر وناقل
 ومانع في الفلوات القفرة . ما تقدم بكم الاسلام ، ولقد تأخرتم .
 وما الطائف منا يبعد بجهل اعله . ثم قمت بنفسك ، وطمعت بهتك ،
 وسرك انتضاء سيفك . فاستخرجك امير المؤمنين من اعوان روح

ابن زباج وشرطته ، وانت على معاونته يومئذ محسود ، فهما
 امير المؤمنين . والله يصلح بالتوبة والغفران زلته . وكان بك وكان
 ما لو لم يكن لكان خيراً مما كان . كل ذلك من تجاسرك
 وتحاملك على المخالفة لرأي امير المؤمنين . فقرعت صفقتا ، وهنكت
 حجبنا ، وبسطت يديك تحفن بهما من كرائم ذوي الحقوق اللازمة
 والارحام الواشجة ، في اوعية ثقيف . فاستغفر الله لذنب ما له
 عذر . فلتن استقال امير المؤمنين فيك الرأي ، فلقد حالت البصيرة
 في ثقيف بصالح النبي صلى الله عليه وسلم اذ اتته على الصدقات
 وكان عبده فهرب بها عنه . وما هو الا اختبار للثقة ، والمطلب
 لمواضع الكفاية ، فتعد فيه الرجاء كما تعد بامير المؤمنين فيما نصبتك
 له . فكان هذا أليس امير المؤمنين ثوب العزاء ، ونهض بعذره
 الى استنشاق نسيم الروح . فاعتزل عمل امير المؤمنين ، واظعن عنه
 باللعنة اللازمة والعقوبة الناهكة ، ان شاء الله اذا استحكم لامير
 المؤمنين ما يحاول من رأيه والسلام .

غير انه تردد في آخر لحظة ، ولم يشأ ان يقطع رأس الافعى ،
 فدعا مولى له اسمه « نيانة » كان يعنده في النجس لما يعرفه فيه
 من ذرابة اللسان وصدق النظر ، فناوله الكتاب ، ثم قال له :
 - نيانة ! العجل . ثم العجل ، حتى تأني العراق ، فضع هذا الكتاب
 في يد الحجاج وترقب ما يصكون منه . فان جئت عند قراءته
 واستيعاب ما فيه ، فاقلعه عن عمله وانقلع معه حتى تأني به ،
 وهدتي الناس حتى يأتهم أمري ، بما تصفني به في حين انقلاصك من
 حي لهم السلامة . وان هشت للجواب ولم تأخذ الخيرة فخذ ما
 يجيب به ، وأفرره على عمله ، ثم أعجل اليّ بجوابه .

قال نياته : ... وخرجت قاصداً الى العراق فضمنني الصحارى
والقيافي واحتواني القر ، وأخذ مني السفر ، حتى وصلت . فلما وردته ،
ادخلت عليه وعلي شجوباً مضى ، وقد توسط خدمه من بواحيه
وتدثر بطرف خز أدكن ، ولات به الناس من بين قائم وقاعد .
فلما نظر لي وكان لي عارفاً ، قعد ولبسم لبسم الوجيل ، ثم قال :
- أهلاً بك يا نبأنا ! أهلاً بمولى امير المؤمنين . لقد اتر قبك
سفرك . واعرف امير المؤمنين بك ضيقاً ، فلبت شعري ما دهمك
ودعمني عنده ؟

سلمت وقعدت . فقال :

- ما حال امير المؤمنين وخوله ؟

ولما هذا اخرجت له الكتاب فناولته آياه ، فاخذه مني مسرعاً
وبده ترعد ، ثم نظر في وجوه الناس فما شعرت الا وأنا معه لبس
معنا ثالث ، وصار كل من يطيف مسن خدمه يلقاه خالياً لا
يسمعون منا الا الصوت فلا يقربون . ففك الكتاب فقرأه ، وجعل
يتساب ويردد تناوذه ويسيل العرق على جبينه وصديغه على شدة
البرد ، من تحت فلتسوته ، وعلى رأسه عمامة خز خضراء ، وجعل
يشخص الي ببصره ساعة كالتوم ، ثم يعود الى قراءة الكتاب
ويلاحظني النظر كالتفهم الا انه واجم ، ثم يعاود الكتاب ، واني
لا قول ما اراه يثبت حروفه لشدة اضطراب يده حتى استقص
قراءته ، ثم مالت يده حتى وقع الكتاب على الفراش ، ورجع اليه
ذهنه ، فمسح العرق عن جبينه ، ثم قال مثلاً :

واذا المنية انشبت اظفارها ألفت كل قيمة لا تنفع

فبع والله منا الحسن يا نبأنا ! وتواكلنا عند امير المؤمنين

الالسن ، وما هذا الا صانع فكرة غفها مرصد يكاب بقصتنا مع
حسن رأي امير المؤمنين فينا . ثم صاح :
- يا غلام !

فتبادر الغلمان الصبيحة ، فبلي علينا منهم المجلس ، حتى دفأتني
منهم الانفاس فقال :
- الدواة والقرطاس .

فأتي بدواة وفرطاس ، فكتب بيده ، وما رفع القلم الا مستنداً
حتى سطر مثل خد الفرس ، فلما فرغ قال لي :
- هل علمت ما جئت به حتى نسعك ما كتبنا ؟
- لا !

- اذن حبك منا مثله .
ثم تاولني الجواب وامر لي بجائزة فأجزل ، وجرد لي كساء ،
ودعا لي بطعام فأكأت ، ثم قال :
- نكيتك الى ما امرت به من عجلة او توان ، واني لأحب
مقارنتك والانس برؤيتك .
فأجبت :

- كان معي قفل مفتاحه معك ، ومفتاح ففلك عندي ، فأجبت
لك الواجهة بالامرين ، فأقفلت المكروه وفتحت العافية وما ساءني
ذلك ... وما احب ان ازيدك بياناً ...
ثم نهضت فقام مودعاً لي ، فالتزمني وقال :
- بأبي انت وامي ، رب لفظة مسوعة ، ومحنقر نافع ، فكُن
كما اظن .

وخرجت مستقبلاً وجهي حتى وردت على امير المؤمنين ،

فوجدته منصرفاً من صلاة العصر ، فلما رأيته قال :

— ما اجتواك المضجع بالنبأ !

فأجبت :

— من خاف من وجه الصباح أدلج .

ثم سلمت وانتبذت عنه ، فتوكلت حتى سكن جأشي ، ثم دفعت إليه الكتاب ، فقرأه مبتسماً . فلما مضى فيه ضحك حتى بدت له سن سوداء ، ثم استقصاه ، فانصرف إلي فقال :

— كيف رأيت إشفاه ؟

فقصت عليه ما رأيت منه ، فتعجب وقال :

— صوات الله على الصادق الأمين ! ان من البيان لسحراً .

ثم قذف الكتاب إلي فقرأته ، فاذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين والمؤيد بالولاية ، والمعصوم من خطيئ القول وزلل الفعل بكفارة الله الواجبة لذوي أمره من عبد استنقته الذلة ، ومد به الصغار إلى وخيم المرتع وويل المكرع ، من جاثلي قادح ومعتز قادح ، والسلام عليك ورحمة الله التي اتسعت فوسعت ، وكان بها التقوى إلى أهلها قائداً ، فاني أحمده الله اليك راجياً لعطفك بعطفه الذي لا إله إلا هو .

« أما بعد ، كان الله لك بالدعة في دار الزوال ، والامن في دار الزوال ، فانه من غيبته به فكرتك يا أمير المؤمنين مخصوصاً فما هو إلا سعيد يؤثر أو شقي يؤثر ، وقد حجبتني عن نواظر السعد لسان مرصد وناقت حقد انتهز به الشيطان حين الفكرة فافتتح به ابواب الوسواس بما تحويه الصدور . فواغوثاه باستعانة أمير

المؤمنين من رجيم انما سلطانه على الذين يتولونه ، واعتصاماً بالتوكل
على من خصه بما اجزل له من قسم الايمان وصداق السنة ، فقد
اراد اللعين ان يقتل لاوليائه فتقاً نبا عنه كيداً ، وكثر عليه
تحسره ، بليّة فرع بها فكر امير المؤمنين عليه السلام ، وكادحاً مؤثراً ،
لبطل من غربه الذي نصبي ، ويصعب ثأراً لم يزل به مونوراً ،
واذكره فديماً ما مت به الاوائل حتى لحقت بثلثه منهم ، وبما
كنت ابلوه من خسة اقدار ، ومزاولة اعمال ، الى ان وصلت ذلك
بالشرطة الروحاني بن زباج . وقد علم امير المؤمنين ، بفضل ما اختار
الله له تبارك وتعالى من العلم المأثور الماضي ، بان الذي عيّن به
القوم مصابيحهم من اشد ما كان يزاوله اهل القدمة الذين اجنبى
الله منهم ، وقد اعتصموا وامنعوا من ذكر ما كان ، وارتفعوا بما
يكون ، وما جهل امير المؤمنين - ولليمان موقعه غير محتج ولا
معتد - ان متابعة روح بن زباج طريق الى الوسيلة لمن اراد من
فوقه ، وان روحاً لم يلبسني العزم الذي به دفعني امير المؤمنين
عن خنوكه ، وقد اصفني بروح بن زباج همه لم يزل نواظراً
تومي في البعيد وتطالع الاعلام . وقد اخذت من امير المؤمنين
نصيحة اقله الشفاق من سخطه والمواظبة على موافقه ، فما بقي
لنا بعد الاصابة امر تجول به النفس ، ونظرف النواظر .

١ مرانياً مداهناً .

٢ بورت الحقد .

٣ أي يصف من قوته .

٤ الدخول في سلك الشرطة .

٥ يريد بعد الوصول الى منصبه .

« ولقد سرت بعين أمير المؤمنين سير التنبط لمن يتلوه ، المتناول
 لمن يقدمه ، غير منيت موجفاً ، ولا متأفلا محجفاً ، فت الطالب
 ولحقت الهارب ، حتى ثارت السنة وبادت البدعة ، وخسب الشيطان
 وحملت الأديان إلى الجادة العظمى ، والطريقة المثلى .

« وأمير المؤمنين ولي المظلوم ، ومعقل الخائف ، وشيخ المحنة
 نبأ آمري ، ولكل نبأ مستقر . وإن أمير المؤمنين لأربع أربعة : أحدهم
 ابنه شبيب النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ رمت بالظن غرض البين
 تفرساً في النجى المصطفى بالرسالة ، فعق لها فيه الرجاء وزالت
 شبهة الشك بالاختبار ، وقبأها العزيز في يوسف ، ثم الصديق في
 الفاروق رحمة الله عليهما ، وأمير المؤمنين في الحجاج . وما حسد
 الشيطان بأ ، أمير المؤمنين ، خاملاً ، ولا شريك بغير شجن .

« ولقد سمعت لأمير المؤمنين في صالح ، صلوات الله عليه ، في
 ثقب ، مقالاً هجم في الرجاء ، لعده ، عليه ، بالحجة في رده بحكم
 التنزيل على لسان ابن عمه خاتم النبيين وسيد المرسلين صلى الله عليه
 وسلم . فقد أخبر عن الله عز وجل بحكاية عز الملائكة من قرش
 عند الاختبار والافتخار ، وقد نفخ الشيطان في مناحيرهم قالوا :
 « لولا نزل هذا القرآن على رجل في القرنين عظيم . » فوقع
 اختصارهم ، عند المباهاة بنفخة الكبر ، كبر الجاهلية ، على الوليد
 ابن المغيرة المخزومي وأبي مسعود الثقفي ، فصارا في الافتخار بهما
 صنوين ، ما أنكر اجتماعهما في الأمة منكر ، في مد صوت القرآن
 ومبلغ الوحي ، وما قدمني ، بأ أمير المؤمنين ، ثقب في الاحتجاج

لها ، وإن لها مقالاً رجباً ومعاندة قديمة . ألا إن هذا أيسر ما
يحتاج به العبدُ المشفق^١ ، على سيده المغضب . والامر الى امير المؤمنين
عزل ام اقر ، وكلاهما عدل متبع وصواب معتدل ، والسلام عليك
يا امير المؤمنين ورحمة الله .

وتابع نبأته كلامه : « فأنيت^٢ على الكتاب بمحضر امير المؤمنين
عبد الملك ، فلما استوعبته سارقه النظر على الغيبة منه ، فصادف
لحظي لحظة^٣ ، فقال :

— إقطعها ! ولا تعلمن بما كان احداً .

فلما مات عبد الملك فشا عني الخبر ... »

هذان الكتابان وانعان في دالتيهما ، فهما وحدهما يكشفان
نوع تلك العلاقة بين الحجاج وعبد الملك ، ويظهران درجة تأنيو
الاول على الثاني ، ويوضحان حاجة كل منهما للآخر ، بحيث ترى
ان لا غنى لهما عن اتفاقهما في حدود الظروف التي كان يجتازها كل
منهما بمفرده .

ولكن قصة الحجاج مع انس بن مالك ، خادم النبي محمد ، اوضح
اشارة الى موقف عبد الملك من الحجاج . وخلاصتها ان هذا شتم
انس بن مالك وبالغ في إيذائه ، فكذب انس الى الخليفة يشكو
الحجاج ويتذمر من معاملته .

روى هذه القصة اسماعيل بن عبدالله بن ابي المهاجر ، قال :
« بعث اليّ عبد الملك بن مروان في ساعة لم يكن يبعث اليّ في
مثلها ، فدخلت عليه ، وهو أشد ما كان غيظاً وحنقاً ، فقال :

— يا اسماعيل ! ما أشد عليّ أن تقول الرعية : « ضعف أمير المؤمنين ،
وضاق ذرعه في رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، لا يقبل
له حنة ، ولا يتجاوز عن سيّته . »
— وما ذلك يا أمير المؤمنين ؟

— أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب
إليّ يذكر أن الحجاج قد أضرّ به وأساء جواره . وقد كتبتُ في
ذلك كتابين : كتاباً إلى أنس بن مالك ، والآخر إلى الحجاج ،
فأقبضهما ثم أخرج عليّ البريد . فإذا وردت العراق فابداً بأنس بن
مالك ، فادفع له كتابي وقل له : « أشد عليّ أمير المؤمنين ما كان
من الحجاج اليك . ولن يأتي أمرٌ نكرهه إن شاء الله . » ثم أنتِ
الحجاج فادفع إليه كتابه وقل له : « قد اغتورتُ بأمير المؤمنين
غرة لا أظن يخطئك نشرها . » ثم أفهم ما ينكلم به وما يكون
منه حتى تفهمي إياه إذا قدمت عليّ أن شاء الله .
« فقبضت الكتابين وخرجت عليّ البريد حتى قدمتُ العراق .
فبدأت بأنس بن مالك في منزله ، فدفعتُ إليه كتابَ أمير المؤمنين ،
وابلغتُ رسالته ، فدعا له وجزاه خيراً . فلما فرغ من قراءة الكتاب
قلت له :

— يا أبا حمزة ، إن الحجاج عامل ، ولو وُضع لك في جامعة
(قيد) لقدِر أن يضرّك وينفعك ، فأنا أريد أن تصالحه .
— ذلك اليك ! لا أخرج عن رأيك .

وجئتُ الحجاج فرحب بي قائلاً :

— والله كنت أحب أن أراك في بلدي هذا .

— وأنا والله قد كنت أحب أن أراك وأقدم عليك بغير ما

أوسلت^١ به إليك .

- وما ذاك ؟

- فأرقت^٢ الخليفة وهو أغضب الناس عليك .

- ولم ؟

فدعوت إليه الكتاب ، فجعل يقرؤه وجيشه يهرق^٣ ، فبيعه
بيمينه . ثم قال :

- اركب بنا إلى أنس بن مالك .

- لا تفعل أغاني سائلطاف به حتى يكون هو الذي يأتيك ،
وذلك الذي اثرت عليه من مصالحته .

أما كتاب عبد الملك فهذا هو : « بسم الله الرحمن الرحيم . من
عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف . أما بعد ، فإنك عبد
طمت بك الأمور ، فطغيت وعلوت فيها حتى جزت قدورك ، وعدوت
طورك . وأبى الله يا ابن المستقرة بعجم ذيب الطائف^٤ ! لأغمرنك
كبعض غمرات اللبوت للتعاليب ، ولأركضنك ركضة تمخل فيها
في وجارك^٥ . اذكر مكاسب آبائك بالطائف إذ كانوا ينقلون
الحجارة على اكناهم ، ويحفرون الآبار في المناهل بأيديهم ، فقد
نسيت ما كنت عليه أنت وآبؤك من الدانة واللؤم والضراعة .
وقد بلغ أمير المؤمنين استظالة منك على أنس بن مالك ، خدام
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جرأة منك على أمير المؤمنين ،

١ المستقرة : المرأة التي تطلب الفرم وهو دواء تضيق به . والمعجم :

نوى كل شيء .

٢ الوجار : مكان الضيق .

وعزّة^١ بعرفة غيرته ونقاهه وسطوانه على من خالف حيله ، وعهد
الى غير محبته ونزل عنه سخطه ، واظن انك اردت ان ترويه
بما لتعلم ما عنده من التغيير والتكبر فيها ، فان شوقها^٢ مصيت
قلدماً ، وان غصصت بها وليت دبراً ، فعليك لعنة الله من عبد
اخفش العيينين ، اصك الرجلين ، بمسوح الجاعرين . واهم الله
لو ان امير المؤمنين علم انك اجتومت منه جرماً ، وانتهكت له
عرضاً ، فيما كتب به الى امير المؤمنين ، لبعث اليك من يسحبك
خبراً لبطن ، حتى ينهي بك الى انس بن مالك ، فيحكم فيك بما
احب ، وان يخفى على امير المؤمنين نبؤك ، ولكن نبأ مستقر .
وسوف نعلمون .

قال اسماعيل : « فانطلقت الى انس ، فلم ازل به حتى انطلق
معي الى الحجاج . فلما دخلنا عليه قال يخاطب انس :
- يغفر الله لك يا ابا حمزة ! عجلت باللائمة واغضبت علينا امير
المؤمنين .

ثم اخذ بيده فأجله معه على السرير ، فقال انس :
- انك تزعم انا الاشرار والله سبحانه الانصار ، وفلت : انا
من اجل الناس . والله يقول فينا : « ... ويؤثرون على انفسهم
ولو كان بهم خصاصة » . وزعمت انا اهل نفاق ، والله تعالى
يقول فينا : « والذين تبوءوا الدار والايمان من هاجر اليهم ، ولا
يجدون في صدورهم حاجة مما اوتوا » . فكان الخروج والمشتكى

١ جهلا .

٢ وجعلتها سائلة : رضيعها .

في ذلك الى الله والى امير المؤمنين ، فتولى من ذلك ما ولاه
الله ، وعرف من حقنا ما جهل ، وحفظ منا ما ضيعت ، وسبغكم
في ذلك ربّ هو ارضى للمرضي وأسخط' للمُسخط' وأفدرك' على
الغير في يوم لا يشوب الحق' عنده الباطل' ، ولا النور' الظلمة ،
ولا الهدى' الضلالة . والله لو ان اليهود والنصارى رأيت من خدم
موسى بن عمران وعيسى بن مريم يوماً واحداً ، لرأت له ما لم
تروا لي في خدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين .
فاعتذر اليه الحجاج وترضاه حتى قبل عذره ورضي عنه ،
وكتب برضاه وقبوله عذره ، ولم يزل الحجاج له معظماً غائباً
حتى مات .

على ان العبرة ليست في الجواب العملي الذي اجاب به الحجاج
على غضب عبد الملك ، اذ لم يكن في طاقته اكثر من ان يدعن
كلما امره الخليفة بشيء ، ولا كان يفكر باكثر من التذلل والاذعان ،
والما العبرة في كتابه لامير المؤمنين جواباً على الرسالة السابقة التي
تنضح بالاهانة السافرة ، والشبهة المؤرقة ، مما لا يطيقه امرؤ
يحترم نفسه ولو كلفه الامر ان يخسر حياته ، بله منصبه او
نقوده .

تأمل هذا الصغار في نفسه : « بسم الله الرحمن الرحيم »
لعبد الله عبد الملك بن مروان . اما بعد ، اصفح الله امير المؤمنين
وأبقاه ، وسهّل حفظه وحاطه ولا اعدمناه ، فان اسماعيل بن ابي
المهاجر ، رسول امير المؤمنين ، قدم عليّ بكتاب امير المؤمنين -
اطال الله بقاءه ، وجعلني من كل مكروه فداه - يذكر شيتي
ونويخي بأبائي وتعبيري بما كان قبل نزول النعمة بي منه عند

امير المؤمنين - أتم الله نعمته عليه وإحسانه اليه - ويذكر
استظالة مني على انس ابن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، وجراحة مني على امير المؤمنين - صلحه الله - في فراشه
من محمد رسول الله إمام الهدى وخاتم الانبياء ، وامير المؤمنين
أحق من أقال عترتي وعفا عن ذنبي وأهلتي ولم يعجلني عند عفوئي
للذي جبل عليه من كريم طبائعه ، وبما قلده الله من أمور عبادته .
فراي امير المؤمنين ، صلحه الله ، في نسكبي ورعني وأفراج كربتي ،
فقد ملئت رعباً وفرقاً من سطوته وفجاعة ثقته . وامير المؤمنين
- أقاله الله العثرات ، ونجاوزله عن السيئات ، وضاعف له الحسنات ،
وأعلى له الدرجات - أحق من ضح وعفا وتغمد وأبقي ، ولم
يشمت في عدو مكباً ، ولا حسوداً مضباً بجرعني غصصاً .
والذي وصف امير المؤمنين من صنيعه اليّ ، وتنويه لي ، بما أسند
اليّ من عمله ، وأوطأني من رقاب رعبه ، فصادق فيه ، بحزبي
بالشكر عليه ، والتوسل مني اليه بالولابة ، والتقرب له بالكفاية .
« وقد غاب اسماعيل بن أبي المهاجر رسول أمير المؤمنين وحامل
كتابه من نزولي عند مسرة انس بن مالك ، وخضوعي عند
كتاب أمير المؤمنين وإقلافي إياي ودخوله بالمصيبة علي ما سبغله
امير المؤمنين وبشبه اليه ، فإن رأي أمير المؤمنين - طوّقتني
الله بشكره ، وأعانني على تأدية حقه ، وجلّغني الى ما فيه مرضاته
وموافقته ، ومدّ لي في أجله - ان يأمر لي بكتاب من رضاه
وسلامة صدره ، ويؤمنني به من سفك دمي ، ويرد ما شرد من

اي حافداً على وجه المجاز .

نومي ، ويطمئن به قلبي ، فعل . فقد ورد عليّ امرٌ شديدٌ خطيئة ،
عظيمٌ امره ، شديدٌ عليّ كربه . أسأل الله ان لا يسخط امير المؤمنين
عليّ ، وان ينيله في حزمه وعزمه وسياسته وفراسته ومواليه
وحشيه وعماله وصانعه ما يحمد به حسن رأيه ، وبعد عمنه ، إنه
وليّ امير المؤمنين ، والذاب عن سلطانه ، والصابغ له في امره
والسلام .

ولم كل هذا التعلق ؟ وعلى م هذا الاغراق في اظهار الذلة
والمسكنة ؟ وفيم هذا الغلو في الجزع والاستنطارة مسن القلق ؟
أصحح ان الحجاج كان كما وصف نفسه حين تلقى تهديدات عبد الملك
وهو الذي تلقى من قبل كثيراً من امثاله ؟

لا اظن انه كان صادفاً في شيء مما اظهر امام الرسول ،
ولا كان صادفاً في حرف مما كتب . وكل ما في الامر انه - وهو
الظهير الحاذق - ادرك العوامل التي كانت تحفز عبد الملك الى
مخاطبته بتلك الالهجة ، كما كان يعرف نفسه ادق المعرفة ، فاستجاب
لما يجب عبد الملك ان يستجيب له من ذلّ وضراعة ومسكنة ،
حتى لتراه في كتابه ساجداً على قدمي عبد الملك يقبلهما ... كان
يعرف ان هذا الاسلوب في الردّ على الخليفة هو الذي يقرّبه من
الخليفة ! ثم لم يكن امير المؤمنين نفسه صادفاً في ما كتب الى
عامله ، وإلا كان من اسهل الامور عليه ان يأمره باعتقال منصبه ،
ما دام لا يحترمه ولا يراه اهلاً للمقام الذي هوّاه إياه . والدليل
على ان الاثنين كانا يتكاذبان ، يؤخذ من النهايات التي كانت تنتهي
اليها رسالتهما . فقد علمت ما حدث في المرة الاولى . وامسا في
الثانية فقد روى اسماعيل بن ابي المهاجر انه لما قرأ امير المؤمنين

كتاب الحجاج نأدى كاتبه وقال : « يا كاتب ! أفرغ روع ابني محمد . » فكتب اليه بالرضا عنه .

والدليل الأكبر على ان عبد الملك لم يكن صادقاً في إغصاب الحجاج يؤخذ من وصيته لأولاده وهو على فراش الموت : « اكرموا الحجاج فإنه الذي وطناً لكم المناير ، ودونخ لكم البلاد ، وأذل الأعداء ... »

ولكن عبد الملك لم يكن لبغفل في الوقت ذاته عن اطماع الرجال ، وما تسول لهم نفوسهم حين يستشعرون القوة ، ويلبسون طاعة الناس . فلم يترك للحجاج طريقاً الى الاستقلال برأيه او التمكن من موقفه ، وإنما كان يجهد ابدأ ودائماً في إذلاله ، فلا يدعه يرفع رأسه امامه ، ولا يفسح له في المجال للتثبت من شخصيته . ولذا نجد ، في معاملته إياه ، هذه الألوان التعريية من التحقير والارراء والتعيير قارئة بأمه ، وقارئة بأجداده ، وطوراً بإخيه البائس ، وطوراً بأفاته الجسية وعبويته النفسية ، مما يترفع عن مثله الملوك ، وتأبى النفوس الكبيرة ان تعرض له .

وكان الحجاج ، بما تم له من عيوب ، وظهر فيه من نقائص ، « أفضل » رجل يعتمد عليه عبد الملك في سياسة البلاد يومئذ ، لأنه جرب غيره من أبناء البيوتات الرفيعة ، وأصحاب المواهب والفضائل الصعبة ، فكانوا حرباً عليه ، وأولهم قريبه وابن عمه عمر بن سعيد الأشدق . وهكذا ... كان الطرف الشاذ الذي ولي فيه عبد الملك خلافة المسلمين ، يحتاج الى رجل شاذ في أخلاقه ، وعقليته ، ونفسيته ، يستعينه في إدارة ملكه ، ويغيد من شدوده .

وجاءت تصرفات الحجاج كلها من ألفها الى بائها ندعم ولاية

عبد الملك من جهة ، ونسى الى الحجاج نفسه من جهة ثانية .
فكان الناس يهرعون الى امير المؤمنين يطلبون العون والصفة ،
حتى اذا انصفهم منه ، وارجع اليهم ما هدروا عاملة من كراماتهم
او حقوقهم ، باه الحجاج بغضب الناس واقمتهم ، وارتفعت الدعوات
الى الله بتأييد امير المؤمنين وإطالة عمره وإدامة عمره .

تأمل ان اول شكوى عليه جاءت من والده اول ما ولي
أمر محاربة ابن الزبير ، اذ جاء يوسف بن الحكم الى عبد الملك
ابن مروان وقال له : يا امير المؤمنين ، ان علامة منا قال في
ابنتي زينب ما لا يزال الرجل يقول مثله في بنت عمه . وان
هذا (يعني ابنه الحجاج) لم يزال يتوقى اليه ويهم به ، وانت
الآن تبعته الى هناك ، وما آمنه عليه . فعدا الخليفة بالحجاج
ونبهه قائلاً : ان محمداً النسيري جاري ، ولا سلطان لك عليه .

هذا هو موقف والده منه في الساعة التي ولي بها . ولكنه
هو الذي اراد ان يتعبد الى الحجاز ، وهو الذي احب ان
يحارب عبد الله بن الزبير ، فلننظر ما يكون من أمره ... لقد
تهالك على الخدمة العامة تهالك الظلماء على الماء ! لننظر كيف
يفهم الخدمة العامة .

٥ - في الحجاز

كانت الحجاز عامة ، والمدينة خاصة ، تنطوي على كراهية شديدة
لدمشق واهل دمشق ، لما أبدى أهلها من تأييد للامويين ، وافدموا

عنه عهد يزيد من تقبلي وتشريد وتحريق في مذبحه الحرثة ١ ،
 التي وصفها المؤرخ الهندي السيد مير علي بقوله : « ... لقد حوّل
 جند الشام المسجد الجامع إلى اسطبل خيولهم ، وهدموا الحرم
 والاماكن المقدسة لسلب ما فيها من اثاث ومتاع . وهكذا ...
 شاء القدر ان تدور الوثبة ولو مرة ضد الاسلام ، تلك الوثبة التي
 كان ثأرها من الاسلام في هذه المرة ، على ما يصفه مؤرخ اوروي ،
 قاسياً مؤثماً ... »

ولكن هذه المذبحة الفظيعة لم تحقق غرضها الابعد ، ولا وصلت
 إلى هدفها المقصود ، اذ كان يراد منها احضار عبدالله بن الزبير ،
 وتاديب الحجازيين ، بعد ان انتهت الحرب الاموي من الحسين
 ابن علي في العراق ، فكان ان هلك مسلم بن عقبة في طريقه إلى
 مكة ، ثم جاء نبا هلاك يزيد ، فشتت جيش الشام ، ومزق شر
 فريق ، اذ كثر عليه الحجازيون ، ولم يقبلوا منه صلحاً ولا مهادنة ،
 وانتقموا منه اقطع الانتقام ، وكتبوا به تسكيلاً لا نظير له .
 واستمرت بلاد الحجاز خاضعة لسلطة عبدالله بن الزبير طيلة

١ « ... ولما انتهى الجيش (جيش يزيد بقيادة مسلم بن عقبة المري) إلى الموضع
 المعروف بالحرقاء خرج إلى حربه أهلها عليهم عبدالله بن مطيع المدوني ، وعبدالله بن حنظلة
 الفيل الانصاري ، وكانت وقعة عظيمة قتل فيها خلق كثير من الناس ، من بني هاشم وسائر
 قريش والانصار وغيرهم من سائر الناس ... وبضع وتسعون رجلاً من سائر قريش ،
 ومنهم من الانصار ، ولربما آلاف من سائر الناس من اندركه الاحصاء دون من لم يعرف .
 « وبيع الناس على انهم عبيد ليزيد ، ومن ابنى ذلك امره مسلم بن عقبة على السيف ...
 ولما نزل بأهل المدينة ما وصفنا من القتل والنهب والرق والسبي وغير ذلك ... مما عنه
 امرنا ، خرج عندها مسلم يريد مكة في جيوشه من أهل الشام ليوقع بابن الزبير . »
 - المدودي ، مروج الذهب ، ج ٣ -

حكم معاوية الثاني ومروان بن الحكم . فلما استتب الامر لعبد الملك في الشام والعراق ولم يبق امامه غير الحجاز خارجة على سلطانه ، تطوع الحجاج - كما رأيت - لاعادة السلطة الاموية عليها ، وقبل عبد الملك تطوعه ، وزوده بالنصائح ، وبيّره على رأس الفري رجل من جند الشام عام ٧٢ للهجرة .

سار الحجاج اذن نحو الحجاز لينهي معركة الحرية الى اهدافها ، تلك المعركة التي اشترك فيها ، وشهد هولها ، وهرب منها قبل سبع سنوات ! ولكنه ، في هذه المرة ، قائد مسؤول ، وكان من قبل جندياً مجهولاً . سار يتمم ما بدأ به مسلم بن عقبة ، ويفعل بمكة ما فعل رئيسه السابق بالمدينة ، لان عبد الله بن الزبير لجأ الى الكعبة ، واحتمى بالبيت الحرام ، اعتقداً منه ان للكعبة حرمة في نفوس الشاميين تمنعهم من اقتحامها ، فأطلق عليه اعدائه لقب « عائد البيت » .

غير ان الحجاج اصبح يزن الامور ويقدرها ، بعد ان مارس الحياة العسكرية ، وخبر شؤونها ، واتصل بأساطينها في ايامه واحضركم احضاراً قريباً ، فلن بخطو خطوة قبل ان يقدر موضعها لرجله ، ولن يجازف بسمعته كقائد ، وهي التي تلوثت كجندي . وكان يعلم اوثق العلم انه اذا اخفق في هذه الحملة على الحجاز ، قضى عليه وعلى مطامحه ، وربما انهار عرش امية ، الذي يعلّق عليه كل آماله ، انهياراً نهائياً . فاذا ابطأت به غفلة ، او قلقة ، ومن ، نزلت عليه لعنات الشاميين انفسهم ، وانتهى الى اسوأ مما انتهى اليه مسلم بن عقبة وجيشه ...

على هذا النحو من الشعور بالخطر ، بدأ الحجاج حياته السياسية .

هذه نقطة هامة جدية بالنسبة ، يجب ان ننشئ الى اثرها العظيم في حيوات الرجل ، كل الرجال . وفيها انها تلقي النور على سلوك الحجاج - وغيره من الاشخاص - ابتداء من اللحظة التي تحرك بها نحو الحجاز غازياً ، حتى اللحظة التي تنفس بها اهل العراق الصعداء فرحاً بهلاكه .

وليس قليلاً في حياة امرئ ان يشعر ابداً ودائماً انه في خطر ، بل ان هذا الشعور الدائم بالخطر يعتبر الى حد بعيد « موعبة » من المواهب الروحية التي تعطي قدر كثير من بني الانسان كالشعراء والموسيقين والمصورين ، وبعض القواد والساسة والفلاسفة ، لان من شأن هذا الشعور ان يرد النفس الى حالة من النشاط لا تعرفها إلا حين تنقش به ، ولا غرو بها إلا في إطاره ، ثم انه يفتح الذهن بشكل عجيب ، ويجعل صاحبه ككلمة من وعي وفكر ، حتى لتتطعم العاطفة في نفسه ، وينبعي اثرها من اعماله ، وينحوت تدريجاً الى ارادة صلبة صماء ينحصر من حولها الوجود وما يحيطنا اليه او يحبنا به ، فلا يجرها إلا ما تحقق به ذاتها ، ولا نهتز إلا لتحقيق ذاتها . وما كان نيتشه لينتهي الى قوله « يجب ان نحيا حياتنا بخطر » إلا لانه وضع مثله الاعلى اولاً - وهو الانسان القوي الجبار الذي يجعل معنى الرحمة ، ولا يابسه إلا للقوة . فانتسب بطبيعة منطقته ، وتسلسل افكاره الى التفاصيل ، والمتاهات التي تقع عليها في حيوات اكثر العنساء الجارية ، والحجاج منهم . واذا انت غفلت النظر في سيرة الحجاج وجدت انه لا يشوبه ، كي يكون بطلاً نبشياً ، إلا تقبده سلطة عبد الملك ، ولولا هذا التقيد لكان « السورمان » الذي يريد نيتشه !

بيد ان سلطة عبد الملك كانت عنصراً هاماً من عناصر الخطر الذي يهدد حياة الحجاج ، فراح يتقيها في ان يجارها ، وان يتلافها ، وان يزيدا قوة واتساعاً ، ليفيد منها هو نفسه عظمة وسلطاناً .

وبهذه الروح محرك نحو الحجاز لاستنقاذها من براثن الزبيريين . وكان عبد الملك قد اوصاه ان يتحلى العنف والشدّة ، جزعاً من ان يذله اللوم ويثنى بخسران شعبيته في نفوس المسلمين على نحو ما اصاب يزيد بعد مجزرة الحرّة ، فقدم الحجاج اولاً ما قدم على الطائف ، مستهدفاً بقدرته هذا عدة اهداف : اولها ان يتظاهر باقتتال اوامر الخليفة ، وثانيها ان يظهر لمواطنيه الذين احتقروا في صباه مدى ما بلغ من عظمة ، وثالثها ان يفيد من اسراخه الجبلية الموقع الجغرافي للطائف وهي القائمة على جبل غزوان ، فلن يكون ابن الزبير في يسر من امره اذا خطر له ان يبادره بالهجوم ، ورابعها ان يستثمر خصب الطائف لتغذية الجند لاسيما وهو قادم على إقامة حصار اكثر مما هو مستهدف فتح معركة ، واخيراً ان ينصره الله اذا دارت الدائرة عليه ، فلن تبلغ بهم الدماء ان يخللوه في بلادهم عندما يصبح ويأثم في قبضة العدو ، مهما كانت رأبهم فيه ، وحسبهم له .

وبعد وصوله بأيام قليلة ، بدأت المناوشات بين الحيّالة : الحجاج يرسل من جانيه بعض الفرسان في غارة ، وابن الزبير يرد على الغارة بمثلاً ، ولكن غارة الحجاج تنتهي بالظفر ، وتعود تلك بالهزيمة ، مما شدّ عزيمته صاحبنا وحمله على استغلال الواقع الذي يلته ، فكتب الى عبد الملك : « ... إنك متى تدع الزبير وتكف عنه ، ولا

فأمر برجه ومضاعفته بكثير عدده وعدده وسلاحه . . . وهكذا . . .
استنزل عبد الملك عن رأيه ، ووسوس له ، واستصدر أمراً بالزحف
على مكة . فما كادت الموافقة تبلغه حتى تقدم بالجيش واحتل
جبل أبي فريس ، على مرمى حجر من مكة ، دون خسارة تذكر .
ولما ورد كتابه على عبد الملك بحصار ابن الزبير في مكة ، والظفر
بأبي فريس ، كتب عبد الملك ، فكثير من في داره ، واتصل التكبير
بمن في جامع دمشق فصبروا ، واتصل ذلك بأهل الأسواق ، ثم
سألوا عن الخبر ، فقبل لهم : إن الحجاج حاصر ابن الزبير بمكة ،
وظفر بأبي فريس ، فقالوا : لا نرضى حتى يحملة اليها مكبلاً ، على
رأسه برنس ، على جبل يمر بنا في الأسواق . . .

وهناك ، على قمة أبي فريس ، نصب الحجاج المجانيق وراح
يقصف بلد النبي قصفاً عنيفاً متواصلاً . فتهدم جاب من الصخرة
اضطرب معه المكثبون اضطراباً عظيماً ، وسرى الدعر إلى جيش
الحجاج نفسه .

هناك ما يقوله شاهد عيان حضر الواقعة ، نقلاً عن الطبري :
« . . . رأيت منجنيق أهل الشام يرمي به ، فرعدت السماء ورفرت ،
وعلا صوت الرعد على صوت المنجنيق ، فاعظم أهل الشام ما
سمعوه ، فامسكوا أيديهم ، ورفع الحجاج يركته قبائمه فغرزها
في منطقته ، ورفع حجر المنجنيق فوضعه فيه ، ثم صاح : ارموا ،
ورمى معهم . ثم أصبحوا فجاءت صاعقة يتبعها أخرى ، فقتلت من
أصحاب الحجاج اثني عشر رجلاً ، فانكر أهل الشام ، فقال

الحجاج : يا اهل الشام ! لا تكبروا هذا فاني ابن نمامه ، وهذه صوائقي نمامة . هذا الفتح قد حضر وبشروا فان القوم يصيبهم مثل ما اصابكم ، فصعقت من القدر ، فاصيب من اصحاب ابن الزبير عدة ما اصاب الحجاج ، فقال الحجاج : ألا ترون انهم يصابون وانتم على الطاعة ، وهم على خلاف الطاعة .

هكذا كان يدبر اول معركة خاضها . هذا هو السبب في توجيه جنوده ورفع معنوياتهم . واستغرق حصاره لمكة منذ دخل الطائف غزاية اشهر ، نفذ فيها زاد المكين وعسر عليهميجاد ما يأكلونه ، حتى اضطروا الى اكل الكلاب والهررة ، وطلقوا ينسللون مشى وفرادى الى خارج الحصار يطلبون الامان ، وكان في عداد المسلمين ابنا عبدالله ابن الزبير : حمزة وخبيب اللذان انصلا بالحجاج وامنها .

ومنذ اشتد الامر على عبدالله ، ولم يجد مخرجاً ، دخل على امه في المسجد الحرام حيث قاوم حسين ليلة ، فدار بينهما الحوار التالي . قال عبدالله :

— يا امه ! خذاني الناس حتى ولدي واهلي ، ولم يبق معي الا اليسير ، ومن ليس عنده اكثر من صبر ساعة . والقوم يعطونني ما اردت من الدنيا ، فما رأيك ؟

— انت أعلم بنفسك ، ان كنت تعلم انك على حق ، واليه ندعو ، فامض له فقد قتل عليه اصحابك ، وان كنت انما اردت الدنيا فبئس العبد انت ، اهلك نفسك واهلكت من قتل معك ، وان

قلت : قد سكنت على حق ، فلما رعن اصحابي وعنت وضعت ،
فنبس هذا فعل الاحرار ولا اهل الدين . كم خلودك في الدنيا ؟
القل احسن !

— اخاف ، يا امام ، ان قتلي اهل الشام ان يمتوا بي ويصلبوني !
— يا بني ، ان الشاة لا تألم من السليخ بعد الذبح ، فامض على
بصيرتك واسمعن بالله .

ودنا منها فقبل رأسها ، ثم قال :

— هذا رأيي الذي خرجت به دالسا الى يومي هذا ، ما
ركنت الى الدنيا ، ولا احببت الحياة فيها . وما دعائي الى
الخروج الا الغضب لله وان تستحل حرمانه . ولكي احببت ان
اعلم رأيك فقد زدني بصيرة . فانظري يا امام ! اني مقتولة من
يومي هذا ! فلا يشد حزنك وسلمي الامر الى الله ، فان ابك
لم ينعمد ايشار منك ، ولا عملا بفاحشة . ولم يجز في حكم الله .
ولم ينعمد ظلم مسلم او معاهد . ولم يبلغني ظلم من عمالي فرضيت
به ، بل انكرته . ولم يكن شيء عندي آثر من رضا ربي . اللهم
لا اقول هذا تركيبة نفسي ، ولكي اقول نغزة لامي حتى
تسلو عني .

— اسي لأرجو ، يا بني ، ان يكون عزائي فيك جميلا ، وان
تقدمني احسنك ، وان ظفرت سرورت بظمرك . اخرج حتى
انظر ما يصير امرك .

— جراك الله خيرا ! فلا ندعي الدعاء لي .

— لا ادعه لك ابدا ، فمن قتل على باطل ، فقد قُلت على
حق ... اللهم ان عبد الله بن الزبير كان معظما لحرمنك ، وقد

جاهد فيك أعدائك ، وبذل مهجسة نفسه رجاء ثوابك ، فلا تخيبه
ولا تحسه ، بل أظهره وانصره ! اللهم ارحم طول ذلك القيام في
الليل الطويل ، وذلك النصب والطأ في عواجر مكة والمدينة .
وبره بوالده وبني ! اللهم قد سلمته لامرك فيه ، ورضيت بما قضيت ،
فأثني ثواب الصابرين الشاكرين .

والحنى عبد الله على يديها يقبلها ، فقالت :

- هذا وداع ، ولا بعد .

- جئت ، يا أماء ، مودعاً . ارى آخر أيامي من الدنيا .

- امض على بصيرتك واذن مني حتى اودعك .

ودنا منها فعانقها وفتتها ، فوفعت يدها على الدرع ، فقالت :

- ما هذا صنيع من يريد ما تريد .

- ما ليسه الا لاشد منك .

- إلهس ثيابك مشيرة ، فإن الدرع لا يشد مني .

عكس رأسه وصمت قليلاً ، فقالت :

- يا بني ! لا تقبل منهم خطئة تخاف فيها على نفسك الذل .

فوالله اضربة سيف في غر حيرة من خربة سوط في مدلة .

فخرج من حضرته ، وعارب من حارب ، وقتل من قتل ،

ورجع إلى البيت وهو يلشد :

ولست بمبتاع الحياة بسبة ولا مراق من خشية الموت سلماً

وما ان رآه محاصروه من جند الشام حتى شدوا عليه وتكاثروا

من كل باب : اهل حمص في الباب الذي يواجه باب الصعبة ،

واهل دمشق في باب بني شبة ، واهل الاردن في باب الصفاء ،

واهل فلسطين في باب بني جمع ، واهل فمسرين في باب بني سهم ،

وكان الحجاج وطارق بن عمرو - وهو الذي ولي المدينة فيما بعد - في ناحية الأبطح الى المروة .

كان ذلك يوم الثلاثاء اول الصبح في اليوم السابع عشر من جمادى الاولى عام ٧٣ هـ . ووقف عبدالله وصاح بأهله : « اخلوا على بركة الله ! » وحمل حتى بلغ بهم الى الحجون ، فرمى بحجر اصاب وجهه ، فغضب من بعده بالدم ، ثم هوى الى الارض ، فصاحت مولاه له : « والامير المؤمنين ! » وكانت تحبلة بمسوسة ، فعلم القوم ان عبدالله اصيب الاصابة المميتة .

وطبر بعض الجنود الخبر للحجاج ، فسجد حين تلقاه ، وسار هو وطارق فوففا عليه ، قال طارق :
- ما ولدت النساء اذكر من هذا .

فامنع الحجاج قائلاً :

- أغدح من يخالف طاعة امير المؤمنين ؟!

- لولا عدا ما كان لنا عذر اننا محاصروه وهو في غدير خندق ولا منعة منذ غابة اشهر ، ينتصف منا ، بل يفضل علينا في كل ما التقينا نحن وهو .

وبلغ ذلك عبد الملك فقال : « الصواب ما قال طارق » . ثم بعث الحجاج برأس طارق ورأس عبدالله بن صفوان ورأس عمارة ابن عمرو بن حزم الى المدينة فنصبت فيها ثلاثة ايام ، وارسلت من ثم الى دمشق .

وكان رد دمشق على هذه الغدايا الثلاث تنصيب الحجاج والياً على مكة ، وطارق على المدينة . ثم لم يكتف الحجاج بانتصاره ، فصلب جثان عبدالله بن الزبير ، وخلاه مطلوباً مدة من الزمن ،

فجاءته امرأة - وكانت امرأة عجوزاً طويلة مكفوفة البصر
تقودها جارية - وقالت له :

- أما الآن لهذا الفارس ان يترجل ؟

فميس الحجاج ، واجابها بخشونة وعصبية ظاهرة :

- من ؟ المنافق ؟

- والله ما كان منافقاً ! ولكنه كان صوتاً فوآمياً برآ .

- إنصري فانك عجوز قد خرفت .

- لا والله ما خرفت ! أشهد اني سمعت رسول الله (هي ابنة

ابي بكر الصديق) يقول : « يخرج من ثقيف كذاب ومبير » .

اما الكذاب فقد رأيناه (يعني المختار) ، وأما المبير فأنت .

وانصرفت العجوز التاكل خائبة ، وظلت ابنها مصلوباً الى ان

كلم عروة بن الزبير (شقيق عبد الله) عبد الملك في شأن دفنه ،

فأنزل عن الحُشة ودهن .

كان هذا الحدث - وقد تناقله الجارئون وشيعوه في كل قطر

وقاد - اول ما دشن به الحجاج عهد ولايته في مكة .

أمعن النظر فيه نجد ان الوالي الجديد كان في غنى عن صلب

خصمه بعد ان ظفر به واحتر رأسه ، ونحوّل الى جبقة ، وكان في

انتصاره كفاية عن التنكيل . وما كان ليعتب احداً عليه فيها لو

رقّ لتلك العجوز المسكينة المقجوعة ، واجابها لما طلبت ، وهي لم

تطلب شيئاً يدعوه الى تأنيبها وتبكيها على نحو ما فعل ! بيد ان

في فرارة هذا الرجل ضرباً عجيباً من « الحقد » دائم الاضطرام ،

دائم التوهم ، دائم النحر ، لا يراوي ولا يبدأ ولا يتطامن إلا
بحركة مؤذبة مقدعة مرّة ، حتى لتحسب انه يحمل في صميم وجوده
بركاناً من الشر يتمل في سلسلة تفجرات عميقة تجرحه باستمرار ،
وتنذف الاسماء باستمرار ، لا تفتقر طرفة عين ، ولا يفتقر معها
عن الاذى طرفة عين ، وهو من هذا الغليان الداخلي في شغل
شاغل عن العالم الخارجي ، وما يدور فيه من آلام ونزوات
واحزان ... او هو حجر مشعل بنا يتأكل كيانه ، لام حمار
بنا كل غيره .

اما سر هذا النحر المدعش امام العذاب الانساني ، فلا احسب
اننا قادرون على تبينه ، ولا اظن ان له مثيلاً في تاريخ الرجال
وسيرهم ! أليكون احتقار الناس بلاء هو الذي اذكى في نفسه
هذا الخقد حتى على الحيفة ؟ أم تكون الآلام التي عاينها في صغره
هي التي ردت به الى فسوة لا نظير لها ؟ أم ان شدة كونه
الجمعي أدت الى ذلك الانحراف العاطفي عنده ؟ أم هي وراثته
التي تجذبه الى شعور همجي قديم موغل في أبعاد القدم ؟ ثم ما
هي هذه الحمية التي تلبس انساناً يصعقك بتفكيره حين يفكر ،
ويضعك بحجته حين يناقش ، ويأخذك ببيانته حين يتكلم ؟

نحن هنا نجاه ظاهرة لا نعلم لها على تفسير ! لقد بدأنا نحتك
بالذات « الحجاجية » . واغرب ما في الحجاج هو تلك « الذاتية »
الصاخبة العنيفة المليئة بالفكر وحسن التفهم للواقع والقدرة على
الايداء ، الى هدوها حيال ما تجترم من مقايح واساءات .
اسمع الآن خطابه في مسجد مكة في اليوم الذي قتل به
ابن الزبير ، اذ اجتمع الناس والجنود ذاهلين مشدوهين ، وصعد

المثير مثلاً ، فحط اللثام عنه وقال :

« مرج' ليل التطم ، وانجلي بضوء صبحه !
 « يا اهل الحجاز ! كيف رأيتموني ؟ ألم اكشف ظلمة الجور ،
 وطمخية الباطل بنور الحق ؟ والله لقد وطئكم الحجاج وطأة
 مشفق ، وعطفه رحم ، ووصل قرابة ، فاياكم ان تزلوا عن سق'
 اقدناكم عليه ، فاقطع عنكم ما وصلته لكم بلصارم النار ، واقم
 من اودكم^١ ما يقيم المنقف^٢ من اود القنافة بالنار . »
 ثم نزل وهو يقول :

آخر الحرب ان عطت به الحرب عضبا

وان شمرت عن ساقه الحرب شترا

في اليوم الثاني ، رفع جثمان عبد الله على الصليب ، فارنجحت
 مكة بالبكاء ، فصعد المنبر وقال :

« ألا ان ابن الزبير كان من احبار هذه الامة ، حتى رغب
 في الخلافة ونارح فيها ، وخلع طاعة الله ، واستكن بحرم الله .
 ولو كان شيئا مانعاً للعصاة لمنع آدم حرمة الجنة ، لان الله تعالى
 خلقه بيده ، واسجد له ملائكته ، واباحه الجنة ، فلما عصاه اخرجته
 منها بخيليته ، وآدم على الله اكرم من ابن الزبير ، والجنة اعظم
 من الكعبة . »

لا يعني اثر هذا المنطق في نفوس الذين سمعوه ، واكبر الظن

١ خلفه .

٢ طربق .

٣ اعوجاج .

٤ مقوم الزجاج .

انه كان قوياً بالغاً ، وانما المهم هو ان نعرف صدق الحجاج من كذبه في هذه المواقف . أصبح انه حارب ابن الزبير - وهو يعترف انه كان من أصحاب هذه الأمة - لانه خلع طاعة امير المؤمنين ؟ ذاك ما أشك فيه ، وإلا فما الداعي الى صلبه والتسبيل به ؟ ثم لم كان يعبر عنه به المنافق ، كلما عرض الناس لذكره ؟ الحقيقة ان الحجاج كان يجهد في تحقيق شيء واحد : ان يحترمه الخليفة ويشق به لبسكن من السلطان ، ويدفع عن نفسه الاحطار التي تحقد بها من شائبه ومخترية والساخرين منه !

وعذا ما فطن اليه الحسن البصري - وهو من ادمغة ذلك العصر - يوم قال عنه : ه ألا تعجبون من هذا الفاجر : يرقى عنبات المنبر ، فيسكنكم بكلام الانبياء ، وينزل فيفتك فتك الجبارين ، يوافق الله في قوله ، ويخالفه في فعله ؟

وهنا ... لا بد من الوقوف عند هذه الظاهرة الغامضة من سيرة الحجاج ، لان احداً من مؤرخيه لم ينهض لها ، ومنهم من لم يشر اليها في قليل او كثير . والحجاج نفسه كان يحرص اشد الحرص على اشتهار صيته بالصدق خاصة ، ولم يبال ان ينهه الناس بالظلم والقسوة والغلبة وما شاكل هذه الاوصاف واتصل بها او تفرغ عنها ، ولكنه كان يغضب الغضب كله حين يرميه خصامه بالكذب او النفاق .

والواقع انه كان ، على الرغم من هذا كله ، عبقريه نفاقية من الطراز الاول ! ونفاقه يظهر في جملة سيرته ويختفي وراء تفاصيلها . وهذا هو جانب العبقريه من نفاقه ، بل انه يبلغ من اتقان الكذب درجة ضاع بها عن نفسه ، فكان 'نجيتل' اليه انه يعمل ما يعمل

بوحى من مبادئ يؤمن بها ، وما كان يؤمن بشيء مما آمن به معاصروه ، وجاعلوا في سبيله ، وضحقوا من اجله .

تأمل انه وخطب مرة فذكر الدين يزورون قصر رسول الله صلى الله عليه وآله بالمدينة فقال : ليتكم ! انما يطولون بأعواد ورمه نالبة ! هلا خطافوا بقصر امير المؤمنين عبد الملك ! ألا يعلمون ان خليفة امره خير من رسوله ؟^١

وسمع احد الحاضرين هذا الخطاب فقال له : والله علي ان لا أصلي خلفك ابداً . ولئن رأيت قوماً يجاهدونك لأقاتلنك معهم .^٢ فقال في دبر الجماعه حتى 'فعل' .

وانه لما يدعو الى التعجب حقاً ان تكون عقيدة الحجاج بالنبي على هذا النحو من التضعع ، ثم ينخذ من نفسه حامياً للشرعية التي جاء بها النبي ، ويقتل الناس ، ويفتك بالآلاف استناداً لتلك الوسالة ، فأي تفاق يعملو على هذا النفاق او يسبقه ؟^٣

ولست هذي هي الخطبة الوحيدة التي تظهر كفره بالنبي . فقد خطب مرة وهو في طريقه الى الحج بعد ان استخلف على العراقيين ابنه محمد فقال : يا اهل العراق ، اني قد استعملت عليكم محمداً وبه الرغبة عنكم . أما انكم لا تستأهلونه ، وقد اوصيته فيكم خلاف وصية رسول الله بالانصار ، فانه اوصى ان يقبل من محسنهم ، ويتجاوز عن مسيئتهم ، وقد اوصيته ان لا يقبل من محسنكم ، ولا يتجاوز عن مسيئكم !^٤

ومرد هذا النفاق الاجمالي في سلوك الحجاج انه لم يكن

١ شرح النهج لابن ابي الحديد ، ج ٣ ، ص ٤٧ .

٢ مروج الذهب للمسعودي ، ج ٢ ، ص ٨٧ .

ينطوي إلا على عاطفة سلبية هي جوهر كيانه الشخصي ، وينبوع تصرفاته جمعاء ، ان في الحياة الشخصية وان في الحياة العامة ، ألا وهي الكراهية .

كان يكره الاسلام كدين ، ويكره صاحب الرسالة الاسلامية ، ويكره انصار النبي محمد من العرب ، ويكره الفاشيين ، ويكره كل ذي نعمة ، جمالا كانت او ثروة او جاعاً . وهو لم يؤيد الامويين عامة ، والمروانيين خاصة ، حباً بهم او إعجاباً بترايهم وفضائلهم ، لا ... وانما هي كراهيته للروح الدينية الجديدة التي حملته على السير في اتجاههم ، ودفعته دفعاً في تيارهم السياسي والفكري . واليك هذا الحوار بينه وبين عبد الملك . قال هذا :

- إنه ليس من احد إلا وهو يعرف عيب نفسه ، فصف لي عيوبك .

- أعطني يا امير المؤمنين !

- لست افعل .

- انا الجورج لندود حقود حسود .

- ما في إبليس شر من هذا .^١

وبلغ هذا الكلام خالد بن صفوان فقال : « لقد انتعل الشر بمخادفه » .^٢

هذه الرواية وحدها ، التي تروى جميع المصادر ، تدل على ان الخجاج كان يدرك ما فيه من عيوب . بيد انه لم يكن يدرك ان

١ المقصد العربي ، « كتاب الباقوة في العلم والادب » .

٢ اعالي القلبي .

« النفاق » الذي يتحاشى ان يوصم به ليس إلا « محصاة » هذه الامراض النفسية التي شتتها في نفسه . ومن المعلوم ان يكون الحجاج قد نشر في الناس عامداً منعماً حكاية صدقه وإخلاصه ، تقادياً لرد الفعل في نفس امير المؤمنين حين يرجف المرجفون بتلونه وريائه وكذبه ، فكان يصارح اعداءه واحداً على السواء بأرائه فيهم ، حتى اشتهر بالصراحة ، والصراحة اللفظة على الاغلب ، بما القى في روع عبد الملك ان عامله محاصراً لا يداعنه ولا يتلفه .

ولكن الدقة في نفاق الحجاج هي موقفه من نفسه ، فقد كان يخادعها في اقوى مظهر عرف به ، اعني إخلاصه لعبد الملك . والحاكم الذي يألف الحكم ويصر على الاستمرار فيه رغم تقلب الاحداث وتغير الايام ، ينتهي حتماً الى النفاق مع نفسه وتاريخه ، اذ يضطر الى مراعاة الظروف ، ومسايرة الاحوال ، والتنازل عن باطل كان يراه امراً حقاً ، او الرجوع الى حق كان يراه باطلاً ، دون ان يستهدف مثلاً اعلى ، او يستوحى فكرة يؤمن بها . فبذلك الاعلى ان يظل حاكماً ، وفكرته الاولى والاخيرة ان يعيش في رغد ورفاهية .

وتلك هي رواية الحجاج الحقة ، فان جملة ما لدينا من اخباره ، بعد ان احتل مكة وعين والياً عليها ، يفيد بوضوح لا لبس فيه انه اراد شفاء احقاد ، والتثبت من ايمينه الشخصية كالنساء اكثر مما حاول توطيد خلافة امير المؤمنين عبد الملك . ومثامت المصادفات ان تنسجم هاتان الناحيتان في سلوكه اتم انسجام واروعه . ولم يكن يناح لنا ان نفرق بينهما او ان نغير احدهما

عن الاخرى لو لم ينقل اليها المؤرخون الاوامر التي كان الخليفة يصدرها اليه في كثير من المواقف التي تعارض بها مصلحة الخلافة ونفسه الحجاج .

خذ مثلاً على ذلك الحادثة التالية : « كتب محمد بن الحنفية الى عبد الملك : ان الحجاج قدّم بلدنا (مكة) ، وقد خفّته ، فأحب ان لا تجعل له عليّ سلطاناً بيد ولا لسان . فكتب عبد الملك الى الحجاج : ان محمد بن عليّ كتب اليّ يستعفيني منك ، وقد اخرجت يدك عنه ، فلم اجعل لك عليه سلطاناً بيد ولا لسان ، فلا تعرض له . واقبه الحجاج مرة في الطواف فعضّ على شفتيه ثم قال : لم ياذن لي فيك امير المؤمنين . فقال له محمد : ويحك ! أما علمت ان لله تبارك وتعالى في كل يوم وليلة ثلاثاً وستين لحظة ، لعله ان ينظر اليّ منها بلحظة ، فيرحمني ، ولا يجعل لك عليّ سلطاناً بيد ولا لسان ! »

وكتب اليه عبد الملك في رسالة ثانية : « ... جنّني دماء آل ابي طالب ، فاني رأيت الموت استوحش من آل حرب (بني امية) حين سفكوا دماءهم . » فما كانت هلمه الوصية لتبرج بال الحجاج كلها لقي طالباً .

واذا كان لعبد الملك ان يحول بينه وبين ما يشتهي من التشكيل بالهاشميين ، فليس له ان يمنع من ادواء غليله عن طريق آخر ، كان يشكل بحزب عبدالله بن الزبير وغيره من الاحزاب ، ايضاً

١ الحنفية امه ، وابوه الامام علي بن ابي طالب .

٢ السعدي ، مروج الذهب ، ج ٣ .

كان الأسلوب ، وأية كانت الوسيلة . المهم ان يؤذي وانت يسيء .
وان يخرج .

نحن نعلم انه دخل مكة فأنحأ وهو في الثانية والثلاثين من
سليه ، وكان الى يومه ذاك عزيزاً ، ففكر ، اول ما فكر ، بعد ان
حقق حظه في الولاية ان يتزوج . وذهب به الظن أو الغرور الى ان
امراة لن نجسر على رفض يده اذا مدّها خاطباً . فتقدم من زوجة بنت
منظور الفزارية يعرض عليها نفسه . وكانت هذه امراة عبدالله بن
الزبير الذي صلبه بالامس ، ولها منه ولد اسمه هاشم تصبى به .
فلما تم اليها الخبر قلعت ثيابها وقالت : « ماذا يريد الى ذلفاء
ثكلى حرتي ؟ » ثم ردت رسوله مزوداً بهذه الابيات :

أبعد عائذ بيت الله نخطبني جهلاً جهلت ، ورغب الجبل مذموم
فاذهب اليك فاني غير ناكحة بعد ابن السماء ما استن الدياميم
من يجعل العير مصفراً جفافه مثل الجواد ، وفضل الله مقسوم ؟
وكانت الصدمة ، أو الصفة ، غنيفة ما دت لها اعصاب الحجاج
اول الامر ، حتى اذا هدأ ادرك ان ولايته على مكة لم ترفع من
قيسته في نظر غيره . وجاءت هذه الحادثة تريد في حقله ، ونوفد
النار في صدره ، وتحقره في عين نفسه . فراح يعمل خطبة على
زحزحة طارق عن المدينة ، ويتوالف لعبد الملك ما شاء له التوالف ،
الى ان صدرت الاوامر بعزل طارق وإيلائه المدينة ، ثم الحجاز
بكامله ، ثم اليمن والحامه .

١ . تقول : انا لا استبدل رجلاً حضرياً بأعرابي عايش ايامه في الصحراء ، وانا لا
استبدل بهذا الجواد الكريم حماراً أصفر النعامة .

ولم تكن سيرته في المدينة افضل منها في مكة ، فقد صرف
مته فيها الى ابداء الانصار واذلائهم ، والبطش بكل من يشبه
فيه السخط على الحكم الاموي ، كما انما اراد ان يقتل لطلحة من
الذين حاصروها عهد النبي وارغوها على الاسلام واعتناق
الاسلام ، فكان يستخف باهل المدينة ، ويقسو عليهم قسوة يجد لها
مبرراً في مخاطبتهم ، انتم قتلة امير المؤمنين عثمان . وشدة ما
كانت تظهر قسوته في معاملة اصحاب رسول الله خاصة ، اذ راح
يختم على ايديهم باحصاء ليكيدهم ويذلهم على نحو ما كانت
الفاتحون يعاملون الاجانب ويحقرونهم ، مما اغضب السكان وتفرم
وابقظ فيهم روح النكمة والتمرد .

واطرف ما تجدد في سيرة الحجاج خلال ولايته على الجزيرة
العربية ، ذلك « النبوغ » في ابتكار وسائل التحقير والاهانة .
ولا عراية فيه البغض اقوى احواء النفس على الاختراع ، كما يعبر
فوفينارغ . والحجاج اتقن فن البغض ، ومارسه وعاشه ، فلن نجد
له فيه مثيلاً ، سواء عند الاقدمين او المحدثين .

اليك هذه الطريقة في مكافأة رجل شهد معه مشاهدتها كلها ،
وشهد معه تحريق البيت ، وكان من انصاره الاصفياء ، يقال له
عبد الله بن هاني ، وهو رجل من اود (حي من اليمن) ، شريف
في قومه ، منظور في عشيرته .

اراد الحجاج ان يكافئه ، فارسل الى اسماء بن خارجة (وكان
من فزارة ، اي من قبيلة زجة التي رفضت يد الحجاج في مكة)
فجاءه . قال له :

- زوج عبد الله بن هاني ابنتك .

- لا ... ولا كرامة !

فصاح الحجاج بأعلى صوته :

- يا غلام ، هاتِ السِّياط !

فارتجف ابن خارجة وقال :

- دعني يا امير . انا ازوجه .

ثم بعث الحجاج الى سعيد بن قيس الهمداني ، رئيس اليمامة
(والحمدانيون معروفون بولايتهم الشديدة لعلي ابن ابي طالب) ،
فقال له :

- زوج عبدالله بن هانيء ابنتك .

- ومن أود ؟ .. والله لا ازوجه ولا كرامة .

فصاح الحجاج :

- هاتوا السيف !

فقال إنقاذاً لعنته في تلك اللحظة :

- دعني اشاور اهلي .

وما ان شاور امرأته واهله حتى فر رأيهم على الاذعنان لما
يريده الامير ، فآثلين :

- زوجة ! لا يقتلك هذا الفاسق !

وعندما تم الزواجان ، وقف الحجاج يفاخر صديقه بسطوته قائلاً :

- يا عبدالله ! لقد زوجتك بنت سيد فراوة ، وابنة سيد همدان

وعظيم كهلان ، وما أودُ هنالك ؟

فأجابه هذا بما يرفع به الحيف الذي لحقه قائلاً :

- لا تقتل - اطلع الله الامير ! - ذلك ، فان لنا مناقب ما هي
لاحد من العرب !

- وما هذه المناقب ؟

- ما نسب امير المؤمنين عثمان في ناد انا فقط .

- هذه والله منقبة .

- وشهدت منا صفين مع امير المؤمنين معاوية سبعون رجلاً ،

وما شهدت مع ابي تراب (الامام علي) منا إلا رجل واحد كان ،
والله ، ما تحمله امرأ سوء .

- هذه والله منقبة !

- وما منا احد تزوج امرأة تحت ابي تراب ولا نولاه .

- هذه والله منقبة .

- وما منا امرأة الا نذرت ان قتل الحسين ان تتحر عتر

جزائر لها ، ففعلت .

- وهذه والله منقبة .

- وما منا رجل علم من ابيه شتم ابي تراب ولعنه الا فعل ...

وازيدكم ابني الحسن والحسين وامها .

- وهذه والله منقبة .

- وما احد من العرب له من الملاحاة والصباحة ما لنا .

وهنا ، ضحك الحجاج لان مخاطبه كان ذمياً بجدوراً ، فيسبح

الوجه ، احول ، مائل الحولة . فلوى عنه وجهه وهو يضحك وقال :

« اما هذه فدعها ... »

هذا مثل من اساليبه في ارهاق الحجازيين واعنائهم ، وكلها

يصدر فيها ، كما رأيت ، عن كراهية ، عن حقد ، عن نيسة غير

واعية في الانتقام من مؤسسي الحركة الاسلامية ومناصريها ومؤيديها
والجاذبين في الايمان بها ونشرها .

اما العمل العمراني الوحيد الذي قام به في اثناء ولايته على الحجاز
فهو تعمير الكعبة التي دمرها بيده . وما كان ليعمرها الا امتثالاً
لاوامر الخليفة ، وسيراً مع التيار العام الذي لم يكن في استطاعته
ان يصدّه بحال من الاحوال .

ذلك ان الروح الوثنية اصيلة في الحجاج ، وجوته الذي عاش
فيه كان من طبيعته ان يحطم كل وثني ، فنشأ ذلك الصراع الهائل
المدعش الرائع بينه وبين معاصريه . وليست حياة الحجاج الا قصة
من قصص النزاع بين الوثنية الممجوجة والايمان السافر . وما
الحجاج ، بعد كل حساب ، غير وثني اكبره طويحه على اصطناع
الايمان .

مع الحجاج

١ - فتن وثورات

ساعت سيرة الحجاج في الحجاز فسات سمعته ، وتراحت الشكاوى الى عبد الملك منوالية جادة ، تنفض له من فسوته وغلاظته الاحبار المقلقة ، وتجمعه منه امام طائفة حبيّار ، فاخلد يفكر في عزله ، ولكنه كان يجد نفسه ، كلما فكر في عزله ، حيال احداث جسام لا يقوى على دفع خطرهما غير امريه عات لا يهيه من الدنيا غير منصبه ، ولا يصدّه عن البطش لوم ، ولا تأخذه بالعصاة شفقة ، فيعود عن تفكيره ليفيد من الحجاج ... هكذا كانت الظروف تخدم حبيّار ثقيف ، وهكذا كان حبيّار ثقيف يخدم الخليفة .

وكان العراق خاصة مسرح فلافل واضطرابات منصلة ، لم يبدأ ولم يستقر منذ قتل عثمان واستخلف الامام علي ونشأ الحوارج الذين اصرروا على عدم الاعتراف بشرعية السلطة الاموية ، فراحوا يهاضمونها ، ويهاضمون معها كل سلطة ... فلما ولي عبد الملك حارب مصعب بن الزبير عامل اخيه عبدالله على العراق ، فدحره وبايعه اهل الكوفة ، واستعمل خالد بن عبدالله على البصرة ، واخاه بشراً على الكوفة ، كما انفذ الحجاج الى الحجاز ، ورجع الى دمشق .

وفي عام ٧٥ للهجرة ، نظم الخوارج صفوفهم واشتدوا في
مقارعة العمال الامويين وعدوا العراق واوتكوا ان يتغلبوا .
كان بشر حاكم الكوفة قد وجه اليهم القائد البصري المهلب بن
ابي صفرة نزولاً على رغبة اخيه الخليفة ، لا ثقة منه به ، اذ كان
يريد تسليم القيادة لغيره ، فلم يرسل معه جيشاً قوياً . ووجه
عبد الرحمن بن مخنف في جند الكوفة بعد ان زوده بكل ما
يحتاج اليه من عدة وعناد . فلما كاد الجيشان ييران للقاء الخوارج
حتى نعى الناعي بشراً . فترك جنود الكوفة معسكراتهم وحملوا
المؤن والاسلحة الى بيوتهم . فلم يبق امام الخوارج غير المهلب في
جيشه الهزيل . فكتب هذا الى عبد الملك ، وقد اضطرب جنده
وتأمروا على الانسحاب افتداءً بجند الكوفة : « ... إما ان تبعث
لي رجالاً ، او فأفتح طريق البصرة للعدو ... »

في هذه الفترة العصية ، كان الحجاج في دمشق ، جاء من
المدينة ليعزي عبد الملك باخيه بشر ، فجمع الخليفة اعوانه واصفياءه
يسألهم في امر العراق والبلاء الذي يكابده من اهله ، وكان ما
ذكرناه من اختيار الحجاج الذي تطوع لتأديب العرافيين .
غير ان الحجاج لم يقدم على هذه المغامرة التي تخامها اقطاب
الادارة والسياسة في عصره إلا لان الحجازيين يرموا به ، واعرضوا
عنه ، وابدوا له جانب المقت والازدراء ، وعملوا ما امكنهم على
التخلص منه بالنفي هي احسن ، وقد آثروا الناطف والائانة في إفصائه
كي لا يصيبهم من جند الشام ما اصابهم يوم ناروا على عامل يزيد

وخلعوه ... ولولا هذه السابقة في تاريخهم القريب لما خرج الخجاج من الحجاز حياً .

ذلك هو سر نهالكم على ولاية العراق ! ولم يكن في مشطاعه بعد أن يعيش أمراً عادياً كغيره ، كأي فرد من أفراد الرعية ، وكان يجد أنه "خلق للحكم" ، فلا يستطيع أن يمارس عملاً آخر غير الحكم ، وهو قائل تلك الكلمة التي « وفدت » الحسن البصري لشدة إعجابه بها وهي : « إن أمراً ذهبت ساعة من عمره في غير ما خلق له ، لحري أن تطول عليها حسرته » . ونفسه كانت آنذاك مملوءة بالحسرات على الساعات الطويلة التي قضاه في الدباغة والتعليم ... فهل 'يعقل' أن يترك الولاية على العراق ولو كان فيها هلاكه ؟ ثم كيف يتأخر والحجازيون أقاموا الدنيا وأفقدوها بما ظلموا وشكروا ونشكروا ؟ ومن أين له أن يتأخر وأمير المؤمنين يستجد ويستغيث من أهل العراق ؟

وبلغ العرافين نبأ تعيينه فتلقوه بالاستياء والاستنكار ، حتى إذا اجتمع رؤسائهم وزعمائهم في الكوفة ، في المسجد الجامع ، وقف الغضبان بن القبيصة الشيباني - وهو من ألمع رجال العصر - خطيباً فيهم ، وقال :

« يا أهل العراق ! ويا أهل الكوفة !

« إن عبد الملك قد ولي عليكم من لا يقبل من محبتكم ، ولا يتجاوز عن مسيئكم ، الظلوم الغشوم الخجاج بن يوسف الثقفي .

١ وقد : أهب ، أكرم ، وأحسن المعري هو الذي رواها قاللاً : « فقد وفدتني

كلمة سمعها للخجاج من هذه الأعراف ... »

ألا وإن لكم من عبد الملك منزلة ، بما كان منكم من خذلات
مصعب وقتله ، فاعترضوا هذا الحثيث في الطريق فاقتلوه ، فأت
ذلك لا يعمد منكم خلعاً ، فإنه متى يعاو على متى منبركم ، وصدر
سروركم ، وفاقعة فصركم ، ثم قتلتموه ، أعدت خلعاً ، فأطبعوني ، ونعدوا
به قبل أن ينمش بكم ...

هذا هو صدى تعيين الحجاج في نفوس العرافيين ! أمسا سر
هذا الاستياء فقد كان يكمن في « صيته » السيء الذي انتشر في
طول العالم الاسلامي وعرضه ، على أنه مثال القسوة والشراسة ،
اذ عاش ثلاثة اعوام في الحجاز ينافل بها المسلمون اخباره واماله
كلما اجتمعوا في ابام الحج ، فليس عنده من سبيل الى إخفاؤها ،
مهما جهد في التخفيف من قسيتها او عمل على كتمها ... وسيرة
والي الحجاز معرضة للنقد اكثر من سير الولاة الآخرين ، لأنها
منكشفة لكل حاج ، وبالتالي ، لجميع المسلمين ...

ولست قسوة الحجاج السبب الاوحد في استياء العرافيين من
تعيينه ، وإنما هناك اسباب جمة : أهمها ما عرف عنه من غيرة على
مصلحة العرش الاموي الذي خاضه العرافيون وأبوا ان يعترفوا
به ، على اختلاف ملهم ومبهم ، في مختلف المراحل .

وقبل ان يسير الى العراق خطب اولى بنات النعمان بن بشير .
ومذ رآها استوحش منها وتخاصمته مرارة عميقة ، فطلقتها ، وخطب
اخرها . وكان من قبل قد تزوج من ابنة اسماء بن خارجة الفراري ،
فم يطق الحياة معها اكثر من شهر وطلقها .

على ان زواجه من ابنتي النعمان قبل مسيره الى العراق حادث
ذو مغزى ، فمنعنا نعلم ان الحجاج ابعد الرجال عن الحب

العاطفي ، او هو ابعدهم عن الحب اطلاقاً ، فكان اختياره لا يفتي
الزعمان تعبيراً عن السياسة التي يرغب في انتهائها تجاه العراقيين
في جانب ، وشقاء لاحقاد دقيقة ، في جانب آخر .

وايضاح ذلك ان الزعمان بن بشير كان الانصاري الوحيد من
اهل المدينة الذي انضم الى معاوية ابام اصطدامه والامام علي .
وكانت له في صفين مواقف يدكرها له اهل العراق بجنتى وغيظ .
وعين من بعد والياً على حصص ، حتى اذا عاك يزييد ودب الشقاق
في صفوف الامويين ، انحاز الى عبدالله بن الزبير وتزوج إحدى بناته .
وعندما انتقل الامر الى مروان بن الحكم ، جدت هذا في تعفيه بعد
ان هرب ، وخلق به خالد بن عدي الكلاعي فقتله .

اراد الحجاج اذن من زواجه ان يظهر للعراقيين نعلفه باعوان
الامويين اولاً ، وللمحجازيين كراهيته لهم ثانياً ، ولأهل عبدالله
ابن الزبير قدرته على تكاثرهم واستثمار انتصاره في قهرهم ، لانه كان
يشوي طلاق الفضاة الثانية بعد استقراره في العراق . وهذا ما
فعله ...

وفي صباح يوم من ايام شعبان توجه الحجاج الى الكوفة
في ركيب من اثني عشر رجلاً يحملهم النجايب . فوصل في نهار
مشمس من رمضان . وارسل احد رفاقه يعلم الناس بقدمه ،
فتجهروا في المسجد الجامع .

وبينما كانوا ينتظرونه اذ اقبل يمشي ، وعلى رأسه عمامة حجبت
اكثر وجهه ، متقلداً سيفاً ، متنكباً قوساً . واسمر يمشي وثبساً
ومشي حتى بلغ المنبر فارتقاه ، ووقف ملتأ لا يدي ولا بعيد ،
واهل الكوفة ينظرون اليه صامتين ، وهم احسن ما يكونون

حالا ، واليهج ما يظهرون منظراً ، يدخل الواحد منهم المسجد ومعه
 العشرون او الثلاثون من اهل بيته ومواليه عليهم الخبز والديباج ،
 وتلج في وجوعهم نضرة النعيم ، ونحس انهم مقبلون على الحياة .
 وطال وفوق الحجاج وطال صمته حتى غص المسجد بأمله ،
 واخذوا ينهاسون فيما بينهم بكلمات الهزل والاستكثار : « ما له
 ترآه الله لا يتكلم له » و « فبح الله بني امية حيث تستعمل مثل
 هذا على العراق » وذهب بأحدهم الهزل الى درجة حاول معها ان
 يقتله بالخصي ، فمنعه من حوله من الحضور .

ومذ ابصر عيون الناس شائخة اليه ، حسر اللثام عن فمه وقال :
 « انا ابن جلا وطلاع التنايا متى أضع العمامة تعرفوني ؟ »
 « يا اهل الكوفة ! »

« أما والله ابني لأهل الشر بحمله ، وأخذوه بتعلمه ، وأجزبه
 بقله . واني لاري ابصاراً طامحة واعناقاً منطاوله ، ورؤوساً قد
 أبيضت وحن قطافها ، واني لأصحابها ، وكأني انظر الى الدماء بين
 الممالك واللعى تتفرق : »

هذا أو ان الشد فاشتدي زيم قد لفتها الليل بسواق الحطم^٢
 ليس براعي إبل ولا غنم ولا يجزار على ظهر وضم^٣

١ ان جلا : رجل يضرب به مثل في شدة البأس ، كان يطلع في الغارات من ثنية
 الجبل (لسان العرب) ، والتنايا مفرداً ثنية وهي الطريق الوعرة في الجبل .

٢ يريد : أقبل الشر بالشر عبثاً وقاملاً .

٣ الشد : الركنش .

٤ زيم : اسم علم فطنة او لحوب او الفارة . الحطم والخطمة : الراعي الظلوم
 الماشية . الوضم : كل ما قطع عليه النعم . بقول : لست راعياً ولا جزاراً يرحم الماشية ،
 وإنما هو سائق حطم سيدعهم الى الموت بلا رحمة .

وهذا قليلاً كأنما أراد ان يبد في شأو نفسه ، ثم تابع :
 قد لقيها الليل بعصلي ^١ اروع خراج ^٢ من الدوي ^٣
 مهاجر ^٤ ليس بأعراني ^٥
 قد شمرت عن ساقها فشذوا ^٦ وجدت الحرب ^٧ بكم فجدوا
 والقوس فيها وتر عرود ^٨ مثل ذراع البكر ^٩ او اشد ^{١٠}
 لا بد مما ليس منه بد

« اني والله - يا اهل العراق ، ومعدن الشقاق والنفاق ومساوي
 الاخلاق ! - ما يقع لي بالشان ^٣ ، ولا يغير جانبي كغياز النين ^٤ ،
 ولقد فُردت ^٥ عن ذكاء ^٦ ، وفُتئت ^٧ عن تجريرة ^٨ ، وجريت الى
 الغاية القصوى . وان امير المؤمنين - اطال الله بقاءه - نثر كنانته
 وتسلها بين يديه فعجم عيدانها ^٩ ، فوجدني امرها عوداً واصليها
 مكسراً ، فوجهني اليكم ، ورمى بي في نحوكم ، لانكم طالموا
 اوضعتم في الفتن ^{١٠} ، واضطجعتم في مراقد الضلال ، وسنتم سنن الغي ،
 تسائلون ماذا قال اميركم وماذا يقول ؟ .. »

١ - المعصلي : الشديد القوي . - الاروع : الذي الشجاع . - الدوي : الغلاة التي يسم
 دويها في الليل . - خراج : اي قادر على الافلات من البلاء . - المهاجر : الذي هجر البادية ،
 فهي هنا ضد اعراني .

٢ - عرود : شديد ، صلب . - البكر : الفتي من الابل .

٣ - قطع له بالشان : مثل يقرب لمن يرتاح لاشياء لا حقيقة لها .

٤ - اي : لا ينال مني بسهولة .

٥ - فر الدابة : فتح حنكها وكشف اسنانها ليضم منها . وفر عن الامر : بحث .

٦ - الكنانة : جعبة السهام . تل : افرد كل سهم على حدة ليتفقد صلاحه من فاداه .

٧ - عجم العود : عظمه ليضم صلابته من خورده .

٨ - اوضع ابضاعاً : اسرع في سيره .

« اما والله لأطونكم لحوا^١ العصا^٢ ، ولأقرعنكم فرع المروة^٣ ،
ولأعصبتكم عصب السلعة^٤ ، ولأضربتكم ضرب غرائب الابل^٥ ،
فانكم واكمهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأنسها رزقها رغداً من
كل مكان ، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف
بما كانوا يصنعون^٦ . » واني والله لا اعد^٧ الا وفيت ، ولا اهم^٨ الا
امضيت ، ولا اخلق الا فريت^٩ ، فأياي وهذه الشفعا^{١٠} .
والزرافات^{١١} والجماعات .

« اما والذي نفسي الحجاج بيده لنستقيسن على طريق الحق
او لأدعن لكل رجل منكم شغلا في جسده ، فاقبلوا الانصاف
ودعوا الارجاف قبل ان اوقع بكم إيقاعاً يترك النساء أيام^{١٢} ،
والولدان يتامى . وان امير المؤمنين امرني ان اعطيكم اعطياتكم^{١٣}
وان اوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن ابي صفرة ، واني اقسم
بأنه لا اجد رجلاً تختلف بعد اخذ عطائه بثلاثة أيام الا سفكت^{١٤}

١ القناه : فتر الشجرة ، ولحا العصا : قشرها .

٢ المرو : حجارة بيض برافة توري النار .

٣ السلعة : شجر كثير الشوك تصب اغصانه وتغبط بالعصي لاسقاط الورق والاشواك .

٤ غرائب الابل : هي التي تضرب اشد الضرب عند الحرب ، وعند الخلط ،

وعند الخوض .

٥ هذه آية من القرآن استشهد بها الحجاج .

٦ يريد : لا اعزم الا صحت .

٧ الشفعا : مفردهما شفع ، وكأثرا يجتمعون الى الشفطان فيشفون في اصحاب

الجرائم .

٨ الزرافات : الجماعات من الناس ، يريد منهم من التجمع .

٩ أيامي : مفردهما ايم وهي التي قدت يعلها .

١٠ الاعطيات هي المرتبات التي كان يأخذها الجنود سلفاً .

دمه وانتهت^١ ماله وهدمت^٢ منزله ...

ثم اتجه نحو غلامه قائلاً :

- يا غلام ! اقرأ عليهم كتاب امير المؤمنين .

فبدأ الغلام : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبدالله عبد الملك

امير المؤمنين الى من بالكوفة من المسلمين . سلام عليكم ... فقاطعه

الحجاج :

- اكفف يا غلام .

ثم اقبل على الناس فقال :

- سلمت عليكم امير المؤمنين فلم تردوا شيئاً ! هذا والله ادب^٣

ابن نية^٤ ! أما والله لأؤدبنكم غير هذا الادب ، او لنستقيمن ...

إقرأ يا غلام كتاب امير المؤمنين .

واعاد الغلام الكرة ، فلما بلغ الى قوله « سلام عليكم » لم يبق

في المسجد احدٌ إلا قال : « وعلى امير المؤمنين السلام ! »

ومذ انتهى الغلام من تلاوة الكتاب ، نزل عن المنبر ، فاجتمع

حوله وجهاه الكوفة ، وخرج الجمهور من المسجد ، فقال لهم :

- ما كانت الولاة^٥ تفعل بالعصاة ؟

- كانت تضرب وتحبس .

فحدق فيهم الحجاج وقال :

- ليس لهم عندي إلا السيف ! إن المسلمين لو لم يغزوا المشركين

١ انتهت ماله : تركت الناس يغيرون عليه وينهبونه .

٢ هذه الخطبة مسيغ ككتيرة ، هي عند المسمودي غيرها عند الطبري ، وعند الطبري غيرها عند الجاحظ ، الخ ... وقد آثرت هذه العبارة لأنها تجمع ما في الباقية .

٣ ابن نية : رجل كان على الشرطة قبل الحجاج .

لغزاهم المشركون . ولو ساءت المعصية لاهلها ما قولك عدو ولا جبي في . ولا عز دين .

ثم جلس لتوجيه الناس ، والنفت الى قائد الشرطة ورئيس الحرس قائلاً لهما : « اذا مضت ثلاثة ايام فانخذوا سيفكما عصياً . »

فدام الحجاج الى العراق اذن بمهمة عسكرية خالصة هي تجنيد العراقيين لمحاربة الحوارج في الدرجة الاولى ، ولغزو البلاد المتاخمة وفتحها في الدرجة الثانية . وتلك هي المهمة التي وفق فيها مع الشرطة في الشام والتي انتدب اليها في الحجاز ، ولكن خشية على منصبه كانت تحفزه دوماً الى السهر والتبقيظ ، ونلزمه جانب القوة في جميع معاملاته واحتكاكاته بالآخرين .

لذلك ، سيعمد الى « إشغال » الجماهير بالاستعدادات المتواصلة للحرب ، والجندي ، والشرطة ، ولن يتروك لها ادنى فرصة ينصرف بها تفكيرها الى الحاجة السياسية ، لانه كان على يقين ان ادنى تراخ يبدو منه يتحوّل تفكير العراقيين اليه ، ويقع فيما وقع به غيره من بلبلة واضطراب . فراح يجهد اكثر ما يجهد في تنظيم الشرطة ، وتدريب الحرس ، ونشر العسس ، وبث العيون . وكان منه ، بعد ان القى خطبته الاولى التي ذكرناها ، ان سأل وجهاء الكوفة :
- دلوني على رجل اوليه الشرطة .

- اي رجل تريد ؟

- اريد دائم العبوس ، طويل الجلوس ، صميم الامانة ، اعرج الحيانة ، لا يحنق في الحق على 'حرّة' ، ويهون عليه سؤال الاشراف في الشفاعة .

— عليك اذن بعبد الرحمان بن عبيد التميمي .

فأرسل اليه فاستعمله . ثم ضرب البعث (بعث الجند الى الغزو)
على المختلئين ، ومن راعق وبلغ مبلغ الرجال من الصييات .
فكانت المرأة نجية الى ابنها وقد جرد من ثيابه فتضه اليها
وتقول له : « بأني » جزعاً عليه ، فسبى ذلك الجيش « جيش بأني » .
وبعد ثلاثة ايام عاشتها الكوفة في جوار من الاستعدادات
العسكرية ، جاء الحجاج عمير بن ضاني البرجمي فقال له :

— أصلح الله الامير ! اني شيخ كبير زمن عليل ضعيف ،
ولي عدة اولاد ، فليختر الامير ايهم شاء مكاني ، واشداهم ظهراً ،
واكرمهم فرساً ، واتهم اداة .

— لا بأس بشاب مكان شيخ .

وتم عمير بالانصراف مسروراً فلهذه النتيجة ، ولكن احد الجلساء
استوقفه وسأل الحجاج :

— اصلح الله الامير ! أتعرف من هذا ؟

— لا .

— هو عمير بن ضاني البرجمي الذي وثب على امير المؤمنين
عثمان ، وهو مقتول ، فكسر ضلعاً من أضلاعه .

فاعترضه ابن ضاني ، يخاطب الامير :

— إنه كان حبس اني شيخاً كبيراً ضعيفاً ، ولم يطلقه حتى مات

في سجنه .

فقال الحجاج :

— ايها الشيخ ! هلا بعثت الى امير المؤمنين عثمان بدلاً يوم

الدار ؟ أوليس ابوك الذي يقول :

هممت، ولم افعل، وكنت، وليتي تركت على عثمان تبكي حلاله
أما والله ان في قتلك ايها الشيخ لصلاح المصريين ! ان عذرك
لواضح ، وان ضعفك لبين ، ولكني اكراه ان يجترى بك الناس علي .
وأمن بصعد بصره اليه ، وبعض على لحية مرة ، ويسرحها
اخرى ، ثم قال :

- يا عمير ! اسمعت مقالتي على المنبر ؟

- نعم .

- إنه لقييح بئلي ان يكون كذاباً .

والنفث الى غلامه :

- قم اليه يا غلام ، فاضرب عنقه .

وكان اول اعدام اقدم عليه . فما كاد الخبر ينتشر في المدينة
حتى دب الذعر في قلوب اهلها ، وشاع فيهم الفزع ، وخرجوا على
وجوههم ذاهلين يريدون اللحاق بالمهلب بن ابي صفرة . وازدحموا
على الجسر حتى ضاق بهم ، وسقط بعضهم في الفرات . فجاءه حارس
الجسر وقال له :

- أصلح الله الامير ! لقد سقط بعض الناس في الفرات .

- وبحك ! ولم ذلك ؟

- ازدحم اهل هذا البعث على الجسر حتى ضاق بهم .

- انطلق فاعقد لهم جسرين .

وخرج عبدالله الاسدي الشاعر مذعوراً ، فلقبه نسيه ابراهيم ،
فسأله : وما الخبر ؟ فقال له : الشر ! الشر ! قتل عمير من
بعث المهلب ! ونظم الابيات التالية :

اقول لابراهيم لمسا لقينه ارى الامر امسى مهلكاً متصعباً

تجهز ! فاما ان تزور ابن ضائي . عيبراً ، وإما ان تزور المهلب .
 هما خطتنا خسر بجوارك منهما . ركوبك حيراناً من البلج أشبا
 فأضحى ، ولو كانت خراسان دونه . وآما مكان السوق او هي أفرابا
 وإلا فما الحجاج مفيد سيفه . مدى الدهر حتى يترك الطفل أشبها
 وهذا ما حمل الناس على اوتيااد المعسكرات من تلقاء انفسهم ،
 وراحوا يرسلون الى اهلهم : « زودونا ونحن بكاننا . »

بعد يومين من هذا الحادث ، خرج الحجاج في اليوم الثالث
 من قصره يوم الجامع ، فسمع تكبيراً في السوق ، فخيّل اليه ان
 الكوفة تنفض بشورة ، وان سكانها قادمون لا محالة على الانتقام
 لعير ، فصعد المنبر متأثراً ، متبجح الاعصاب وقال :

« يا اهل العراق ! يا اهل الشقاق والنفاق ومساوى الاخلاق !
 « اني اسمع لكم تكبيراً ليس بالتكبير الذي يراد به الترفيب ،
 ولكنه تكبير الترهيب . الا انها عجاجة فحبا قصف ، يا بني
 المكعبة ، وعبيد العصا ، وابناء الاماء . انما مثلي ومثلكم كما قال
 ابن بركة :

و كنت اذا قوم غزوني غزونيهم فهل انا في ذا ، يا همدان ، ظالم ؟
 متى نجتمع القلب الذكي وصارماً وأنفأ حياً نجتنبك المظالم ...
 « أما والله لا تفرع عصا إلا جعلتها كأمس الدابر ... »
 وراح ينفذ تهديداته هذه بضبط ودقة الى ان خلق في الكوفة
 جواً من الارهاب صرف به الناس عن التفكير في السياسة
 والخلافة ، وحملهم على الاخلاص للسكينة ، وشغلهم بتجديد الشبان
 وتموين الجيوش واخبار الغارات والمعارك .

وما ان اطمأن الى الموقف الداخلي في الكوفة حتى ذهب الى

البصرة ، وكان نجاحه هناك حافزاً له على اتباع الخطط نفسها
هنا ، فتوجه الى مسجد البصرة رأساً وصعد المنبر ، وقال :
« من اعباه داؤه فعندي دواؤه . ومن استطال اجله فعلي
ان اعجله . ومن ثقل عليه رأسه وضعت عنه ثقله . ومن استطال
ماضي عمره قصرت عليه باقيه . »

« ان للشيطان طيفاً ، وللسلطان سيفاً ، فمن سقت سريره ،
صحت عقوبته ، ومن وضعه ذنبه رفعه صليبه ، ومن لم تسعه
العافية لم تضق عنه التهلكة ، ومن سبقته بادرة فمه ، سبق بدنه
بسفك دمه . »

« اني انذر ثم انظر ، وأحذر ثم لا اعذر ، وأنوعد ثم لا
اغفر . انما افسدكم ثوبيق^١ ولانكم . ومن استرخى ليه^٢ ساء
ادبه . »

« ان الحزم والعزم سلباني سوطي ، وايدلاني به سبني ،
فقاؤه في يدي ، ونجاده في عنقي ، وذبابه قلادة لمن عصاني .
« والله لا آمر احدكم ان يخرج من باب من ابواب المسجد ،
فيخرج من الباب الذي يليه إلا ضربت عنقه . »

فلما نزل عن المنبر جاءه شريك بن عمرو البشكري ، وكان
شيخاً كبيراً اعور ، يضع على عينه العوداء صوفة ، وقال له :
« اصلح الله الامير ! ان بي فتناً ، وقد عذرتي بشر^٣ ، ورددت^٤

١ الثوب : الضعف في الامر ، وفي الادارة ، وفي الحم ...

٢ اللب : ما يشد في صدر الدابة لينع استخار السرج . وهو يقصد : ان الذين
والسيرة بقصدان النظام المجتمع .

٣ بشر بن مروان شقيق الخليفة عبدالملك ، وكان والي البصرة قل الحاج .

العطاء لتودّه الى بيت المال .

فأجابه الحجاج :

- انك عندي لصادق .

ولكنه لم يصكّد بتلفظ بآخر كلمة حتى امر الخرسى بضرب عنقه لانه استغفاه من الخدمة العسكرية ، فلم يدا ان يبدأ ولايته في البصرة باعفاء ...

تلك اول حادثة ، والحادثة الثانية هي تلك التي جرت له مع حائك بصري انى به شرطي من بني سليم وقال له وهو جالس الى مائدة يتغدى مع رعط من حاشيته :

- اصلح الله الامير ! ان هذا الرجل عاص .

فقال الرجل ، وهو يرتجف من الخوف :

- انشدك الله ايها الامير في دمي ، فوالله ما قبضت ديواناً

فقط ، ولا شهدت عسكرياً ، واني لحائك اخذت من تحت الحف .

فلم يكن من الحجاج الا ان امر بضرب عنقه . فلما احس المسكين بالسيف سجد ، فلحقه السيف وهو ساجد . فتوقف مؤاكلوه ، وامتنعوا عن تناول طعامهم . فنظر اليهم الحجاج غاضباً وقال : ه مالي اراكم صغرت ايديكم ، واصغرت وجوهكم ، وخذت نظركم من قتل رجل واحد ؟ ان العاصي يجمع خلافاً تحل بمركزه ، فهو بعصي اميره ، ويفتر المسلمين وهو اجير لهم ، وانما ياخذ الاجرة كما يعمل ، والوالي يخير فيه ، ان شاء قتل ، وان شاء عفا ...

لا ينبغي ان اجد احتجاج عذراً في هذه القسوة سوى انه
كان يكره العراقيين ، اذا كان كره العراقيين يشكل عذراً
للحجاج وامثاله ... وليس هذا الكلام الذي يبرر به قسوته الا
مراء في مراء .

قال المعتدرون عنه : انه كان موظفاً ينفذ ما يؤمر به .
واحسب ان احداً لا يقتنع بهذا العذر في اقدامه على قتل ذلك
المسكين الاعور شريك بن عمرو البشكري الذي اغناه أخ' الخليفة
من الخدمة لمرضه ، ولا في قتل هذا الطائفة الذي جاء به احد
الجواسيس ، فأن هو في هذين الموقفين من عبد الملك وأوامره ؟
بل ان هو من أداء وظيفته على احسن ما يكون أدائها ؟ أي
الوظيفة ان يسفك الواي دم الارباء من الرعية ؟ ومتى كان القيام
بواجب الوظيفة يفرض التجبر والقسوة والظلم ؟ وهل من الادارة
الخازمة ان يشير الحاكم الاحقاد في نفوس محكوميه ؟

وغالوا ايضاً : « لم يكن امام الحجاج غير الشدة على العراقيين
ليردم الى حظيرة الجماعة ، ويقف دون ثردهم على السلطة . » وما
كان احراً بقبول هذا العذر لو ان الحجاج انتظر الشر ليرد
عليه ، او ليؤدب فاعليه ، ولكنه عمداً الى الارهاب قبل ان
يبدر من الكوفيين او البصريين ما يبرر شدته ويحمل الناس على
إعذاره .

الحقيقة هي ان الحجاج قدم العراق وصدوره موغراً على امله .
وكان في نيته ، منذ تحركت ركابه نحوه ، ان يفعل ما فعل دون
ان يراقب او يوازن او يتروى ، بل كان في شوق حاد ملح
للتشكيل بالعراقيين وسفك دمايتهم واهدار كراماتهم . ولم تكن

الاسباب لثبته بقدر ما كان به ان يوتي عليه ، وبشفي احقاده .
 هـك هذا الحوار الذي جرى بينه وبين جامع المحاري - وكان
 جامع هذا شيخاً صالحاً خطيباً ليلاً جريئاً - اذ جعل الحجاج
 يشكو سوء طاعة اهل العراق وقبح مذهبهم ، فقال له جامع :
 - اما انا لو احبوك لأطاعوك ، على انهم ما شئوك لنفسك
 ولا لبلدك ولا لذات نفسك ، فدع عنك ما يبعدهم منك الى ما
 يقربهم اليك ، والنفس العافية بمن دونك تعطيها بمن فوقك ،
 وليكن ايقاعك بعد وعيدك ، ووعدك بعد وعيدك .

فاجابه الحجاج بصلف وكبر :

- ما اري ان اردت بني الكيعة الى طاعتي الا بالسيف !

- ايها الامير ! ان السيف اذا لاقى السيف ذهب الحيار .

- الحيار يومئذ لله !

- ولكنك لا تدري من يجعله الله .

فغضب الحجاج هنا واحتد مزجراً :

- يا هناه ! انك من محارب ...

- والحرب سبينا وكنا محارباً اذ ما القنا امسى من الطعن احمرأ

- والله لقد هممت بان اخلع لسانك فأضرب به وجهك .

- ان صدقتك اغضبتك ، وان غشيتك اغضبتنا الله ، فغضب

الامير اهون علينا من غضب الله .

لم يكن الحجاج اذن ليشد - كما ترى في هذا الحوار - على

من : كلمة يكنى بها عن اسم الانسان ، وتزاد عليها الالف والهاء في حالات

الالفاظ .

اهل العراق نتيجة آلام عائلاتها منهم ، ولا كان سلوكهم معهم منبثقاً
 عن تجارب مرّ بها في ادارتهم ، وانما هي شهوة الحكم ولذة الانتقام
 وانتفاضات النفس الحافدة المريضة التي كانت توجهه بجملتها وتسيطر
 اعماله ، كأنما كان يستفزهم ويحلمهم على العصيان والتبذير عامداً
 متعمداً ، لينقض عليهم مبرراً انتفاضه بعد ذلك بعصيانهم وغرورهم .
 وهكذا ... نشأت بين الجانبين ازمة وجدانية من اطراف الازمات
 واغرمها ، تعطينا صورة شبه كاملة عن كل ازمة تقع بين الحاكم
 والمحكوم في كل عصر ومصر ، وأهم ما فيها استغراق كل مسن
 الطرفين في وجهة نظره ، فأصبح الحجاج يشد ازر الشاميين يوماً
 عن يوم ، ويتحدى العراقيين في كل حركة وسكنة ، ويستل سيفه
 لدى الصغيرة والكبيرة من الحوادث ، ويظيل لوائه بالسباب
 والاهانة في جانب ، والثناء والاكرام في الجانب الآخر ، مسترسلاً
 مع مبوله الدفينة العميقة ، مستنجباً لأبعد الاحاسيس التي تنبع في
 قراره عن حبه الوثني الاصيل . وأصبح العراقيون في حال من
 القلق والاضطراب والتضعع لا يسعهم معها ان يهبوا بوجهه هبة
 رجل واحد ، فيخلصوا منه ومن شروره ، وراحوا يثارون لكرامتهم
 على شكل فردي يعوزه النظام والانتظام ، ويردود على إهاناته
 بانتفاضات وقتية لا ثلث ان تهد بعد استعالتها . وكانت اولى هذه
 الانتفاضات ثورة عبدالله بن الجارود العبدي ، والحجاج هو المسؤول
 عنها في الدرجة الاولى .

وتفصيل الحادث ان الحجاج قرر ان ينقص اعطيات الجند عما
 كانت عليه ايام عبدالله بن الزبير ، فخطب الناس قائلاً : ان
 الزيادة التي زاكم اياها ابن الزبير انما هي زيادة ملحد منافق فاسق

ولنا نجيزها . ، فوقف ابن الجارود يعارضه :

— ايها الامير ! ليست بزيادة ابن الزبير ، انما هي زيادة امير المؤمنين عبد الملك اذ انفذها واجازها ، وجرت على يد بشر بن مروان .

فغضب الحجاج لهذه المعارضة التي حسبها وقعة وقال مخاطبه :

— ما انت والكلام لتحسن حمل رأسك والا سلبتك اياه .

— ولم تسلبني رأسي ؟ والله اني لك لتاصح ، وان قولي هذا

لقول من ورائي !

وما انقض المجلس حتى نجهر ليفف المستائين حول ابن الجارود ،

بما حدا الحجاج على التوقف عن تنفيذ قراره طيلة نحو من شهر .

ثم رجع اليه ورجع ابن الجارود الى معارضته وكانت قد اتف

حواله جماعة من المحاربين والقواد ورؤساء القبائل امثال قتيبة بن

مسلم القائد الشهير ، والخذيل بن عمران البرجمي ، وعبدالله بن حكيم

الجاشعي . ولم يبق الى جانب الحجاج غير حرمه واعوانه ممن

جند الشام وبعض المرتزقة الذين لا يؤبه لهم .

واجتمع قادة المعارضين ورؤساؤهم ، واتفقوا فيما بينهم على

تأليف كتلة برثامة ابن الجارود تعمل على اخراج الحجاج من

العراق بالطرق السلمية الهادئة . فكتبوا الى عبد الملك بشكوى

عاملة وما يقترف من سيئات ، ويلحق بهم من اضرار واهانات ،

واجين ابداله بغيره ، ولكن الحجاج علم بامرهم — ولا يبعد ان

يكون عبد الملك نفسه قد ارسل اليه يحذره ! فاحتاط لنفسه ،

واحتمل ما امكنه الحيلة ، حتى قسم المعارضين وضم اليه بعض

انصار ابن الجارود . وما ان استوثق من قدرته على الظفر حتى

فتح المعركة ، وبدأها بالقبض على زعماء المعارضة . فلم يطل الكرك
والفر اذ دب الشقاق في صفوف الثائرين الذين بوغثوا بالحرب ،
وفوجئوا باعتقال كبيرائهم ، وانتهى الامر ان قطع الحجاج
رؤوس الزعماء وارسلها الى المهلب ليعرضها على الخوارج ، ويهيب
بها كل من نزل له نفسه التمرد على اوامره .

ادرك العراقيون بعد هذه الثورة التي اخفقت اخفاقاً ذريعاً
ان عبد الملك ادهى من ان يعينهم على الحجاج ، وانه اشد نعلماً
به بما كانوا ينصرون ، فقتلوا من مساعدته او من عدله فيهم
بتعير اصح ، وراحوا يناضلون ، وهم المنقسمون المشتتون شيعاً
واحزاباً ، كل حزب بما لديه من وسائل وادوات ، على غير هدى ،
في غير نظام ...

وادرك الخوارج ان سيرة الحجاج في اهل العراق تتجه نحو
التفوق منه ، فاشتد املهم في التغلب عليه ، ونجسوا وأعدوا
العدة بمقارعتة اثناء اشتغاله بثورة ابن الجارود .

وما كادت هذه الثورة تخذل حتى اندلعت ثورة الزنج . والزنج
هؤلاء شرادهم لصوص متشردين جاءوا بعد الفتح العربي لافريقيا
الشرقية من سواحل الصومال ، وآلتفوا عصابت مسلحة اندست
في صفوف الخوارج ، وعانت في اطراف العراق فساداً . وكانت
مصعب بن الزبير قد حمل عليهم حملات تأديبية لم توفق الى محوهم .
فلما ولي خالد بن عبد الله امر البصرة خرج لقتالهم فأسر من اسر ،
وقتل من قتل ، وصلب من صلب ، ولكنهم عادوا الى جمع
صفوفهم في وادي الفرات عندما ولي الحجاج واشتدت عليه
المعارضة .

كان الحجاج يومذاك في الكوفة ، فكتب الى عامة على البصرة
زياد بن عمرو العنكي بأمره بتجهيز حملة قوية تكفيه شرم ، وارسل
هذا ابنه حفص على رأس كتيبة من الجنود البصريين ، ودارت
معركة قتل فيها حفص وفر منها جند.

وطبق خبر هذه الهزيمة الى الحجاج ، فقدم البصرة عائلاً مريداً ،
وصعد المنبر وخطب :

« يا اهل البصرة !

« ان عبيدكم وكساحبكم رأوا معصيتكم فتأسوا بكم . واهم
الله لئن لم تخرجوا الى هؤلاء الكلاب فتكفوني شرم لأعقرت
تخلكم ، ولا تزلن بكم ما اتم له اهل ، باستخراجكم وفسادكم .
ثم وجه حملة ثانية لمحاربتهم اشرف بنفسه على تجهيزها ، وجعل
كراراً بن مالك السلمي قائدها - وبنو سليم معروفون
مشهورون بفروسيتهم وحسن بلائهم في الحروب . فلم يزل هذا
يقاقل الزنج حتى تمكن من الايقاع بهم وقتل زعيمهم ، وبذلك
هدأت البصرة واستتب بها الامن .

ولكن ثورة ابن الجارود وظهور الزنج المتمردين على السلطة
حادثان لم ينتهيا ، رغم انتصار السلطة فيهم ، اذ فتحا عيون الخوارج
على المضاعب التي يعانيها الحجاج في حكم العراق ، فأخذ الازارقة^١

١ (قسم الخوارج الى سبع فرق هي : ١) الحكمة : وهم الذين يبنون التحكيم .
٢) الازارقة : اتباع قانع بن الازرق وهم الذين خرجوا بفارس وكرمان امام ابن الزبير
وقائهم المذهب بن ابي صبرة وهم يكفرون علاناً مع جمع من الصحابة كما يكفرون القعدة
عن القتال مع الامام وان قاتل اهل دينه ، ويبعثون قتل اطفال الماندين ولناهم ،
ويسقطون الرجم عن الزاني الحصن دون قاذف المرأة الفحصة ، ويخرجون اصحاب

منهم يزدادون عنفاً على عنف ، ويوالون هجراتهم ، ويستبسلون في غاراتهم .

لم يكن الخجاج لبحارب الخوارج بنفسه ، وإنما صرف همه ، كل همه ، في إعداد المدد ، وتهيئة العناد ، وإرسالها إلى الجبهات ، ثم في توجيه الخطط وتغذية الحركات العسكرية بجميع ما تحتاج إليه من مال وسلاح ورجال ، وأخيراً في ضبط الجبهة الداخلية وتدارك ما يكتسبها من تصدعات . وترك الحرب العملية للمهلب بن أبي صفرة ، وهو أرفع شخصية عسكرية عرفها عصره ، ومدته برجال يعاونونه وينفذون خططه ، حفظ التاريخ اسماءهم إلى أبدوا من مضاء وشجاعة وحسن تدبير كعبد الرحمن بن مخنف ، وسفيان بن الأبرد السكلي ، وعقاب بن ورقاء ، والحارث بن محبزة وغيرهم .

وطال امر هذه الحرب مع الخوارج وطال ... طال زمامها

الخصومات الكبيرة عن الاسلام ويقولون : البنية لا تغور ، خلاف ما يعتقد الشيعة .
 ٣ (التعدادات : وهم اصحاب نخبة بن عامر ، يكفرون بالاصرار على الصفات ، دون فعل الكبار من غير اصرار ، ويستسلمون دعاء أهل العهد والدمعة واموالهم ، ويتبرأون ممن حرما .) (البنية : اصحاب أبي يونس بن خالد يرون انه لا حرام الا ما وقع عليه النفس لقوة تعال : هـ قل لا اجد فيها نوحى الى محرماً ... هـ ويكفرون الرغبة بكفر الاسلام . هـ (المجردة : وهم الذين ينكرون ككون سورة يوسف من القرآن ، ويوجبون النجس من الطفل ، فإذا بلغ دعى الى الاسلام . هـ) (الاباضية : يرون ان مرتكك الكبيرة كافر قسمة وليس مشركاً ، ويرون ان دار محاسنهم من المسلمين دار توحيد ، وان الساطان ظالم . هـ) (البعونية : وهم يقولون ان الله يريد اخير دون الشر ويهوون نكاح بنات البهائم ، وبنات اولاد الاخوة والاخوات . هـ) (الثعلبية : يرون ولاية الطفل حتى يظهر عليه اشكال الحق فيبرأون منه . هـ) (الصفوية : يرون ان ما كان من الكبار فيه حد كالزنا لا يكفر به ، وما كان منها ليس فيه حد كترك الصلاة يكفر به . - مسح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٣٤ -

صنّين ونصف عاشها الحجاج والعراقية في خطر دائم ، وشغل
شاعل ، وبلاء منحل ، وأوشك الخوارج ان ينتصروا فيها اكثر
من مرة ، ولكن الشقاق دب في صفوف الازارقة ، وكان اختلافهم
ذا صيغة عنصرية ، اذ تجزأت قيادتهم بعد ان كانت موحدة ،
واصبح امرهم موزعاً بين فئتين : الاولى عربية يقودها فطري بن
القيامة المازني - وهو من رجالات عصره المعدودين ، والثانية
فارسية يقودها عبد ربه الصغير - وهو مولى لبني قيس بن ثعلبة
كان يمارس تعليم الصغار في كتاب . ثم ما لبث هذا الخلاف ان
تشعب واتسع حتى انصرفوا الى التناحر فيما بينهم . واستغل المهلب
انقسامهم ابرح استغلال ، فوفق بعد مداورات دقيقة وغارات عنيفة
الى القضاء على فطري وابني عبد ربه الكبير والصغير ، وانتهى
بذلك من الازارقة ومشاكلهم ...

بيد ان الحجاج لم يعرف الهدوء ولا ذاق طعم الاستقرار على
الرغم من الاخبار المفرحة التي وردت من المهلب وظفروه بأعدائه .
فقد تحركت جبهة خارجية في الموصل اشد من الازارقة ، وهم
الذين يرون ربي الصفرية ، تحركوا يستهدفون الحجاج نفسه ،
وكان برأسهم بادىء الامر صالح بن مسرح الذي عاش ايامه فاسكاً
مصفر الوجه - وهذا مصدر اسم فرقته - موغلاً في الزهد والتعبّد ،
وله اتباع يشر فيهم ويقرؤهم القرآن ويفقههم في الدين ويقصّ
عليهم ما رشح اليه من سير ونواريخ ، وما افضت اليه تأملاته
من آراء . فكان اذا جلس مجلس الامام ذكر الله وحمده ، وثني
بالصلاة على محمد النبي ، واثني على ابي بكر وعمر ، سني اذا
وصل لعنان وعلي نبراً منها ودعاً الى مجاهدة امتة الضلال

فانلأ : ونيسروا باخوافي للخروج من دار الفناء الى دار البقاء ،
واللحاق باخواننا المؤمنين الذين باعوا الدنيا بالآخرة ، ولا تفرعوا
من القتل في الله ، فان القتل أيسر من الموت ، والموت نازل
بكم ، مفرق بينكم وبين آباءكم وإخوانكم وأبنائكم وعلائكم ،
وإن اشتد ذلك جزعكم . ألا فيبعوا أنفسكم طائعين ، وأموالكم
انفقوها في الجهاد ، تدخلوا الجنة ... »

كان هذا التحريض البليغ وأمثلة ، المقرون بالعمل ، الظاهر في
سيرة المحرّضين ، أثره البالغ في نفوس سامعيه . فانبشوا في المسد
والفرى بدعون الناس الى اتباع صالح والاندماج في حركته .
وكان شبيب بن يزيد الشيباني أول من لى النداء وانضم اليه
من معه من الرجال . واجتمعوا في هلال صفر ليلة الاربعاء عام
٧٦ للهجرة ونداولوا فيما بينهم مناهج العمل ، وخطط السير في
الحرب . وانهى صالح مداولاتهم بخطبة قال فيها : « اتقوا الله عباد
الله ، ولا تعجلوا الى قتال احد من الناس الا ان يكونوا يريدونكم ،
فانكم انما خرجتم غضباً لله ، حيث انتهكت محارمه ، وغصبي في
الارض ، وسفكت الدماء بغير حق ، واخذت الاموال غصباً ، فلا
تعيبوا على قوم اعمالاً ثم تعملونها ... »

وهشت الحملة فاحتلت ذرعان ، وهي بلدة في جزيرة العراق .
ثم سارت نحو آمد . وراح الحجاج يرسل في تعقبها النجدة نزل
النجدة ، وهي تنقل من مكان الى مكان حتى بلغت خانقين على
نحوم ارض فارس . وهناك وقعت معركة هائلة اُقتل فيها صالح
ابن مسرح ، وولي من بعده شبيب الذي شد على الحارث بن عتبة
- وكان الحجاج قد ارسله في ثلاثة آلاف - فقتله وقتل جيشه .

واستمر شبيب يحالد ويقارع ، في سلسلة معارك خرج منها مظفراً ،
حتى بلغ الكوفة ، فاحتلها وانضم اليه الناقمون على الحجاج حكمة .
ولكن الحجاج كان قد ارسل الى عبد الملك يعلمه بخطورة
الموقف وخذلان العراقيين له ، كما انذره بسوء العواقب التي ينتهي
اليها ملكه اذا لم يسرع في انجاده . فما كاد شبيب يدخل الكوفة
حتى وصل سفيان بن الابرود على رأس اربعة آلاف من جنود
الشام ، وقلاه حبيب بن عبد الرحمن بن مذحج في الفين . ودارت
رحى المعارك في قطاعات مختلفة لم يملك معها شبيب ان يستقر
في الكوفة ، فهرب ينقل من قطاع الى قطاع ، والحائر تلحق
بجنده ، والعدو يتكاثر عليه الى ان بلغ كرمات في بلاد العجم .
فلحقه سفيان بن الابرود عند جسر دجيل الاهواز (عربستان
اليوم) حيث نشبت معركة لم يكن لفريق فيها غلبة . وفي المساء
امر شبيب اصحابه بالرجيل ، فعبروا الجسر امامه ، وتبعهم راكباً
على فرسه الذي نزا عند الجسر فسقط في الماء ، وسقط معه شبيب
وهو متقل بالحديد من درع ومغفر وسيف فغرق ، ولم يمكن
انقاذه جثاً .

عند الصباح ، بلغ سفيان خبر غرق عدوه وانصراف اصحابه ،
فأثن ومن معه الى النهر فاستخرجوا جثة شبيب ، وشقوا بطنه ،
واخرجوا قلبه ، وضربوا به الارض ... فكان ينزو كما تنزو الطابة
على ما ذكر المؤرخون ، وقبل انه وجد فيه قلب آخر فكان صلباً
لازدواجه هذا .

ولم تكن هذه الغزوة لتكبح جماح العراق الثائر ، فثار اهل
الشمال (الموصل ونواحيها) من جديد اخذاً بنار شبيب . وفاد

الحركة المطرف بن المغيرة بن شعبة الثقفي . وكان هذا بمن استهواهم
 شبيب برجولته وأدبه وصلابة أليانه . فانتفض على الحجاج بعد أن كان
 عامله على المدائن (قرب البصرة) ، وأصبح يجد في الأمويين وولائهم بلاء
 الأمة وفساد الدين . وراح يدعو إلى الحكم بالحق والعدل في السيرة ،
 متأثراً بأراء الخوارج ، معتبراً بسيرة ابن عمه الحجاج التي لم ترض
 أحداً من الصالحين ، مستنداً إلى هذه النقطة العارمة عليه في وسطه
 وإثائه لإقليسه ، ولكن ثورته انخفضت ولم ينبح لها أن تفسع لما اتخذ
 الحجاج من تدابير ، وبث من عيون ، وجهاز من فرسان ، فقتل
 في إحدى المعارك التي خاضها عام ٧٧ للهجرة .

وما كان إخفاق العراقيين في ثوراتهم المنقطعة هذه ، إلا ليزيد
 النار في صدورهم خراباً ، ويجعلهم في موقف نفسي يدق عن الوصف
 إذ أنبت بهم الأمل من عدل السلاطات ، وحوربوا في أفكارهم
 وآرائهم ومعتقداتهم التي ينشئ لهم صوابها في كل ما يعانون من
 حياة ، ويكابدون من مرارة ، وخرجت القضية عن أن تكون
 قضية وال يريدون عزله ، ولا يطبقون حكمه ، كما كان الأمر عهد
 معاوية الأول ، وإنما أصبحت قضية أقلبية معنصاة تشمل العراق
 بجملة ، والشام بجملة ، فلم تفلح إلا أن يغلب أحد الأقليمين
 على الآخر ... هذا ما أفضت إليه سياسة الحجاج الرعناء !

ولكن الحجاج كان يزداد سروراً كلما اتسعت شقة الخلاف بين
 الشاميين والعراقيين . وبلغ به الفرح أوجاً يوم انتصر على المطرف ،
 وهدأت الحال عام ٧٨ للهجرة .

صحيح أن الحال هدأت ، ولكن الجمر كمن تحت الرماد ، ولم
 يظهر لعين الحجاج نفسه إلا يوم ولّى عبد الرحمن بن الأشعث

قيادة الجيوش لمحاربة الاتراك الذين استغلوا اضطراب السياسة الداخلية في البلاد العربية ، واستمعوا عن دفع الجزية . فلما اطمأن الحجاج الى سكون العراقين ، ارسل الى عامه على سبستان يطلب اليه الاتصال برتبيل^١ ملك الترك واستبقاء ما يذمه ، فان ابن تجهز له ، وحمل عليه .

وكانت ان رفض رتبيل ووفعت الواقعة بينه وبين عبيدالله ابن ابي بكر عامل الحجاج ، ودارت الدائرة فيها على عبيدالله الذي تراجع امام العدو تراجعاً اساء الى معنويات الجيش العربي . ومد بلغ الحجاج لياً انسحاب جنده خاف على نفسه ، وجزع من تأخير هذه الهزيمة في صفوف العراقيين ، وكلهم موشوروت ، فكتب الى عبدالمالك يستأذنه في ارسال جيش قوي يهاجم الترك ويكسر شوكتهم . فلما اتته موافقة الخليفة جند عشرين الفا من اهل الكوفة واهل البصرة ، وبذل المال ، واعقد في العطاء ، وأعد الحبل والسلاح ، وعين عبدالرحمان بن محمد الاشعث قائداً ، وكان يرمي من تعيينه الى قتله والتخلص منه لانه كان يكرهه^٢ ، اغتقاداً منه ان الحملة صائرة حتماً الى الهزيمة ، وهكذا ... يصيب ثلاثة عصفير بحجر واحد : يعني العراقيين المتمردين في خدمة بني أمية ، ويشغلهم عنه ، ويشغف جنده بنو عبدالرحمان ... وتستجد في تطورات الحادث ما يضع هذا القول موضع اليقين .

١ كان العرب يطلقون اسم رتبيل على كل ملك من ملوك الترك مثل كسرى لفرس وقبصر الروم .

٢ يقول ابن الاثير : « كان الحجاج ييغض ابن الاشعث ويقول لاصحابه : ما رأيت قط الا اردت قتله . »

صار عبد الرحمان يجيشه الى ان بلغ ارض العدو ، فبعث اليه
 رنيليل يقدم خضوعه ويعدده بأداء الجزية فور توقفه عن الزحف ،
 ولكن القائد المظفر لم يبايه فنه العروض التي أتت متأخرة ،
 واوغل في بلاد الترك يفسد الحصون ، ويحتل المراكز المتبعة ،
 ويجتاز المدن والقرى المستسلمة بعد ان يولي عليها عماله ، ويتوكل
 فيها حامية عسكرية ، كما اوغل رنيليل في الحرب مخلياً له السبيل .
 وما ان انتعت جبهة عبد الرحمان حتى التزم جانب الانتظار ،
 تاركاً لجيشه فرصة الاستجمام ، ثم كتب الى الحجاج يخبره عن
 سير العمليات الحربية ، وعن خطته التي فر عليها رأيه في الراحة
 والانتظار .

وعندما قرأ الحجاج كتابه تارت تائثرته (لماذا ؟) الآن قائده
 انتصر ؟ وماذا يريد اكثر من ذلك ؟ أم انه غضب لوقوف
 الزحف وهو بعيد عن المعركة ؟ فكتب الى عبد الرحمان الكتاب
 التالي :

« ... ان كتابك كتاب امرىء بحب الهدنة ، ويستريح الى
 المودة ، قد صانع عدداً قليلاً قليلاً قد اصابوا من المسلمين جنداً
 كان بلاؤهم حساً وغناؤهم عظيماً ، فامض لما امرتك به من الولوجول
 في ارضهم والهدم لخصومهم ، وقتل مقاتليهم ، وسبي ذراريهم ... »
 ثم عزز هذه الرسالة بثانية وثالثة يتهدده بهما ، ويأمره بالتحجى اذا
 كان قد صتم على التوقف .

لا ادري كيف يميز الحجاج الحكم لنفسه في موقف حربي
 يبعث عنه آلاف الفراسخ ... الا ان يكون رامياً الى القضاء على
 المحاربين وفاندهم ... ثم انظر اليه كيف جوتن شأن الانتصار الذي

أحرزوه ، وبجرتش على الأقدام في معركة لا يعرف مصيرها ، ولا
يشهد تطوراتها !

ولم يكن من عبد الرحمن ، إزاء هذا العنف من الحجاج ، إلا
أن جمع جيشه وخطب فيه قائلاً :
« أيها الناس !

« إني لكم ناصح ، ولصالحكم محب ، ولكم في كل ما يحيط
به نفعكم ناظر ، وقد كان رأيي فيما بيني وبين عدوي بما رضى به
ذوو أعلامكم وأولو التجربة منكم ، وكنت بذلك إلى أميركم
الحجاج ، فأثاني كتابه يعجزني ويضعفني ويأمرني بتعجيل الوغول
بكم في أرض العدو ، وهي البلاد التي هنك فيها أخوانكم
بالأمس ، وأثاني رجل منكم لمضي إذا مضيت وآثي إذا آثيت . »
فكان جواب الجيش أن نادى بسقوط الحجاج ، وخلع عبد الملك ،
وعنف ابن الأشعث أميراً للمؤمنين . واجتمع ذوو التجربة والرأي ،
وقرروا محاربة الحجاج وإخراجه من العراق . وتبعهم الأمراء
وفادة الجند . ومشت العامة في ركابهم تترقب الفرج بعد الشدة .
ومد بلغ الحجاج الخبر ، أرسل فوراً يستنجد بعبد الملك ،
ويستعجله المدد . فما أن وافاه جند الشام حتى توجه بنفسه على
رأسهم إلى البصرة ، وانتقل منها إلى «تستور» حيث دارت معركة
هزم فيها الحجاج ومن معه ، فلقى بهم أصحاب ابن الأشعث
وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، واستولوا على أسلحتهم وقسم كبير
من غنائمهم ، ودخلوا البصرة ظافرين ، فبايع أهلها عبد الرحمن
دون أن يعارض منهم أحد . وتوالت المعارك بين الشاميين
والعراقيين ضاربة عاتجة عندما أنجز ابن الأشعث نحو الكوفة ،

اذ اخرج الكوفيون عامل الحجاج واستقبلوا الخليفة العراقي
استقبالا رائعا ، واقاموا الاحتفالات والزيارات تيمنا بقدمه .
غير ان المعركة ، التي حدثت قبل وصول عبد الرحمن الى
الكوفة ، احدثت في العرافيين قنونا شديدا اذ تمكن الحجاج من
السيطرة على الموقف ، في فترة من الفترات ، فادى اثناءها بالامان ،
فأسر احد عشر ألفا خدعهم بأمانه ، ثم قتلهم عن بكرة أبيهم ،
ويعرف ذلك اليوم بيوم الزارية .

وتجهر الناس في الكوفة ، وافقت كلمتهم على حرب الحجاج ،
وبلغ عددهم نحواً من ٢٠٠٠٠٠٠ اكثروهم محاربون . وكثر الشاميون
نحو الكوفة . وابتدأت المعركة الفاصلة المعروفة بددير الحجاج ،
حيث خندق الطرفان المتحاربين ، واشتد القتال وطال دون فترة
يحبسها احد الفريقين .

ورأى عبد الملك ان يفاوض العرافيين في ان يعزل الحجاج
على ان يخلدوا الى طاعته ، ويعمل عبدالرحمن والياً مدى الحياة
حيث شاء من العراق ، فأرسل ولده عبدالله وإخاه محمد يفاوضان
باسمه ، ويعملان على تهدئة العاصفة .

وما ان علم الحجاج بالغاية التي قدما من اجلها حتى جن جنونه ،
ومادت اعصابه ، وخشي ان يجري الصلح على حسابه ، وتحقن
الدماء بعزله ، فكتب الى عبد الملك يقول :

«... والله لو أعطيت اهل العراق نزعى لم يلبثوا الا قليلا
حتى يخالفوك ، ويسيروا اليك ، ولا يزيدكم ذلك الا جرأة عليك .
ألم ترَ ويبلغك وثوب اهل العراق مع الاشتر على عثمان بن عفان ،
سؤاله نزع سعيد بن العاص ، فاذا نزع لم تتم المسألة حتى

ساروا الى عثمان فقتلوه ، وان الحديد بالحديد يفلح .
 ثم راح يعمل على إحباط المناوشات الدائرة في جانب ، وببذل
 أقصى ما لديه من قوة لاستئداد الحرب في جانب ، الى ان حقق
 ما يشوق اليه من الناحية السياسية اذ رفض العرافيون عروض
 عبد الملك بعد التداول والنشاور ، وفوت حماسهم للحرب ، بينما
 اشتدت حماسة جند الشام ، ومن هذه الثغرة نفذ الحجاج الى
 النصر ، فانهمزم عبدالرحمن الى البصرة ، وتبعه جيسار ثقيف يسد
 عليه الشعب والطرق ، فهرب الى سجستان حيث استقبله رافيل
 واحسن وفادته . وتحولت الثورة التي قادها الى مناوشات فردية
 مضطربة ، ولم تثبت ان حدث ، بعد ان فر القائد ، واصبح
 الثأور في قبضة الحجاج بين امري وجرجي ومسوارين
 وهارين ... وكان الطاعون قد انتشر عام ٨٠ للهجرة ، اي في
 ايام احتدام الثورة الاشعرية ، فلم يقو العرافيون على الاستمرار
 في المقاومة ، ومدتوا من الغزوات والغارات الخفيفة ، وأمعن
 الحجاج فيهم تنكيلا وتعديبا بعد التقبيل والسجن . فما قبل العام
 ٨٤ هـ . حتى هدا العراق واستكان للسلطة التي اعياء تبديلها ،
 وأراح الحجاج من الحروب ...

٢ - طغیان

لم يطق الحجاج انتصاراته المتلاحقة على الثورات المتكررة اذ
 لم يكن في طاقته احتمال نفسه متصراً ، فضى في فسوته واوغل
 في طغيانه يتجبر غير عابى بصير ولا مبال بعافية . والظفر بخناج

الى قوة نفسية تضاد الظافر عن الطغيان اضعاف اضعاف ما يحتاج
اليها المتدحر المكسور لتصرفه عن الذل والصغار . بيد أن الحجاج
- وهو الذي كان يرقص من غير دف - أصبح كتلة من الكره
والحقد على كل من هو عراقي ، وفنيط من نفسه ان ترأف ، ومن
الحياة ان ترأف به ، ومن الناس ان يرقوا له او ان يحترموه .
ولم تكن تلك التجارب القاسية التي مر بها لتزيده الا عنوة على
عنوة ، واستكباراً على استكبار ، فما افاد منها غير الاصرار على
الظلم ، والاغراق في الاذى ، والاسترسال مع الحقد . واذا بلسانه
الذي اقام دنيا العراق واقعدتها بشد في الشنعة ، واذا بسيفه
الذي سلكه على الافراد الارباء وعزّ الجماهير الى الثورة يتند الى
الجماعات ويحصد الالوف عوضاً عن الآحاد ، واذا بالسجون تمتلئ
من النساء بنسبة ما قتلي من الرجال او اكثر ، واذا بالجوع
يطغى ، وبالمريض يساند الجوع ، وبجيتهم من هذا وذاك على المجتمع
العراقي جوة من الذل تخنق معه الافكار ، وتذوب فيه الحيوية ،
ويأس به الناس من كل قول او عمل .

وكان اول ما فعل بعد انتصاره الساحق على ابن الاشعث ان
توجه الى الكوفة ، ودخلها دخول الفاتحين على رأس انتصاره من
جند الشام ، ويتم وجهه شطر المسجد ، والقي هذه الخطبة التي لا
تعد خطبته الشهيرة الاولى شيئاً الى جانبها . قال :

« يا اهل العراق !

« ان الشيطان قد استبطنكم ، فغالط اللحم والدم والعصب

والمسامع والاطراف والاعضاء والشفاف^١ ، ثم افضى الى الانحناخ
والاصحاخ^٢ ، ثم ارتفع فعشش ، ثم باض وفرخ ، فعششاكم نفاقاً
وشقاقاً ، واشعركم خلافاً ، اتخذقوه دليلاً تتبعونه ، وقائداً تطيعونه ،
ومؤامراً تشيرونه ، فكيف تنفعكم تجربة او تعظكم وقعة او
يحجزكم^٣ إسلام ، او ينفعكم بيان ؟ ألسن اصعاني بالاهواز حيث
رمت المكر ، وسعيتم بالعدو ، واستجعتن للفكر ، وظننتن ان الله
يخذل دينه وخلافته ، وانما ارميكم بطرفي وانتم تتسلون لواذا^٤ ،
وتنهزمون سراعاً ؟

• ثم يوم الزاوية ! وما يوم الزاوية ؟! بها كان فشلكم
وتنازعكم ونحاذلكم ، وبراعة الله منكم ، ونكوص وليكم عنكم ،
اذ ولينم كلابيل الشوارد الى اوطانها ، التوارع الى اعطائها^٥ ، لا
يسأل المرء عن اخيه ، ولا يلوي الشيخ على بنيه ، حتى عطفكم
السلاح ، وفصنكم الرماح .

• ثم يوم دير الجاجم ! وما دير الجاجم ؟ بها كانت المعارك
والملاحم ، بضرب يزيل الغمام^٦ عن مقبله^٧ ، وينهمل الحليل عن خليلة ،
فما اندي ارجوه منكم يا اهل العراق ؟ أم مما الذي انوقعه ؟
ولماذا استيقىكم ؟

١ غلاف القلب .

٢ تحوّل الأذان الماخية .

٣ تنعم .

٤ متراجين .

٥ تبارك الابل .

٦ الرؤوس .

٧ موضعه .

« ولاي شيء أخركم ؟ ألكفريات بعد الفجرات ؟ أالفدرات
بعد الحرات ؟ أاللزوات بعد الزوات ؟ ان بعتكم الى نفوركم
غلام^١ وختم ، وان امنتم ارجفتم ، وان خفتم نافقتم ، لا تذكرون
حسنة ، ولا تشكرون نعمه .

« هل استحقكم ناصت ، او استغواكم غاو ، او استنصركم
ظالم ، او استعذدكم خالع^٢ الا تبعتموه وآو بشموه ؟ هل شغب
شاغب ، او نعب ناعب ، او زفر زافر الا كنتم اتباعه وانصاره ؟
« يا اهل العراق ! ألم تسبكم المواقظ ؟ ألم ترجركم الوفاع ؟
ثم التفت الى اهل الشام ، وهم حول المنبر ، فقال :

« يا اهل الشام ! انما انا لكم كالظلمة الرامح^٣ عن قراخه ،
ينقي عنها المنذر ، ويباعد عنها الحجر ، ويكتسها من المطر ، ويحبسها
من الضباب^٤ ، ويحوسها من الذباب . يا اهل الشام ! انتم الجنة^٥
والرداء ، وانتم العدة والحداء ... »

هذا كلام رجل موفور لا يريد من ورائه غير الشفي ، ولا
يقصد فيه إلا ما نسبته العامة « زرذرة » . فانت لا تحس
فيه إشرافه المنصر الذي استعلى به الانتصار عن السافس ، ولا

١ جمع خثرة وهي واحدة خثر : الغدر .

٢ خفتم .

٣ الذي يخلع طاعة السلطان . واستعذدكم : سأل مساعدكم .

٤ ذكر النعام .

٥ المدام برحمه .

٦ جمع شب : حيوان كالغرياء .

٧ الجنة : ما بين به اي يبنى .

تشعر معه أنك أمام إنسان حقق غاية جيد من أجلها ، فارتاح ضميره إلى تعقيبها . وما ذاك إلا لأن الحجاج كان ، في واقع موقفه السياسي ، ابداً معتدياً ، ابداً متعدياً ، ابداً مستفزاً ، فلم تخافه ، بعد أن وفق ، نسمة من نسائم الراحنة النفسية التي تهب على المجاعدين في سبيل مبدأ حين يظفرون . وكيف يرتاح المروءة بنيت أعماله على أساس من العدوان ؟

ثم إن الاعتداء يتحول ، إذا وفق ، إلى ضرب من الظلم الحاد الموثور الذي يزداد حدة ووتراً كلما أصاب غرضه أو نجح في ما أراد ، فلا يتردد بعد ذلك ، ولا يهدأ ، ولا يستقر إلا باحقاق صاحبه أو موته . ولذا كان الاعتداء الموفق أشد خطراً على صاحبه من الاعتداء الفاشل ، بل هو أشد على صاحبه منه على ضحاياه !

ذلك هو السر في تلك السلسلة من المظالم التي ظهر بها الحجاج بعد انتصاره على ابن الأشعث ، والتي أفضى المؤرخون في سردها وتعدادها ، وذكرها الأدباء والشعراء مشدوهين حائرين أمامها . وكان ابن القزعة - وهو من اعلام الأدب والبلاغة والفقه - أول ضحية . خرج مع ابن الأشعث ثائراً ، ونظم ديوان انشائه ورسائله وخطبه ، أي أنه شغل منصب مستشار ثقافي . قيل أنه لما رفع اميراً أقبل عليه الحجاج نفسه وضربه بحربة في نحره فأثى عليه ، وقيل ضربه بالسيف فشقه .

وتلاه الشاعر الشهير اعشى همدان ، وكانت أول من خلع عبد الملك والحجاج بين يدي ابن الأشعث بسجستان ، فقال له الطاغية : « ايه ! أنت القاتل :

من مبلغ الحجاج آفي قد جئيت عليه حرباً
وصفت في كعب امرى جلد اذا ما الامر عبي

نبتت ان بني يوسف خرم من زلق قتلنا ...
قال الشاعر : لا ... ولكن الذي يقول :

أبي الله إلا أنت ينتم نوره ويطفر نور المفتين فيخيدا
وينزل أدلاً بالعراق وأمه بما نقضوا العهد الوثيق المؤكدا
وما أحدثوا من بدعة وضلالة من القول لم تصعد الى الله مصعدا
فأجابه الحجاج : « لسا نحمدك على هذا القول ، أفا فلتة نأسفاً
على ان لا نكون ظفرت وظهرت ، ونحريضاً لأصحابك ، وليس عن
هذا سألنك . اخبرني عن فولك : « امكن ربي من تقيف
ممدات ... » وعن فولك في ابن الاشعث : « بنح بنح لوالده
ولمولود ! »

ثم امر الحرسى بضرب عنقه ، وهو ينظر اليه قائلاً : « والله
لا تبخيع لاحد بعدها . »

وما زال يؤتى برجل رجل حتى اتى بعامري كان من فرسان
الجمجم الذين اتخنوا بجند الشام ، فقال له :
- والله لأقتلك شر قتلة !
- والله ما ذلك لك .

- ولم ؟ ولمن ؟

- لان الله يقول في كتابه العزيز : « فاذا لقيتم الذين كفروا
فضرب الرقاب حتى اذا اتخنوهم فشدوا الوثاق ، فاما متاً بعداً
واما فداء ، حتى تضع الحرب اوزارها . » وانت قد قتلت

فألتخت ، وأسرت فألتخت ، فاما ان نمن علينا او تغدينا عثاثرنا ،

- أشهد على نفسك بالكفر ؟

- نعم كفرت وغيبت وبدلت .

فالتفت نحو الخراس قللاً :

- خلوا سبيله .

ومكثا عاش نحواً من اثني عشرة سنة ، وله في كل يوم

حادثة قتل عدا عن الاسر والنفي والحبس واحصي من

قتله صبراً سوى من قتل في عساكره وحروبه ، فوجد مائة

وعشرين ألفاً . ومات وفي حبه خمسون ألف رجل ، وثلاثون

الف امرأة ، منهم ستة عشر ألفاً مجردة . وكان يحبس النساء

والرجال في موضع واحد . ولم يكن للحبس ستر يستر الناس

من الشمس في الصيف ، ولا من المطر والبرد في الشتاء .^١

وكان له ولع خاص باستجواب من يقدم على تعذيبهم او على

قتلهم ، ويفق في التعذيب والاستجواب افتنان ماهر خبير الساليب

الايداء وطرائق التعذيب . فقد حبس اسماء بن خارجة وضيق

عليه ، ومنع عنه الطعام الصالح ، وأمر ان يشاب له الماء الذي

يشربه بالرماد والملح . وكان يأتي بالقصب الفارسي فيثقه ويشده

على السجين وهو عار ، ثم يسلكه قصبة قصبة حتى يقطع جسده ،

ثم يصب عليه الحبل والملح حتى يموت .

اما استجواباته للضحايا فكانت تنجيه نحو اذلالهم وتخفيفهم كأن

يشهدوا على انفسهم بالكفر ، او يتملقوه في رأي ، ومنها ما كان

بجرد خلق جو يفيد منه شخصياً في معاملة الآخرين .
 جيه برجل من ضغم ، وكان شيخاً عرماً ، فضى إياه معتزلاً
 لا يتدخل في شأن من الشؤون العامة ، فسأله عن حاله ، فأخبره
 باعتزاله ، فقال له :

- انت متربص ، أشهد انك كافر ؟
 - بش الرجل انا ! اعبد الله ثمانين سنة ، ثم اشهد على نفسي
 بالكفر .

- اذاً أقتلك ؟
 - وان قتلتني !
 فأمر بضرب عنقه . ولم يبق احد من أهل الشام والعراق الا
 وبكى من اجله .
 وجيه بفارسي الخوطة في الثورة الاشعنية ، وكان كثير الغنى ،
 وأفر الثورة ، فقال له :
 - يا أبا عثمان ، ما اخرجك مع هؤلاء ، فوالله ما لحك من لحومهم
 ولا دمك من دماهم .

- فتنة عمت الناس .
 - اكتب لي أموالك ! .
 - وانا آمن على دمي ؟
 - والله لتؤديتها ، ثم لأقتلك .
 - والله لا يجمع بين دمي ومالي .
 ثم اصدر للحرس امره بضرب عنقه .
 وعندما انحاز الغضبان بن القبعري الى ابن الاشعث ، وكانت

اول المعارضين للحجاج كما رأيت في خطبته ، جهد هذا في القبض عليه ، الى ان تمكن من اسره ، فلما جيء به قال له :

— أنت صاحب الكلمة التي بنفني أنك قلتها : « نعدوا بالحجاج قبل ان يمشى بكم » ؟ فوالله لأحسبك عن الوساد ، ولأنزلتك عن الجياد ، ولأشهرتك في البلاد .

— الامان أيها الأمير ! فوالله ما ضرت من فيك فيه ، ولا نفعت من فيك له .

— ألم أقل لك : كافي بصورتك يحاجل في قصري هذا ؟
وامر الحراس فساقوه الى السجن .

ونلك هي اكثر حكاياه عند اكبر المؤرخين ... وبلغ من طفيلانه عند انهيار المقاومة في العراق ان خلق جواً من الرعب يشوبه الملل ، فكان الناس اذا تلاقوا في المحافل والنواصي والمساجد والاسواق يتحدثون عن قتل امس ، وينسألون عن يئس اليوم ، ويروون موقف فلان الذي تجدد ، وموقف ذاك الذي ذبح ، كأن هذه الحوادث وامثالها اشياء عادية متعارفة يتناقلونها دون ان تشير فيهم الثقة التي كانت تبعثها من قبل ... بل دون ان تنزهم الى التفكير في الخلاص منها .

وبحسب انه ركب يوماً يريد الجمعة ، فسمع ضجة اضطرب لها فقال :

— ما هذا ؟

اجابه بعض المارة في الطريق :

— المحبسون يضحون وبشكون ما هم فيه من البلاء .
فالتفت نحوهم وقال :

- إفسدوا فيها ولا تكلمون .

على ان هذا الجو الرائس على العراق لم يكن ليروق الحجاج ، فهو الوحيد الذي كان يعرف انه جو مصطنع ، وهو الوحيد الذي كان يحس برمق المقاومة يردد في انقاس بعض المؤمنين الذين امتد سيفه الى اعناقهم .

من هؤلاء سعيد بن جبير الذي كان موضع إعجاب الخاصة ، وتكريم العامة لزمده وتقواه وصلاحه ، قبض عليه بعد المجازاة الى ثورة ابن الاشعث ، ووضعه في السجن اعواماً ، حتى خطر له ان يتحدث اليه مرة فأمر باحضاره ، وقال له :

- ما اخرجك عليّ وانا الذي اشركك في الولاية ؟

- انما كانت بيعة لابن الاشعث في عتقي .

وهنا دار بينهما حوار طويل كان به سعيد متسال الجراءة ، انتهى بصدور الامر المعتاد : « يا حوسي ... اضرب عنقه ! » وجلس مرة لحاكم الاسرى ، فقدم اليه رجلاً منهم ، فقال له :

- علي دين من انت ؟

- علي دين ابراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين .

فأمر ان تضرب عنقه . ثم قدم آخر ، فسأله :

- علي دين من انت ؟

- علي دين ابيك الشيخ يوسف .

- اما والله لقد كان صواماً قواماً ! خلى عنه يا غلام .

فلما خلى عنه ، تقدم اليه هذا الاسير وقال :

- يا حجاج ! سألت صاحبي : على دين من انت ؟ فقال : على دين ابراهيم خنيفاً ... فأمرت به فقتل . وسألتني : على دين من انت ، فقلت : على دين ابيك الشيخ يوسف ، فأمرت بنخلة سبيلي . والله لو لم يكن لابيك من السبئات إلا انه ولد مثلك لكفاه .
هنا غضب الحجاج وامر به فقتل ...

لم نجد المقاومة الفكرية اذن ، والحجاج كان على أتم المعرفة بها ، اذ لم يتوان الافراد عن السخرية منه ، والهزء به ، والتكيت عليه ، وكان يشعر ان إمعانه في العنف والارهاق لا يقابل بشيء من الاهتمام ، ولذا قضى أيامه دائم العبوس ، شديد التقطيب ، فلق الخاطر ، بحسب لكل حركة حساباً ويجازي على النظرة والاشارة والحركة ...

وكانني به وقد أحس الفراغ من حوله ، وانصرف الناس عنه ، وإهمالهم لكل ما من شأنه ان يحرك شره فيهم ، اذ اخذ العراقيون بهجروا الى الحجاز - وكان واليها يومئذ عمر بن عبد العزيز - ويضربون في الارض هاثمين على وجوعهم ، كأنني به اراد ان ينسى نفسه ، وينسى من يحيط به ، فاتجه نحو الشؤون العمرانية والادوية ، واستقل بنفسه مع خاصته من اهل الشام في مدينة انشأها لنفسه ، وحظر على احد دخولها ...

٣ - عمران وادارة

عندما ولي زياد بن ابيه العراقيين (البصرة والكوفة) ، بعد وفاة المغيرة بن شعبة ، رأى ان يقيم سنة شهر في الكوفة ، وستة

في البصرة ، حفظاً للامن ، وقياماً بما يقتضيه حسن الادارة لشؤون
الرعية ، وضبطاً للموقف السياسي العام في ارض لم يرقها استيلاء
معاوية على مقدرات الخلافة .

وكان الحجاج يتأثر خطى السالفين من ولاة الامويين ومما لهم ،
ويسترشد بسيرة زباد خاصة . بيد أن الاوضاع السياسية اختلفت
في عهده عما كانت عليه عهد معاوية ، وذاق الامر من البصريين
والكوفيين على السواء ، وتهددت حياته في البلدين ، واصبح لا
يأمن ان يغتالوه بين وقت وآخر ، ولا يطمئن الى احد منهم في
القيام على شؤونه الخاصة . فلما كاد ينتهي من الفتن والثورات وما
جرت وراءها من حواشٍ وذيول ، حتى فكر في انشاء مدينة
جديدة تقع في نقطة جغرافية متوسطة بين البصرة والكوفة ، وبأشر
العمل في اواخر عام ٨٣ هـ . (٧٠٣ م) فاستغرق انشاؤها ثلاث
سنوات سخر بها العرافيين ، واتفق على بناء المسجد والقصر
والسور ٤٣٠٠٠٠٠٠٠ درهم ، وسماها « واسط » اشارة الى توسطها
وكان موقعها على جانبي دجلة ، غير ان الجانب الشرقي منها كان
قبل الحجاج عامراً ، تقوم فيه بلدة ساسانية بسكنها الموالي من
الفرس وغيرهم ، وتدعى كسكر ، وانخذله فيها قصراً ذا قبة
خضراء اطلق عليه اسم « الخضراء » وهو اسم قصر الخليفة معاوية
الاول الذي اصبحت فيما بعد بلاط الخلافة الاموية .

« وقد اظهرت تنقيبات مديرية الآثار العامة العراقية ، التي
استمرت ستة مواسم منذ سنة ١٩٣٦ ، جامع الحجاج وقصره ذا
القبة الخضراء التي كانت ترى من قم الصلح ، على سبعة فراسخ
من شمالها ، اي ٣٥ كيلومتراً . وغير فوق هذا الجامع على ثلاثة

مساجد جامعة اخرى ، ولم يبق من الاول والقصر غير بقايا الاسس
والسواري وأجزاء صغيرة من الجدران ، اذ الظاهر ان من شيدوا
الجامع التي اعقبه استعملوا في بنائها تقض الجامع الذي قبله .
وكانت البقايا المكتشفة كافية للاستدلال بها على ابعاد الجامع وعدد
بلاطانه وأروقته . فالجامع مربع الشكل ذرعه 103×103 من
الامتار ، وجدرانه ضخمة تناهز المترين ونصف المتر ، مشيدة بحص
وأجر أصفر اللون ، بحكم التشكيل . وفي مصلى الجامع خمسة أروقة
ينألف كل منها من تسع عشرة بلاطة ، وفي مؤخره رواق من
تسع عشرة بلاطة ايضاً ، وفي كل من جانبيه رواق واحد به
ثلاث عشرة بلاطة . ويلاصق الجامع في جهته القبلية قصر الحجاج
الذي اظهرت الحفريات قسمه القريب من الجامع بواسطة انفاق
بقيت في التقص الى عمق ثمانية امتار . وكان يقوم عند تقاطع
اسس البلاطات مع اسس أروقة المصلى ، سوار مؤانسة من
قطع الحجارة الرملية . ويلاحظ فيها هو موجود ان قطع السارية
الواحدة كانت موضوعة قطعة على قطعة تصل بينها اصابع
الحديد ...

اقام الحجاج اذن في هذه المدينة المسحوقة ، وعني بسورها
عناية فائقة ، بحيث لم يكن ينأخ لعراقي دخولها ، ولا يقدر العدو
على مهاجمتها ... فكانت نكتة شامية ، بها تجمع جند الشام ، وفلعة
احسن بها الوالي ، ومر كراً نذار منه بلاد العراق وما يليها .

١ من محاضرة القاها الاساذ بشير يوسف فرنسيس في مؤتمر الآثار العربية المتقد
في دمشق صيف ١٩٤٧ عن « المظاهر الفنية في عوامم العراق القديمة » .

ثم انصرف بعد انشائها الى اجراء اصلاحات عمرانية مختلفة ،
 فعمّر السدود في السواد وهي المنطقة الزراعية الخصبة الواقعة بين
 الفرات ودجلة ، بغية ري الاراضي ، وحفر الترع ومحاري المياه
 كالزاب ، والنيل الذي دعاه بهذا الاسم لئلا ينيل مصر . وقامت
 فيها بعد ، على جانبه ، بليدة تخذت اسمه وازدهرت فيها الزراعة ،
 وبعض الصناعات الزراعية .

ولم يكتفِ بهذه الاعمال العمرانية التي نشط معها اقتصاد البلاد ،
 وانما عمد الى بناء السفن ، فكان اول من سبّر السفن المدعولة
 المستمرة في البحر ، وانشأ المنارات العالية الضخمة بسين واسط
 وفروزين ، ترى ناراها ليلاً ، ودخانها نهاراً للمخاطرة .

ورأى ان اختلاط العرب بالاعاجم الفص الى بلبلة اللسان
 العربي فأنشأ بوضع الاعجام والشكل في المصاحف ، وكانت
 الحروف من قبله مهمة اي لا تنقبط فلا . وقام بهذه العملية
 رجلا نهما : نصر بن عاصم ومجيب بن يعمر فليدنا ابي الاسود
 الدؤلي ، فميز الحروف المتشابهة بتوك الاول منها دون نقط ،
 ووضع عدد من النقاط للثاني اقلها واحدة ، واكثرها ثلاثة .

ثم عني بقضية العملة العربية ، اذ كان العرب ايام الجاهلية
 وصدر الاسلام يتداولون العملة : الفارسية واليونانية ، وكان عمر
 قد امر بسك العملة الفضية ، وثبته معاوية . ولما جاء مصعب
 ابن الزبير الى العراق ، أمر بضرب النقود ونقش بعض الآيات
 القرآنية عليها . ولكن الحجاج انشأ داراً خاصة لضرب العملة جمع
 فيها الطبايع وختم ايديهم ، وحملهم على سك نقود باسمه . ويقول
 المستشرق ديبويه : ان قطعاً نقدية عرضت في قاعة المداليات ، في

باريس ، ونقش عليها اسم « الخجاج بن يوسف » ، وعلى الوجه الثاني
نقشت الآية : « قل هو الله احد ، الله الصمد . »

وعني الخجاج أيضاً بتنظيم الجهاز الاداري في الدولة الاموية ،
وكان أهم الاصلاحات التي ادخلها نقل الدواوين الى العربية ،
والتوسع فيها ، ادكات من قبله مضطربة مشوشة يستخدم موظفوها
اللغة الفارسية في العراق وفارس ، والقبطية في مصر ، واليونانية
في بلاد الشام . فلما ولي الخجاج امر صالح بن عبدالرحمان ان
ينظم جميع الدواوين : ديوان الجيش (الذي تسجل فيه أسماء الجنود
والناسم واعطيانهم) ، وديوان الخراج (سجل التحصيلات) ، وديوان
الحكم (سجل اوامر خليفة ، وكل ما يصدر عن مقامه الى
الوالي) ، وديوان الرسائل (سجلات المراسلات والتخيرات بين الوالي
والموظفين) .

ثم راح يشتغل بالفتوحات بعد ان هدأ واستقر ، فولى قتيبة
ابن مسلم خراسان ، ومدة بالجيوش ، فاحتل القسم الاكبر من بلاد
العجم التي لم تكن خاضعة الا اسماً ، وتوغل في ازبكستان واحتل
بخارى وسمرقند ، وانقلب الى التركستان الصيني فافتتح عاصمته . بيد
انه لم يتغلغل في الصين ، وفل الى بلاد فارس .

وولى ابن اخيه محمد بن القاسم بن محمد الثقفي قيادة جيش عظيم ،
ووجه لاحتلال الهند ، فأخضع بلوخيستان والسند ومولتان ، وزحف
على البنجاب ، ففتح قسماً منها .

وبقي الخجاج مشغلاً طيلة ولايته بهذه الزحف والنهجزات
والامدادات ، متبعاً حركات الجيوش ، منصرفاً اليها بروحه وعقله
وفكره ...

ولكن هذه الاعمال العمرانية والادارية لم تكن اكثر من وسائل الهاء للعرافين وغيرهم ، فهو لم ينصرف اليها ، في الواقع ، إلا ليصرف الرعية عن التفكير فيه وفي مظالمه ، وليحوطها عن البحث في قضية الخلافة ومشاكل السياسة من جهة ، ثم ليحتفظ بمنزله في نفس الخليفة ، ويُنصبه في الدولة الذي ارتفع واتسع وزاد مع الايام بسطة وارتفاعاً ، من جهة ثانية .

ولذلك ظاهرة بارزة في سيرة كل طاغية ، اعني هذا و الالهاء ، للناس في تحويل انظارهم عن طغيانه الى العمران ، الى الفتح ، الى ما اشبه ذلك مما تستغرق فيه الجماعات استغرافاً تاماً ، ويفتحل الحاكم لنفسه ، في غفوة استغرافها ذلك ، شرف العمل ويحده الانتصار ... هذي هي سيرة نابوليون يوم ارتقى فرنسا ثم دوح أوروبا ، وهذي هي سيرة موسوليني يوم طغى على ايطاليا ثم امتنع الحبشة ، وهذي هي سيرة هتلر وغيره وغيره .

اما تعلقه بالحكم ، او شدة راحه بالمنصب ، فلا اظن النسا في حاجة بعد الى اقامة الدليل عليها ، بيد أنها ظهرت حين استتب الأمن وساد الهدوء على اعنف مما يمكن ان نظير ، فكانت لولب محركة الادارية كلها ، ومصدر عبقريته في تثبيت الاعداء ، وتقريب الخلاء ، وانتقاء الاصفياء ، ناهيك بما كانت توحى اليه من افكار ، وترين له من اعمال .

كان من امر هذه الشهوة للحكم في نفسه ان اوجت اليه فكرة ايلاء الخلافة للوليد بن عبد الملك من بعد ابيه ، لانه كان على يقين من العزل اذا خرج الامر عن يد الوليد ، ففعل عين ما فعله المغيرة ابن شعبه حاكم الكوفة يوم زيتن لمعاوية ان يدعو الناس الى

مبايعة ابنه يزيد في حياته ، فكتب الى عبد الملك يشجعه على تبني
الفكرة ، ويشد أزرعا في نفسه وقلبه . ولكن عبد الملك كان يحسن
التفاضل اجه عبدالعزيز والي مصر ، ويرى في فرارة حبه ان
احاه لا يكون مرفحا الى هذه الخطوة ، وبحسب انها ربما اتجت
الكوارث على نحو ما اتجت خطوة معاربه ، ولكن الحجاج
مضى في تشجيعه وليج حتى اوشك ان يفسد الصلة بين الخليفة
واخيه ، لان عبدالعزيز ابن الموافقة . وكادت العلاقات تتور لولا
ان علفت المشككة وأجل حظها ، اذ كتب عبدالعزيز الى اخيه :
« اني واباك يا امير المؤمنين قد بلغنا سنا لم يبلغها احد من اهل
بيتك الا كان بفؤه قليلا ، وبنا لا ندري اينما يأتي الموت اولا ،
فان رأيت ان لا تفسد علي بقية عمري فافعل » .

وتشاء المصادفات ان لا تحيب اهل الحجاج ، وان لا تنقص
عليه لفته في الحكم ، فقد دعي عبدالعزيز الى اخيه بعهد شهر
فليلة من هذه الائمة . وما انت انتهى امير المؤمنين من تقبل
التعازي حتى امر الناس بمبايعة الوليد ، فبويع دون ادى معارضة ،
على ان تكون ولاية العهد لاختيه سليمان .

اطمان الحجاج وارواح باله . . . فقد ادرك ما امل . ولما هلك
عبد الملك وتولى الوليد - وذلك عام ٨٦ هـ - كتب الخليفة الى
عائله على العراق يسأله عن اسلوبه في الحكم ومناهج ادارته ،
فكتب الحجاج يصف سيرته :

« اني ايقظت رأبي وأنت هواي ، وادنيت السيد المطاع في
قومه ، ووليت الحرب الحازم في امره ، وفللت الخراج الموفر
لاماته ، وقسمت لكل خصم من نفسي قسما واعطيتة حظا من

أطيف عني ، وصرخت السيف الى المريب المس ، والثواب الى
المحسن البري ، فخاف المريب صولة العقاب ، وفتك المحسن بحظه
من الثواب .

الواقع ان الحجاج يصف هنا أسلوبه في الادارة كما قلناه
ان يكون ، لا كما كان . وعدي ايضاً من ظواهر الحياة النفسية
الخاصة التي يجباها الطغاة ولا يجباها غيرهم . فانهم يدركون الحقائق ،
ويفهمون دقائق الواقع المسؤولين عنه وعن سيئاته ، ويعرفون كل
ما يتصل بهم وينفزع عن سلوكهم ، حتى اذا حملوا على وصف
انفسهم ، او استجوبوا عن موافقهم رأيتهم في الدروة من احكام
الرأي وسداد المنطق وبلاغة الحجة ! ولكن اعمالهم لا تشير في كثير
ولا قليل الى اعتقادهم بصحة ما يقولون ، ولا الى تطابق بين
افكارهم وتصرفاتهم ، ولا الى انسجام بين كلماتهم وما فعله .
فليس صحيحاً ان الحجاج يفظ رأيه وانام مولاه ، فقد رأيت انصباغه
لاهوائه واسترساله مع أحقاد . وليس صحيحاً انه صرف السيف
الى المريب المس ، والثواب الى المحسن البري ، فتورات العراق ،
وقذلات الحجاز ، واعتزاه رعيته في مدينة خاضة به وبجاشيته ،
تؤكد كلها انه لم يوفق الى إرضاء احد قط ، وبالتالي انه لم يسلك
السلوك الذي وصفه ! الصحيح انه استغل اختلاف وجهات النظر
بين العراقيين والشاميين والحجازيين في قضية الامامة ، وأفاد من
معطيات هذه البيئات الثلاث ادق الافادة في بناء شخصيته ، وتحصيل
مركزه ، وتوطيد نفوذه ، فوفق الى احتلال المكانة التي احتلها ، ولم
يكن له من هدف يرمي اليه غير الاستماع بلذائذ الحكم والنقلب
في نعيه .

ذلك هي عبقرية الحجاج ، وهذا هو سر نجاحه في الإدارة من ناحية عامة . أما مواهبه الشخصية ، فقد كانت في مستوى المنصب الذي بلغه ، وأهمها غنى كعبه في الأدب والخطابة .

٤ - أدب وخطابه

الحجاج أديب من الطراز الأول .

أريد أن أقول أنه كان يملك من القدرة على التعبير ، والبراعة في نصريف الكلام ، والبأسر في بيان أفكاره وتحليله خواطره وإفرازه ، ما لا يحرزها امرؤ إلا أن يكون موهوباً من الناحية الأدبية . وليس الأدب ، في التحليل الأخير ، غير هذه الميزة التي تجعل الإنسان يعبر حيث يقف الآخرون عاجزين صامتين ... ولا غرابة أن يكون الحجاج أديباً ، وهو الذي زاول التعليم ، وخبر فنون الكلام ، وعانى كتابة الرسائل ، والصعود ، فيما بعد ، على المنابر .

غير أن الحياة السياسية وما تقتضيه من اتصال بالجمهور ، واشتكاك بالعامّة من الناس ، جعلت أدب ذلك العصر خطابياً في الدرجة الأولى ، حتى لنجد على الشعر ، شعر هانيك الأيام ، مسحة خطابية واضحة الإشارات . ولو لم يوفق الحجاج إلى تولي المنصب الذي شغله ، أي لو لم يتلّه بما تلهى به من أعمال إدارية ومهام عمرانية وعسكرية ، لتبّع في دنيا الأدب ، وكان له فيها شأن لا يقلّ عن شأنه في عالم السياسة .

وإذا انت دقت النظر في سيرة الحجاج أدركت أنه كان

يأمر السياسة بروح أدب ، أو بروح معلم يقيم للكلمة وزناً لا يخف عن وزن العمل ، ونجد مصداق ذلك في كل ما انتهى إلينا من الخبارة .

ولكن الحجاج كان أدبياً وثقياً بكل ما في الوثنية من فكر وروح . كان يشخص أمر ما في الحضارة الوثنية القديمة ، الموهلة في مجاهل التاريخ العربي البعيد - من تقديس المادة ، وعبادة للسلطة ، وعزوف عن التأمل الغيبي والاستعراق الفلسفي ، إلى واقع شديد بظواهر القوة وذخارف المظنة ، واستكناه دقيق لاسرار السلوك العملي ، وعرامة بيّنة في الأخلاق والمعاملة ، إلى تأثير محيق - ولكن آتي - بحيال المرأة وأنوثتها ، إلى انسياق عفوي مع التيار الفكري العام ، فهو يمثل لنا ، بما ظهر من شخصيته ، صفحة الوثنية العربية التي طواها الإسلام ، وكان عنيفاً عليها ، شديداً في محاربتها ...

وأغرب مما في الوثنية العربية من ظواهر ، هو ذلك « الشعب » بالبيان الذي لا نجد له مثيلاً عند أمة من الأمم ، ولا في بيئة من البيئات . وحسبك دليلاً على قسوة البيان في نفس العربي أنه لم ينتقل من الوثنية إلا حين فرى عليه القرآن ، فأخذ بما فيه من روعة البيان وسحر البلاغة ، قبل أن يؤخذ بما يحمل إليه من تعاليم وافكار . فكان إيمانه استجابة للحس البياني أكثر منه تلبية لشعور ديني عبث له القرآن عنه . فمن أقوال العرب القديمة التي تصور عقليتهم أفضل تصوير قولهم : « أخذ من الرمية كلمة فصيحة . »

وجاء الإسلام فمحا كل ما يمت إلى الوثنية بنسب ، ولكنه لم يمحَ هذه العقلية البيانية التي لا تتأثر إلا بالكلمة الفصيحة ، بل

فعل عكس ذلك تماماً ، اي زاد العرب تعلقاً بالكلمة ، وبني على هذا الاساس بناء الشامخ في حياتهم وكيانهم ومجتمعهم .

ثم جاء الحجاج الوثني بروحه ، الوثني بكيانه الاخلاقي ، الوثني بنظره الاجمالية للحياة ، فكان يحكم وتنبه هذه علماً مسن اعلام البيان والفصاحة . وما كانت استشهاده المنكورة بآيات القرآن عن ايمان ، وانما هي توكيد للجانب الجمالي من وتنبه ، لان استشهاد الولاة بالقرآن في عهده كان « موضة » يتزينون بها ، ووسيلة قوية نافذة للتأثير في نفوس السامعين ، ان لم تكن اقوى الوسائل واتقدها ، وذلك بالاضافة الى ان وثني العرب لم ينكروا على القرآن بلاغته ، ولا رأوا فيه إلا كل ما يدعوهم الى الانجاب ويحملهم على الازعان ، فكيف بهم وقد انتحلوا الاسلام وحلوا لوائه وجعلوا من انفسهم اولياء المؤمنين ، وأئمة المهتدين ؟

نأمل ان الوليد بن عبد الملك دعا الحجاج ، في رفدة وفدها عليه بعد استخلافه ، الى تناول شيء مسن الخمر . وكان الحجاج يتنوع عن الشراب ، فقال له : « يا امير المؤمنين ! ايس بحرام ما أحسنه ، ولكنني امتع اهل عملي عن الخمر ، واكره ان يخالف قول العبد الصالح : وما اريد ان اخالفكم الى ما انهاكم عنه . » وتأمل انه كتب الى عبد الملك مرة يقول له : « ان خليفة الله

في ارضه اكرم عليه من رسوله اليهم ... »

لم يكن الحجاج ، اذن ، في قرارة نفسه ، غير وثني . ولكنه وثني مكبوت ، لا يستطيع ان يظهر للناس حقيقته ، ففي حقيقته هلاكه . ومن اعماق هذه الوثنية كان ينضج ادبه ، اذ نشأ في نفسه صراع امتد فيما بعد الى خارج النفس ، فتعوتل صراعاً مع الناس ،

وانقلب على بمر الأيام الى قلق داخلي لا يشفيه إلا التعبير ، ولا يخفف من حدة غير الكلام ، ولا يروح معه الا للحديث والمطارحة والجدال ، ولذلك هي حال الاديب عينا وقاماً .

وانك لتعجب حتى لا ينهي تعجبك حين تلحظ ان الحجاج لم يكن مرة « انساناً » الا مع الادباء الذين يجلبون اليه ، او يستمعون لتباعه بنكتة تبدر منهم ، او كلمة بليغة يدافعون بها عن انفسهم ، او فكرة جديدة لم تخطر له على بال .

ويلاحظ كل من يتتبع موافقه او يستقريه نفسيته خلال نصراته ان ذهنه مليء بعلامات الاستفهام والاسئلة عن الرجال وطبائعهم ، والنساء واحوائهن ، والنعم وكيف يكون ، والعظمة وكيف يفهمها الآخرون ... اذ كان يستجوب الادباء والفقهاء والبلغاء من الاسرى والمحكومين استجابات تدل على نوع المشاكل التي يفكر فيها ، وهي مشاكل انسانية عامة اولاهها الادباء والشعراء كل جهودهم ، وكانت مدار آثارهم ، ومحور افكارهم . وليس تفكير الحجاج بها ذلك التفكير المتصل الاثو كيداً لأصالة النزعة الادبية في نفسه . وهذه النزعة لا تتأكد في ما كان يعاني من تفكير وحسب ، وانما تجدوها واضحة في ما انتج من رسائل ودبج من خطب ، وانتقد من شعر ، ونظم من قصائد ، لانه كان ينظم بعض الاحيان وينتقد الشعراء .

اما أسلوبه فقد كان عنيفاً ، صاخباً ، هداراً ، يلجأ فيه الى الكلمات الضخمة ، والصور القوية البسارزة ، والعبارات الموجزة ، الجزلة ، الشديدة في وقعها ، ولا غرابة في ذلك ، « فالأسلوب هو الرجل » .

وقد يكون فياذكرة من خطبه ورسائله وكلماته الائمة الكافية
على مناهج بيانه وطريقة أدائه . واني لاحسب في هذه الرسالة
القصيرة ، التي بعث بها الى قوم من الأعراب ، وقد بلغه انهم
يقطعون الطريق ، مثلاً يحمل صورة بحمة عن ادب الحجاج كله ،
بما فيه من خصائص فكرية وبيانية . كتب اليهم يقول : « أما
بعد ، فانكم قد استخفتم الفتنة ، فلا عن حق تفانقوت ، ولا عن
منكر تهون ، واني اتم ان ترد عليكم مني حبل تفسف الطارف
والنالد ، وتندع النساء ابامى ، والابناء بنامى ، والديار حراباً ... »
فلما انهم كتابه كفتوا عن قطع الطريق .

هذا ما كان من امر رسائله وتأثيرها في نفوس قطاع الطرق !
وذلك هو تأثير خطبه في نفوس العامة والخاصة على السواء .
وكان يطارح الادباء والشعراء ، ويصدق عليهم العطاء ، ويرفع الى
مسايرتهم وابحاثهم ويشاركهم في آرائهم الادبية ، وندوفهم للشعر
والغناء ، حتى ليشاءل المرء ، حين يراه في جلسة ادبية ، قائلاً :
« اصحيح ان هذا ... هذا الذي يتلقى الشعر بهذه الحاسة والاربعية ،
هو الحجاج هو ... وليس امراً غيره ؟ »

ولكن الحجاج لم يكن ليولي الادب والادباء تلك العناية ،
او ليستغرق في سماع الغناء ذلك الاستغراق ، الا ابتعاداً عن نفسه
ونهرباً من حياته الشخصية .

٥ - حياته الشخصية

... والحجاج حيوان سياسي .

تجلى حيوانيته لعينيك في أكثر ما رشح البنا من احواله الشخصية ومظاهر سلوكه الخاص ، مما يدعونا الى التفكير في ان سره الشخصية العامة لم يكن لها من حركات اولية او بواعث اساسية غير الحصول على اكبر كمية ممكنة من وسائل المتع والذائد المادية شأنه في ذلك شأن كل رثي بروحه وعفانده . وإلا ... اي ان لم نفترض هذا الافتراض فيفسر تلك السلسلة من الظواهر المستع في مارق دفتق حين نحاول تفسير تلك السلسلة من الظواهر الشاذة في كيانه النفسي .

نحن نعلم انه لم يكن ذا مثل اعلى يصير الى تحفيقه ، ويجهد في الوصول اليه ، اي انه لم يشد الحكم او السلطة خدمة مذهب اجنامي معين ، او فكرة مثالية معينة ، او مبدأ روحي معين على نحو ما فعل اي خارجي في عهده . ونعلم انه فتك بالآلاف ، ان لم يكن بعشرات الآلاف ، دون ان يقدم لنا عذراً يجهده هو معقولاً يور به فتكه . كل ما يمكن ان يقال في امره انه وضع نفسه ، من تلقاء نفسه ، تحت تصرف عبد الملك ، وقفاني في خدمته وارضائه . ولكن لماذا ؟ وما كانت غايته ؟ ذلك هو السؤال ...

لقد اجاب الحجاج عليه عملياً بما كان من امره بعد ان حكم ، وبعد ان تغلب على اخصامه ، وبعد ان اتسع سلطانه . اجاب عليه بما اخط لنفسه من مناهج طبقها في سياسته العامة وحياته الشخصية ، فاذا هو لا ينبغي اكثر من ان يعيش آمراً ناهياً متمتعاً باكثر

قسط من الرغد والراحة ، محاطاً بأوفر عدد من اهل واقارب ،
مسترسلاً مع غرائزه وشهوانه .

لذلك ... لذلك اعتزل اهل العراق ، وابتنى مدينة خاصة به
وبجرسه . واقام في قصر كاتف بيت المال ملايين الدنانير ، حشد فيه
النواعم القبيدة من الجوارى ، والاطايب من المأككل . وراح يقرب
من شاء من الرعية ، ويبعد من شاء ، ويوظف اقاربه ، ويعلي من
شاها ، ويسلق الخليفة واهله ، وولى اخاه اليمن ، وزوج اخته زينب
من الحكم بن ايوب وولاه البصرة ، ثم ولى شرطة البصرة
مكاري زينب الذي نقلها من الحجاز الى الشام عندما كانت عروساً ،
وعين قريه محمد بن القاسم الثقفي قائداً على الجيوش التي وجهها
لغزو الهند ، وزوج ابنة اخيه من يزيد بن عبد الملك . ولم يترك
كبيراً او صغيراً من بني ثقيف الا واكرمه واغدى عليه عطايه .
اما غرامه بالنساء فلم يكن غراماً بالمعنى الشائع المعروف .
كان يسمع بالمرأة او بالفنائة فيخطبها ويتزوج ، حتى اذا قضى منها
لباته طلقها واستعاض عنها بغيرها ، ولكن بيته لم يخل ، بعد ان اقام
في واسط ، من ثلاث نساء على الاقل . وهكذا ... عاش حياته
يتزوج وينطلق . تزوج ابنتي النعمان بن بشير وطلقها . وتزوج هند
بنت المهلب بن ابي صفرة وطلقها . وتزوج هند بنت اسماء بن
خارجة وطلقها . وتزوج بنت عبدالله بن اسيد اخت خالد الذي
ولي الكوفة في ايام بشر بن مروان وطلقها . وهناك امرأة اسمها
« الفارسة » لا يذكر التاريخ من امرها سوى انه تزوجها كعادته
وطلقها كعادته .

ولم يكن الحجاج يصدّر في زيجاته هذه عن حب او لعاطف

او تشبه محض ، وانما كان الجانب السياسي يلعب دوره في كل منها . واعني بالجانب السياسي ، في زواج رجل كالحجاج ، ذلك العنعنات بين القبائل والحزازات بين الاسر . فهو لم بخطب زوجة عبدالله بن الزبير بعد ان صلبه إلا من قبيل النكابة والتشفي ، فأخفق . وكانت اخفاقه هذا عاملاً كبيراً في حياته مع المرأة ، ونظره الى المرأة . وهو لم يتزوج من عند بنت اسماء بن خارجة الذي سجنه فيها بعد وعذبه عذاباً نكراً ، إلا انتقاماً من بني فزارة وهم اهل امرأة ابن الزبير التي رفضت يده بكبر وإباء .

وعلى هذا الاساس خطب ابنة عبدالله بن جعفر بن ابي طالب . فقد كان بوذ التباهي بعلو المنزلة التي بلغها ، اذ يقول الناس عنه انه اصبح صهر الهاشميين في جانب ، وليذل الهاشميين حين يكرههم على تزوجه في جانب آخر . ولكن عبدالله بن جعفر استنهل صهره الجديد سنة في نقل ابنته فأمهله . ثم اتصل بعبد الملك ، عن طريق خالد بن يزيد ، معلناً سخطه وسخط ابنته على هذه النهاية المحزنة التي انتهت اليها بنو هاشم على يد الامويين . فما كان من عبد الملك الا ان امر الحجاج بتطبيقها فطلقها .

إزاء هذه الحياة المنزلية المضطربة ، كانت حركاته العامة في المجتمع فخلق له الوسوس والاضطراب ، فعاش أيامه عابساً ، فلق الحاطر ، ضئيل الاحساس بالسعادة ، رغم ان وسائل الرفاهية توافرت لديه على احسن ما يمكن ان تتوافر لانسان . وقد رزق اربعة اولاد وابنة تزوجها فيما بعد من مروان بن الوليد بن عبد الملك . ولكن ابنه أبان هلك في حياته . اما ابنه عبد العزيز فقد قتله مروان بن محمد بن مروان في اواخر الدولة الاموية .

بيد ان البلاء الذي كان يعالجه الحجاج ، والذي جعله دائم الهمّ والعبوس ، لم ينشأ عن ظروفه العائلية ، ولا عن النكبات التي نزلت به ، وانما هو وجدانه ، الذي كان يسلّط في فترات يعيش بعدها في جحيم بما ينهال على ذهنه وخياله من خواطر مقلقة ، وصور مفزعة ، ونهاويل مصبوعة بالدم ، فائرة كالنتور . فكان يطلق نساءه نتيجة حلم رآه ، ويأمر الناس بخلق طاهم ، ويعاقب من يخالفه بتسميره في الحائط نتيجة تخوفه من شخص استشر له هبة في نفسه حين رأى لحينه ، ويقدم على اعمال لا يمكن اعتباره معها موزوناً بحال من الاحوال .

وبلغ به التشاؤم في اواخر أيامه درجة كان يهذي معها بالموت ، اذ مرض واشتد عليه المرض . فتنفس اهل الكوفة الصعداء ، وايقنوا ان نهايته دنت . ومنهم من نشر في البلاد خبر موته قبل اوانه حتى بلغ سامعه . فتعامل على نفسه ، وتجلد ، وخرج الى المسجد ، وخطب : « ... ان اهل الشقاق والنفاق تفخ الشيطان في مناخرهم فقالوا : مات الحجاج ، ومات الحجاج ، والله ما ارجو الخير كله الا بعد الموت ... »

واكبر الظن ان الحجاج مرض لاسرافه في تناول المأكّل . فقد حدث عنه الرواة انه كان اכולاً غيماً ، يتفق من الاموال على ولائه ما لا يكاد يصدق ، اذ كان يصنع في كل يوم الف خوان في رمضان ، وفي سائر الايام خمسمائة خوان ، على كل خوان عشر ائس وعشرة ألوات وسمكة مشوية وأرز بكر . ولم يكن يسمح لعراقي بمؤاكلته . فاعل الشام دون - واهم كانوا منادميه ومعاشره . ولأهل الشام ارتياحه ، وفي سبيلهم بذله وإنفاقه .

في اوائل شهر رمضان عام ٩٥ هـ. طلب الحجاج سعيد بن
جبير لمقابلته ، فجيء به من السجن ودارت بين الرجلين محاوره
ابدى بها سعيد - وكان معروفاً بالتقوى والصلاح - جرأة بالغة
وايماناً رائعاً ، فلم يمالك الحجاج ان يصفح عنه ، وامر بضرب
عنقه ...

وفي العشرين من رمضان اشتد المرض على حاكم العرافين ،
وطيف سعيد بلاحقه ، وندمه على قتله يقوى ويشتد ، فلا يجلس
للمائدة الا ويستهله امامه ، ولا ينام الا ويراه في حلمه ، ولا
يتحدث اليه عواده الا ويتلمس وجوده بينهم ، ولا يسمع صوتاً
الا ويحسبه صوت سعيد .

وفي الخامس والعشرين من رمضان تقدم منه طييبه «نيودوكوس»
الذي كان يسهر على صحة كسرى من قبل ، وجس نبضه ، فاذا هو
امام جثة هامدة .

وذاعت البشري ، فتناقلها الناس ساجدين لله في الشوارع
منائلين :

- ما الخبر ؟

- مات الحجاج ...

- شكراً لله !

بعد الحجاج

١ - نقمة وملل

لم تكن سيرة الحجاج لتثير ، في نفوس العامة والخاصة على السواء ، غير السخط والذم والالم ، على الرغم من كل ما انشأ واصلاح وفتح في اواخر عهده .
صحيح انه وفق الى ضبط الامن ، وصحيح انه وحد اجزاء الامبراطورية العربية آنذاك ، وصحيح انه استطاع ان يخضع الثائرين على السلطة الاموية من كل جنس وبلد ، ولكنه عطل القيم الروحية في الامة ، واساء الى المجموعة العربية اسماء لا تزال تعاني آثارها وتكابد اوجاعها الى يومنا هذا ...
هو هو الذي غذى العصية الاقليلية في نفوس الشاميين والعراقيين والحجاريين ، وجعلها بركاناً ينفجر بالاذى والضعيفة .
هو هو الذي مهد للاجانب سبل الانتفاض على السلطات العربية بما اظهر نحوه من شراسة ، وعمل على اذلالهم وتفجيرهم .
هو هو الذي فبض عليه الاجانب حجة في ايديهم للنيل من صلاح العربي للحكم ، والغرض من شأنه في مراس الاستقلال .
هو هو الذي بث التخاذل ، وعمم روح الدس بين أبناء البلد الواحد ، والفكرة الواحدة ، والروح الواحدة .

فعل كل ذلك ليعلم عبد الملك أولاً ، وابنه الوليد ثانياً ،
وليزيح من طريقها كل من تحدثه نفسه بالحكم ، وكل ما يمكن ان
يزعزع سلطانها . وهدفه الحقيقي الابد ان يكون هو نفسه ، اي
الحجاج ، والياً طيلة حياته .

هذا الاخلاص للخليفة المشوب بالمنفعة الشخصية ، هذه الحماسة لا يلاء
الوليد اماراة المؤمنين بعد ابيه ، هذا الطغيان في القسوة على
المحتولين المنكسرين من اخصامه ، هذا الفتك العنيف بالابرياء
والعصاة على السواء ، هذا الافذاع في لسانه ، هذه المحابة في معاملة
اهل الشام ، هذه الحياة الشخصية الحافلة بالتظاهر الزائف والبخ
الارعن والتجبر البغيض والاستهانة بالناس - هذه الاحوال والمظاهر
كلها جعلت العامة في حالة من الملل حملها على ازدراء كل شئ
حتى وجودها . فلم يبق للناس مثل اعلى يخدمونه ، ويجهدون في
التضحية من اجله ، وارندوا الى حيوانية جامدة يتقلبون منها في
بلاء نافع ، لا لذة في مناضله ، ولا مجد في الانتصار عليه ، ولا
طاقة لاحد بحمله . فكان هم الرجل ان يؤمن قوته ، او يخلص
من وشاية ، او يحبط سعاية ، او يبعد عن عين الجواسيس ، او
يفتر من وجه الشرطة ليعيش في امان . وكان هم المرأة ان لا
بشارك زوجها او اخوها او قريبها او حبيبها في الحياة العامة
كي لا يضرب الحرس عنقه ، او كي لا يزج ابد حياته في غياهب
السجن .

اما الفقهاء والقراء والشعراء ورجال العلم والادب فقد تفرقوا
في البلاد بين مهاجر ضرب في الارض لا يرجو غير رحمة ربه ،
وخائف اطلق لسانه في مدح الامويين وغلق ولائهم ، وثائر بحقه

السيف أو حجب السجين ، وثالك انطوى على نفسه في صومعة منعزلة يستجدي الاكف المحسنة وزقه ، ويدشد الموت في اقرب مهلة .
 تلك كانت حالة السواد الاعظم من ابناء الرعية ... ولما كان
 النقة في اوساط الخاصة كانت تشد يوماً بعد يوم ، وكثيراً ما
 اظهر افرادها قتلهم وسخطهم في غمعات خافتة ، وفتحات غامضة لا
 تكاد تبين لعيق الهوة التي حفرها الحجاج بين الراعي والرعية .

وكان سليمان بن عبد الملك اول الناقبين على تلك السياسة التي
 اتبعها جيتار^١ نقيب . وكان اول من تجرأ على مضارحته ، اذ كتب
 اليه مرة يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم . من سليمان بن عبد الملك
 الى الحجاج بن يوسف . سلام على اهل الطاعة مسن عباد الله .
 اما بعد ، فانك امرؤ مهنوك عنك حجاب الحق ، مولع بما لك لا
 عليك ، منصرف عن منافعك ، تارك لحظك ، مستخف بحق الله
 وحق اوليائه ، لا ما سلف اليك من خير يعظفك ، ولا ما عليك ،
 تصرف في مهمة من امرك ، لا تسكت عن فيج ، ولا ترعوي
 عن بسافة ، ولا ترجو الله وفاراً حتى دعيت فاحشاً سبباً . فقس
 شبرك بفثورك^٢ . وايهم الله لئن امكنتني الله منك لأدوستك
 دوسة^٣ تلين منها فرائصك ، ولاجعلنك شريداً في الجبال ، تلوذ
 باطراف الشمال ، ولاعلقن الرومية الحمراء^٤ بشديها . علم الله ذلك
 مني ، فقدماً غرتك العافية وانتحييت اعراض الرجال ، فانك قد دبرت

١ قاس شبره بفثوره : مثل يقال ان يضع نفسه في مقامها ولا يتجاوزها .

٢ يعني بها زئيب بنت يوسف احت الحجاج ، وانما عبر عنها بالرومية الحمراء لانها
 كانت شقراء بيضاء تشبه بنات الروم . والمرب يصفون به « الحمراء » كل امرأة ذات
 جمال العجبي .

فبذخت ، وظفرت فتعديت . فرويدك حتى تنظر كيف يكون
مصيرك ، انت كانت لي وبك مدة اتعلق بها ، وان نك الأخرى
فأرجو ان توؤل الى مذلة ذليلة ، وخزيرة طويلة ، ويجعل مصيرك
في الآخرة شر مصير .

ويليه في هذه النقمة عمر بن عبد العزيز ، ولكن على صعيد
اسمي واشرف ، فما انفك يذكر عبد الملك بساوى الحجاج ومظالمه ،
ويعمل كل ما في وسعه للتخفيف من وطأته .

ولما ولي الوليد بن عبد الملك استعمل عمر على المدينة ، فكان
يوثي المهاجرين العراقيين من الظلم ، ويوزجي رسائله الى
الخليفة في دمشق بخبره بطغيان الحجاج وجوره . ولكن الحجاج
سعى الى إبعاده ، وبذل جهده في تنجته ، فتعاد الوليد . ومع بلغه
امر عزله قال : دلو جامت امة بئافئها ، وجئت بالهجاج وحده
لفضلناهم !

ويحكى عنه انه ذكر لديه الموقف السياسي العام بعد عزله ،
فصرخ من اعماق قلبه : « الحجاج » بالعراق ، والوليد بالشام ، وعنان
بالمدينة ، وقرّة بصر ، وخالد بمكة ! اللهم قد املت الدنيا ظلماً
وجوراً ، فأرج الناس !

ولم تكن تلك النقمة مقتصرة على الرجال دون النساء ، او على
الطبقة الحاكمة دون الحكومة ، وانما كانت شاملة عارمة . تأمل
هذه الحكاية :

قدم الحجاج على الوليد بن عبد الملك ، فدخل وعليه درع
وعمامة سوداء وفوس عربية وكشانة ، فبعثت اليه (الى الوليد)

أم البنين بنت عمر بن عبد العزيز ، فقالت :
 - من هذا الاعرابي المستلثم في السلاح عندك ، وانت في
 غلالة ؟

فأخبر الرسول : بأنه الحجاج ، ثم نقل للحجاج لما قاله أم
 البنين ، فقال هذا :

- دع عنك مفاكمة النساء بزخرف القول . ولا تطلعها على
 سرك ومكايدة عدوك . فانما المرأة ربحانة وليست بقهرمانة .

فلما دخل الوليد أخبرها بمقالة الحجاج ، فقالت :
 - يا امير المؤمنين ! حاجني اليك ان تأمره غداً بان يأتي
 مسئلاً .

وجاء الحجاج في اليوم التالي فعجبته ، ثم ادخلته ولم تأذن له
 بالعودة ، فلم يزل قائماً ، ثم قالت له :

- إيه يا حجاج انت الممنوع على امير المؤمنين بقتل ابن الزبير
 وابن الاشعث ؟ اما والله لو لا ان الله عم انك شر خلقه ما
 ابتلاك برمي الكعبة الحرام ، ولا بقتل ابن ذات النطاقين ؟
 اول مولود في الاسلام . واما نبيك امير المؤمنين عن مفاكمة
 النساء وبلوغ اوطارهن منهن ، فان كنت ببلدن مثلك فما احقه

١ استلثم : ليس الامة وهي الدعوى وحواشيها مسنوعة الحرب : ربح وبيضة
 (حودة) ومغفر وسيف وجبل .

٢ شعار تحت التوب .

٣ القهرمان : الحازن والوكيل الحافظ له تحت يده .

٤ ذات النطاقين : اجاء بنت ابي بكر ، ام عبد الله بن الزبير ، وقد اطلق
 النبي عليها هذا لقب .

بالقبول منك اوان كنى بدين مثله فهو غير قابل لقولك ! اما
والله لقد نفى نساء امير المؤمنين الطيب من غداثرهن ، والحلي
من ايديهن وارجلهن فبعه في اعطية اهل الشام حيث كنت في
اضيق من القرن ، وقد اظلمت رماحهم واتخذت كفاحهم ، وحين
كان امير المؤمنين احب اليهم من آبائهم ، فانجباك الله من عدو
امير المؤمنين بحسبهم اياه . قاتل الله القاتل حين نظر اليك ومسان
غزاة^١ بين كنفيك :

أسد علي ، وفي الحروب نعام^٢ فتخاء تنفر من صغير الصاغر^٣
هلا^٤ كررت على غزاة^٥ في الوغى بل كان قلبك في جناحي طائر
ودخل على الوليد ، بعد تركته ، وسأله :

- ما كنت فيه يا حجاج ؟

- يا امير المؤمنين ! ما سكنت حتى ظننت نفسي قد ذهبت ،
وحتى كان بطن الارض احب الي من ظهرها !

ودرى احد الامرى الحديث التالي : « كنت في حبس الحجاج ،
فحبس معا رجل ، فاقام حبسا لا ينكلم بكلمة حتى كان في اليوم
الذي مات الحجاج في الليلة التي تليه . اقبل غراب في عشية ذلك
اليوم ، فوقع على حائط السجن فذمق . فقال الرجل :

« - ومن يقدر ما يقدر عليه يا غراب ؟ »

« ثم نعى الثانية فقال :

١ القرن : الحمة من الجلود تكون مشقوقة ، ثم تحوز .

٢ غزاة : هي امرأة شبيب بن يزيد النيباني وقد ايتت بلاء رائعا في الحرب الى
جانب زوجها .

٣ الفتخاء : الناقة ارتفعت اخلافا قبل بطنها ، وهو مذموم .

« - مثلك من بشر بخير يا غراب !

« ثم نطق الثالثة ، فقال :

« - من فيك الى السماء يا غراب !

« فقلت له : ما سمعناك تكلمت منذ جئت الى الساعة ، فما دعاك

الى ما قلت ؟

« - نطق الغراب في الاولى فقال : اني وقفت على ستر الحجاج

فأجبت : ومن يقدر على ما تقدر عليه .

« وقال في النعقة الثانية : ان الحجاج اصابه وجع ، فأجبت :

مثلك من بشر بخير . وقال في الثالثة : الليلة يموت . فكان

جوابي : من فيك الى السماء .

« ثم تابع السجين الصامت حديثه :

« - ان اذلخ للصبح قبل ان اخرج فليس عليّ بأس . وإن

دعيت قبل الصبح فستضرب عنقي ، ثم تلبثون ثلاثاً لا يدخل عليكم ،

ثم تدعون في اليوم الرابع ، فينف على رؤوسكم بالكفالة ، فمن وجد

له كفيلاً حلى سبيله ، ومن لم يجد له كفيلاً فويل له طويلاً .

« وكان كما قال ... »

وجرت للحجاج مع عمارة بن قيس النخعي ، الذي جاءه الحسن

الجهاد في ثورة ابن الأشعث ، قصة تدل على النعمة التي بها لها لدى

الأشخاص الذين اعانوه ونصروه ، بله الذين حاربوه .

عزم الحجاج على المضي الى عبد الملك فاخرج عمارة معه ، فلم

يزل بلطف بالحجاج في مسيره وبعظه حتى قدموا على الخليفة . فلما

قام الخطباء بين يديه ، وأثنوا على الحجاج ، قام عمارة فقال :

« يا امير المؤمنين ! سل الحجاج عن طاعتي ومناصحتي وبلائي !

فقال الحجاج :

- يا امير المؤمنين ! صنع كذا ، وصنع كذا ... ومن بأسه
كذا ... ومن ليجده كذا ... هو عين الناس نقيبة ، واعلمهم
بتدبير وسياسة .

فقال عماره :

- أرحمت يا امير المؤمنين ؟

- نعم ! رضي الله عنك .

وكرر عماره - مؤاله ثلاث مرات ، وكرر امير المؤمنين
جوابه مثلها ، فقال عماره :

- لا رضي الله عن الحجاج يا امير المؤمنين ! ولا حفظه ولا
عافاه ! فهو - والله - السيء التدبير الذي قد افسد عليك اهل
العراق ، وأتعب عليك الناس ، وما أنبت إلا من قلة عقله ،
وضعف رأيه ، وفلة بصره بالسياسة ، ولك والله امثاله ! إن لم
نعزله .

فقال له الحجاج ، وقد اصفر وجهه ، وجف ريقه في فيه :

- نعم يا عماره !

- لا مه ولا كرامه ...

ونزل عن المنبر ، ولم يذهب الى العراق الا بعد وفاة الحجاج .
وشبه بهذه النقيبة التي تجلت في سلوك الاعوان وابناء البيت
المالك والافارب والاصدقاء ، شبه بها خروج اولاد المهلب بن ابي
صفرة عليه ، والمهلب هو الذي انتقم من الخوارج ودحرهم ببواعثه
وسهره واجتهاده ، وانتفاض اكثر العمال والولاة والقادة والجنود
والفقهاء .

ولم تطل أيام الوليد بعد هلاك الحجاج أكثر من شهر ،
 فنسب العرش سليمان بن عبد الملك ، وراح يأمر الناس بشتم الحجاج
 علناً ، ويذيع فيهم مثاليه ، ويحملهم على نشرها والنبرؤ منه ومنها .
 وما كان سليمان ليسلك هذا المسلك استجابة لحقد شخصي حده في
 نفسه على الحجاج فحسب ، وإنما كان يتقرب إلى رعيته بالتعرض
 له والشهر به ، حتى بلغ في ذلك درجة كانت تضحك الناس ،
 وتبيل الولاة . فقد صعد خالد بن عبد الله القسري المنبر في يوم
 جمعة ، وهو إذ ذاك على مكة ، فذكر الحجاج وحده طاعته ،
 وأثنى عليه .

فلما كان في الجمعة الثانية ورد عليه كتاب سليمان بن عبد الملك يأمره
 فيه بشتم الحجاج ، ونشر عيوبه ، وإظهار البرائة منه . فصعد المنبر ،
 فصعد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « إن إبليس كان ملكاً من الملائكة
 وكان يظهر من طاعة الله ما كانت الملائكة ترى له به فضلاً ،
 وكان الله قد علم من غشه وخبئه ما خفي على ملائكته ، فلما أراد
 الله فضيحه أمره بالسجود لآدم ، فظهر لهم ما كان يخفيه عنهم ،
 فلعنوه . وإن الحجاج كان يظهر من طاعة أمير المؤمنين ما كنا
 نرى له به فضلاً . وكان الله اطلع أمير المؤمنين من غشه وخبئه
 على ما خفي عنا . فلما أراد الله فضيحه ، أجرى ذلك على يدي
 أمير المؤمنين فلعنه . فلعنوه ! لعنه الله ! » ثم نزل .

وعندما قدمت وفود العراق على سليمان بن عبد الملك لتهنئته
 بالخلافة أمرهم بشتم الحجاج ، فاخذوا ينبارون في شتمه . ووقف
 أحدهم فقال : « إن عدو الله كان عبداً زبانياً ، قنوز بن قنوزة ،

لا نسب له في العرب . « وقام ابن أبي موسى الأشعري ، فقال :
« كان عدو الله يتزين تزين المومسة ، ويصعد المنبر ويتكلم بكلام
الانخبار ، فإذا نزل عمل عمل الفراغة ، وكان اكذب في حديثه
من الدجال . »

ثم لم يكنف بشتمه والنشير بعبوبه ، وإنما أوغل بعد ذلك في
الاقتصاص من اصفياه ومريديه ، وامعن في التشكيل بهم ، اذ
امر يزيد بن مسلم ، مولى الحجاج ، فجيء به مقيداً . وكان دميماً ،
ضليل الهيكل ، زري المظهر ، فلما رآه سليمان قال له :

— لعن الله امرأ اجرك وسنك ، وولّى مثلك .

— يا امير المؤمنين ! انك رأيتني والامر عني مدير ، ولو رأيتني
والامر عليّ مقبل لاستعظمت من امري ما استصغرت ، ولا استجللت
ما استحققت .

— ابن ترى صاحبك الحجاج ؟ أهوي في النار أم استقرّ في
قعرها ؟

— يا امير المؤمنين ! لا تقل هذا ! ان الحجاج فسح لكم
الاعداء ، ووطأ لكم المناير ، وذرّع لكم الغيبة في قلوب الناس ...
وبعد ، فانه يأتي يوم القيامة عن بين ايديك عبد الملك وشمال اخيك
الوليد ، فضمه من النار حيث شئت .

فصاح به سليمان :

— أخرج الى لعنة الله !

ثم التفت الى جلسائه :

« اجروه ومنه : تركه يصنع ما يشاء . »

— فتبعه الله ما كان احسن ثوابه لنفسه ولصاحبه .

ولكن نعمة سليمان بن عبد الملك على الخجاج تأثرت حتى الخجاج نفسه في نعماته ، فراح يسفك دماء الابرياء من انصار عدوه ، وبأقي من الشكرات والفظائع ما لا يختلف في شيء اسداً عن فظائع ذلك الذي يحمل عليه ويندد بسفوكه ، فقتل مسلم بن قتيبة ، وانح الصبي ، وقتل محمد بن القاسم فاتح الهند ، وتعقب حتى التارين عليه بوحشية وخرابة ، فكان سليمان اول نقيب المخرجه مدرسة الخجاج في الطفليان ، وان عاداه وثار في وجهه .

وسر هذه العداوة يكمن في موقف الخجاج من ولاية العهد في زمن الوليد ، اذ اخذ جبار نقيب يعمل ابام الوليد على جعل ولاية العهد لعبد العزيز بن الوليد ، محاولاً بذلك إقصاء سليمان عن الخلافة ، على نحو ما فعل ابام عبد الملك وأغراه بتنصيب ابنه الوليد ، وخلق تلك الازمة في قلب البيت المالك .

واذا كانت نعمة سليمان على الخجاج مشوبة بمحند شخصي عميق ، واذا كانت قد انتجت من الجراحات والمآسي ما لا يقل عن مآسي الخجاج نفسه ، فان نعمة عمر بن عبد العزيز الذي أستخلف بعد سليمان ، خالصة من كل شائبة ، وليس الباعث عليها او المحرك الاساسي في انبثاقها غير صلاح ابن عبد العزيز وفساد ابن يوسف .
يحدثنا ابن عبد الحكم^١ ان عمر دخل على الوليد فقال له :
— ان عندي نصيحة ، فاذا خلا لك عقلك ، واجتمع فمك

١ . انظر فصل « ادارة عمران » ، ص ١٨٥ .

٢ . سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ١٣٩ .

فلسني عنها .

- ما يمنعك الآن ؟

- انت اعلم اذا اجتمع لك ما اقول ، فانك احق ان تفهم .

فكنت اباماً ، ثم نادى الحاجب :

- يا غلام ! من بالباب ؟

- قاس وفيهم عمر بن عبد العزيز .

- ادخله وحده .

فدخل عليه ، فبادره الوليد :

- نصيحتك يا ابا حفص !

- انه ليس بعد الشرك اثم اعظم عند الله من الدم . وان

عمالك يقتلون ويكتبون لك : « ان ذنب المقتول كذا وكذا ... »

وانت المسؤول عنه ، والمأخوذ به ، فاكتب اليهم : « لا يقتل احد

منهم احداً حتى يكتب اليك بذنبه » ثم يشهد عليه . وبعد ذا

نأمر بأمرك على امر قد وضع لك .

- بارك الله فيك يا ابا حفص .

وكتب الوليد الى الامصار ، فلم يخرج من ذلك الا الحاجب ،

فانه أمضه^١ وشق عليه وأفض مضجعه وظن انه لم يكتب الى

احد غيره ، وراح يتساءل ويسأل : من اين ديهنا ؟ ومن اشار على

امير المؤمنين بهذا ؟ فأخبر ان عمر بن عبد العزيز هو الذي فعل ذلك !

وكانت من عمر حين أفض اليه الحكم ان راح يعمل على

١ حرج : ضاق .

٢ أمضه : آله وأوجهه .

تصيد الجراح ، وتهدة الخواطر ، وتسهل الأوجاع ، فعمد الى
 انقاذ المظلومين ، والاقتصاد بالاموال ، واطبق الشريعة تطبيقاً
 دقيقاً في كل شاردة وواردة ، فحبس العطاء عن الأمويين ، واطلق
 المساجين ، ومنع الناس من سب الامام علي في الخلوع ، وركن
 الى حياة البراءة والزهد والعدالة ، ومنع تزيين الجيوش لفتح
 البلدان ، وامر بإيقافها عند حد ، لان الناس وفدوا الغاية الاطمية من
 الجهاد ، وهي اداء رسالة ووحية ، واصبح القواد والولاة والعمال
 يارسون الحرب بروح هي الى الجشع وحب الترف الحرب ، مما
 يتنافى مع الشرح الصحيح ، ثم اخذ يحادل الخوارج ، وينقهم
 بجند من القضاة والعلماء ، فاملا ما امكنه على تجنب الصراع
 المسلح معهم ، فهدأت الحال بعض الهدوء ، واطمأنت الناس الى
 مصيرهم ، ووجدوا في الخليفة امس قدوة ، وخير عزاء .

ولكن اشرق السع على الراقع ، فلم يصح باستطاعة الخليفة
 - وهو فرد - ان يدفع الشرور ، او ينفي الاخطار المهددة بالامة
 من الداخل والخارج . ثم ان المدرسة الخجائية اخرجت امسوا
 العمال والولاة ، فلم يكن يكون من ابن عبد العزيز ، مها بلغت سطوته
 وعظمت مهابته ، ان يربي النفوس تربية جديدة لئلا يعلها على النزوع
 للعدل ، ومخاربة الظلم .

كانت الامة تسير في منحدر لا يمكن تدارك الزلافا فيها بحال
 من الاحوال ، لان الوثنية حققت في عشرين سنة من ولاية الخجاء
 انتصاراً ساحقاً ماحقاً لا ينفع معه زهد ملك ، ولا بطش سفاك .
 والناس ملتوا ، ولا يريدون اكثر من ان يعيشوا ، وان كفهم
 العيش كرامتهم وحريتهم ودينهم وما فيه من ثمن .

٢ - في المنحدر

اليك حكاية قاضي الحجاز في عهد عمر بن عبد العزيز :
 كانت رجل من أهل العراق أتى المدينة في طلب جارية .
 ومنذ وصل سأل عنها فوجدتها عند قاضي المدينة .
 وذهب يزور القاضي . فلما ان قرأ به المقام حتى سألته ان
 يعرض الجارية عليه ، فأجابته :

- يا عبدالله ، لقد أبعدت الثقة في طلب هذه الجارية ، فما
 رغبتك فيها ؟

- إنها تعني فتجيد .

- ما علمت بهذا فط !

فالتح العراقي في عرضها ، وأصر أن يراها . فجاءت ، فقال
 لها الفتى ، على مرأى ومسمع من مولاهما القاضي :
 - هات !

فاندفعت تعني :

إلى خالد ، حتى انحن بخالد فتعيم الفتى يرجى ، ونعم المؤمل
 ففرح القاضي بجوابته ووسر بغنائها ، وغشيه من الطرب أمر
 عظيم حتى أقعدتها على فخذه ، وقال : « هات صوتاً غيره ، بأني انت ! »
 فغنت :

أدورح الى القضاة كل عشية أروحي ثواب الله في عدد الخطي
 فزاد الطرب على القاضي ، ولم يدرك ما يصنع ، فأخذ نعله
 فعلقها في أذنه ، وجثا على ركبتيه ، وجعل يأخذ بطرف أذنه ،
 والنعل معلقة فيها ويقول : « اهدوني الى البيت الحرام . » واستمر

على هذه الحال ، في شبه غيبوبة من نشوته ، حتى ادمى أذنه .
فلما أمسكت عن الغناء أقبل على العراقي فقال له :

- يا حبيبي ! إنصرف ! قد كنا فيها راغبين قبل ان نعلم انها
تغني ، فنحن الآن فيها اوعب .

ومنذ عرف عمر بخبره عزله . ولكنه ما أسرع ما اعاده الى
عمله ، بعد ان سمع غناء الجارية الفاتنة .

تلك صورة واضحة من صور الحياة الاجتماعية في آخر القرن
الاول للهجرة . ففيها مثل نظرد على قياسه الامثلة للاجواء التي
خلقها الحجاج ، وساق اليها حتى القضاة والفقهاء والصالحين ...
أياً كان شأنهم ، وآية كانت منزلتهم .

ولكن الانحلال اخذ يظهر بعد عمر بن عبد العزيز بشكل
سافر يدق عن الوصف ، اذ ولي من بعده يزيد بن عبد الملك ،
فصرف همه ، كلّ همه ، في الجواري والشراب .

تعلق اول ما تعلق بسلامة القس حتى ملكت عليه لبة
واستأثرت بأوقاته ، فلم يعر الدولة أدنى اهتمام ، ولا فكر معها
بنظام ولا امن ولا شريعة ولا جيش .

ولم يرق هذا الغرام بسلامة إحدى نساء القصر - وهي جدة الخليفة -
فاحتالت بشراء جارية تدعى « حباية » كان يزيد قد اعتلقها فيها
مضى من أيامه . فأولع بحباية على نحو ما أولع قديماً بسلامة ،
وبالغ في اكرامها ومحبتها واقتناء النفائس من اجلها ، حتى سخر
بيت المال وكلّ ما في الدولة لرضاها والخطوة لديها .

ولما طفق الكيل جاءه اخوه مسلمة وقال له : « انما مات عمر
امس ، وكان من عدله ما قد علمت ، فينبغي ان تظهر للناس

العدل ، وترفض هذا الهوى ، فقد اقتدى بك عمالك في سائر أفعالك
وسيرتك ... فهذا مدة أظهر خلالها الندم وعمل على أداء
وظيفته كخليفة .

إلا أن هذا الصلاح لم يرض حبيابة ، فبعثت في طلب الأحوص
الشاعر ومعبود المعنى ، وشكت لها البلاء الذي نعليه في سيرة
الخليفة الجديد ، وقالت لها :

- انظرا ما أنشأ صانعان !

فما كان من الأحوص إلا أن نظم الأبيات التالية :
ألا لا تلمه اليوم أنت ينبتدا فقد غلب الخزوت أن ينبتدا
إذا كنت لم تعشق ولم ندر ما العوى فكن حجراً من يابس الصلد جلتدا
فما العيش إلا ما الله ونشتهي وإن لأم فيه ذو الشنان وفنتدا
ثم غناها معبد ، وأخذتها حبيابة ، فلما دخل يزيد قالت :
- اسمع مني صوتاً واحداً ، ثم افعل ما بدا لك ، يا أمير المؤمنين !
- هني .

- ألا لا تلمه ...

فلما فرغت من غنائها جعل يردد قولها :

فما للعيش إلا ما الله ونشتهي

وإن لأم فيه ذو الشنان وفنتدا

وعاد بعد ذلك إلى أهله وقصفه ، وأهمل شؤون البلاد والعباد ...
حتى إذا اعتلت حبيابة علة الموت أقام يزيد اباماً لا يظهر للناس .
فلما مالت أقام اباماً لا يدفنها جزعاً عليها ، حتى انتنت وملاّت
رائحتها القصر وغطت على المظفور ، فقبل له :

- إن الناس يتحدثون عن جزعك ، وإن الخلافة تجلّ عن ذلك .

عندئذ أمر بدفنها ، ووقف على قبرها وقال :

فإن نسلك منك النفس أو تدع أفوى

فبالياس تسلم النفس لا بالتجلى

وعاش بعدها ابناً قلباً ومات ... ويحكى عنه أنه جلس ذات

يوم وعنه حياة وسلامة معاً ، فطرب طرباً شديداً ، وقال لمن

حوله : « أريد أن أطير ! » فقالت له حياة : « يا مولاي افعل من

تدع الأمة ولدتها ؟ »

وكان من الطبيعي أن تعطرب البلاد في عهد هذا الخليفة

المجسم ، فثار آل المهلب ، وخرأ الكوارج ، وعم الفسق ، وانتشرت

المصوغة ، وبلغ الاجرام ذروة عنقه .

وإذا كان يزيد بن عبد الملك قد اولى بالساء ، فإن اخاه هشام

الذي ولي الأمر بعده اولى بالخبيل حتى اجتمع له في الخبة من

حيله وخبيل غيره أربعة آلاف فارس . فكان لا يهتبه من الدنيا

غير الجهاد ، ولا يفكر الا بالجهاد وما اليها من أدوات السلاح

واللبنة الزينة . فعم الناس ضرب من النظاهر الزائف والبدخ

المحطع ، واستحكمت الومة اقتصادية في عهده أنت على الاخضر

والياس .

وجرت بين هشام وزيد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب

معركة انتهت بقتل زيد . وكان يقود الجيش الاموي في هذه المرة

ايضاً رجل من ثقف اسمه يوسف بن عمر الثقفي . وإلى زيد هذا

يرجع الزيدون اليوم أمّة اليمن .

لم يكن يوسف الثقفي مجاربة زيد والقضاء عليه ، وإنما نبش

فبره واستخرج جثته وفصل الرأس عن الجسد وبعث به الى هشام .
فكتب اليه هشام يأمره ان يصلبه عرياناً . فصلبه وبنى تحت خشبته
عموداً . ثم كتب هشام ثانية يأمره باحراقه وذرره رماده في الرياح .
وكان هشام ، بالإضافة الى هذه القسوة الحجاجية ، بخيلاً مقترناً
على الرعية ، شرهاً في جباية الأموال ، حريصاً على اختزانها ، ولكنه
كان مع ذلك ذا رأي وفطنة في ادارة البلاد جعله يوطد ملكه
وغم الزعازع التي هبت عليه .

بيد ان العاصفة اخذت تهب ، ولاحق ثدورها في الافق ، ايام
الوليد بن يزيد الذي جاء بعد هشام ، اذ دب الانقسام في الاسرة
المالكة ، ونشأت العصبية بين التزارية واليهانية ، وضعف العنصر
العربي ، وقويت شوكة اهل خراسان ، بعد ان نزع اليها اكثرو
المعارضين .

اما سيرة الوليد هذا ، فلم تكن غير نسخة طبق الاصل عن
سيرة ابيه يزيد بن عبد الملك ، ولكن على شكل اخفم وأفخم
وآلم . ففي عهده خرج يحيى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي
ابن ابي طالب ، فسير اليه نصر بن سياراً سلم بن أخوذ ، فقتل
يحيى في المعركة بسهم اصابه في صدغه ، فولق اصحابه عنه يومئذ ،
واحتز رأسه فحُبل الى الوليد . وصلب جسده بالجوزجان ، فلم يزل
مصلوباً الى ان خرج ابو مسلم الخراساني صاحب الدولة العباسية ،
فقتل ابو مسلم سلم بن أخوذ وانزل جثة يحيى فطلى عليها ودفنت هناك .
نلك هي أبرز الحوادث السياسية التي اتبعت فيها خطى الحجاج .

غير ان يحون الوليد، وحبته للهو والقضاء، وتعلقه بالشراب والجواري،
وولعه بالحيل اشياء سبق بها الاولين والآخريين، جمع هذه الاشياء
الى اية الملك وتوقف النعمة، ولكن الى روح شعيرة تجعله من
المع شعراء العرب، ذا شاعرية من الدرجة الاولى.

جاءه النبشير بوفاة هشام، وسلم عليه بالخلافة، فقال:

اني سمعت خليلي	نحو الرصافة رثته
اقبلت اسحب ذيلي	اقول ما حافضه
اذا بنات هشام	يندن والدهته
يدعون ويلاً وعولاً	والويل حال بيته
انا المحدث حقاً	ان لم

بعد البيتين من نسبه العرش ارق فجعل يشرب ويقول:
طال ليلى وبنت اسقى السلافه واتاني نعي من بالرصافه
واتاني بيودة^١ وفضيب^٢ واتاني بخاتم للخلافه
وحدث له مرة ان فتح المصنف فوجدت عينه على الآية الكريمة:
« واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد. من ورائه جهنم وبقي من
ماء صديد »، فنصب القرآن غرضاً للنشأ واقبل يرميه وهو يقول:
أنوعد كل جبار عنيد فما انا ذاك جبار عنيد
اذا ما جئت ربك يوم حشر فقل: يا رب خرقني الوليد
وذكر له غير مؤرخ البيتين التاليين في ذكر النبي محمد، ينكر
عليه الوحي:

١ رودة التي كان يلبسها الخلفاء.

٢ فضيب التي التي كان يلبسها الخلفاء.

نلتب بالخلافة هاشمي بلا وحي افاه ولا كتاب
 فقل لله : بمعنى طعامي وفل لله : بمعنى شرابي
 وكان في اسطبله الف فارح من الخيل ، عني بها عناية جعلتها
 تسبق سائر الخيول . وكان ينظم الشعر في مدح افراسه السابقة ،
 ويقدم لها الخمر لتشربها على مرأى من الغنبن والندامى زيادة في
 اعظامها وتكريمها لها .

كانت ام هذا الخليفة الغريب الاطوار بنت محمد بن يوسف
 الثقفي اخ الحجاج ، وكان ندينه ونسبه طريح الشاعر بن اسماعيل
 الثقفي . فهو ابرز وجه وثي من ابناء الدولة الاموية .

رأى الامويون ان سيرة الوليد هذا تنافى مع كل فاعلة ، وانها
 اساءت الى المجمع اساءات لا سبيل الى التذكوت عليها ، وراوا
 من المظالم والموبقات والفضائح ما حمل الظامعين منهم بالحكم على
 نديير مؤامرة تودي به ، فاتفق يزيد بن الوليد بن عبد الملك مع
 جماعة من المعتزلة وأهل داريا والمزة في دمشق ، وقتلوه ، واستولى
 يزيد هذا على مقدرات الخلافة .

ولكن مدة ولايته لم تزد على خمسة اشهر اذ لقي حنقه في
 سن مبكرة . فنصب اخوه ابراهيم بن الوليد الذي تابعه الناس
 بدمشق ، وكانت ايامه عجيبة الشأن من كثرة المخرج والاختلاط
 واختلاف الكلمة وسقوط الهبة .

واستغل مروان بن محمد بن مروان الفوضى ، فاقبل من الجزيرة
 على رأس عصاية ، ودخل دمشق في جيش كبير ، فهرب ابراهيم ،
 ولكن مروان جد في طلبه الى ان قتله وحلبه ، وقتل معه عبد

العزیز بن الحجاج ، ویزید بن خالد القسري (والي سلیمان بن عبد
الملك علی العراق والحجاز) .

٣ - انهيار

كان لانشقاق الامويين فيما بينهم ، ونشوء الفرق السياسية من
معتزة وراوندية وغيرهما ، وانتشار الروح الوثني في سواد الناس
وابناء الاسرة المالكة ، وانقسام العرب الى تزاوية وثمانية ، وانتماء
السيف والصلاب والتحرير لدى كل مناسبة ، وغرض الحكم في
دمشق - كان لهذه العوامل مجتمعة ، وكما من مختلفات الحجاج ،
كل الب في إثارة التمرد على السلطة ونائب الاعجام على العرب .
في هذه الاثناء ، اي بين سليمان بن عبد الملك ومروان بن
محمد ، راحت العناصر المقهورة المغلوبة ، سواء في الداخل والخارج ،
تتكاثف وتندمجد . وكان أسلوب الحجاج الذي اتبع في قهر
الخصام هو السائد على الحكام والعمال والقواد . فيه قضى على
اولاد المطلب ، وعلى زید بن علي بن الحسين وابنه يحيى ، واليه
اتسب الامويون فيما بينهم حين أخذوا يتزاحمون .

وفي هذه الاثناء ايضاً نشأت الفرقة الراوندية التي نقول : ان
احق الناس بالامامة بعد النبي هو العباس بن عبد المطلب لانه
عم ووارثه ، وان الناس اغتصبوه حقه وظلموه أمره .

وعلى هذا الاساس نهزأ الراونديون من ابي بكر وعمر ،
واجازوا بيعه علي بن ابي طالب . فلما انتهت الاحداث الى ايام
مروان على ذلك الشكل الذي وصفناه ، كان الراونديون قد فترروا

الامامة على الوجه التالي : ١ - علي بن ابي طالب . ٢ - محمد بن الحنفية (ابن الامام علي) . ٣ - ابو عاصم بن محمد بن محمد بن الحنفية . ٤ - علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب . ٥ - محمد بن علي . ٦ - ابراهيم بن محمد القليل الذي قتل في حران . ٧ - ابو العباس بن الحارثية المقتول .

وكان ابو مسلم الخراساني راوياً ، نشأ عبداً عجباً - ومنهم من يقول بعروبته - واصبح على عمر الايام قهراً ما لا يدريس بن ابراهيم الجملي ، ثم آل امره الى الاتصال بمحمد بن علي ، ثم بابراهيم ابن محمد الامام - على الطريقة الرواندية - فأرسله هذا الى خراسان ، وامر اتباعه هناك بطاعته والالتقياد اليه . وكان بارعاً ، فتسكن من ناصية المرقف وسيطر .

كان والي خراسان من قبل الامويين يومئذ ، نصر بن سيار ، فكتب الى مروان بن محمد ، خليفة دمشق ، يعلمه بخرج الموقف ، ويستعجه المدة ، ويختتم كتابه الايات التالية :

ارى خلل الرماذ وميض حر	ويوشك ان يكون له خرام
فان النار بالعبدان تدي	وان الحرب اولها كلام
فان لم تعفوها تجن حرباً	مشرة يشيب لها الغلام
اقول من التعجب : ليت شعري	أبساط أمية ام نيام ؟
فان بك قومنا اضحو نياماً	فقل : « قوموا فقد حان القيام »
فخري عن رحالك ثم قولي :	« على الاسلام والعرب السلام »

وحمل رسول نصر الى مروان فوجده في امرّ بلاء : الحوارج
 يلكون عليه الطرق ، ويزرعون في وجهه المصاعب ، فلا يخلص من
 فتنة حتى يقع في فتنة ، ولا ينتهي من معركة حتى يبدأ معركة
 غيرها ، فكتب الى عامله : ... ان الشاهد يرى ما لا يرى الغائب .
 واستنجد نصر بيزيد بن عمرو بن هيرة الفزاري عامل مروان
 على العراق ، فلم يحبه يزيد لاشتغاله بشورات العراق القائم القاعد .
 ثم اضطربت اليمن وزحفت منها جموع الحوارج من الابطاشين
 على مكة والمدينة فاحتلوهما . فتجهز مروان ومشى لخاوبتهم ، ولكن
 جبهة خراسان ضعفت ، ولم يبق لنصر ادنى طاقة على المقاومة ،
 فقاد خراسان حتى اتى الري ، وخرج عنها الى هامة ، حيث
 مات كمدأ .

ومشى ابو مسلم من ظفر الى ظفر ، ومروان يتخبط وينتقل
 من بلد الى بلد منصرفاً مرة ، منهزماً اخرى ، متضعفاً في انتصاره
 وانزاعه على السواء ، حتى بلغ الموصل فتمعه اهله من الدخول .
 وحقق عبدالله بن علي بجيش خراساني لجلب ، فانسحب الى ان
 سقطت دمشق في يد عبدالله بعد حصار قصير ، ففرّ الى مصر ، وبعه
 صالح بن علي فتمكن من قتله ، واستولى على الآثار التي يخص
 بها الخليفة كبردة النبي وغيرها . وهكذا انتهت السلطة العربية .
 هذا ما افضت اليه سياسة الحجاج : اعاد الوثنية الى سابق اليام
 وزرع الاحقاد في نفوس الناس على العرب ، ولم يجد فقه
 بالحوارج والشيعة والزبيريين ولا بغيرهم .
 قضى على العرب وبحق سلطانهم وهو يفتخر بالعرب !

٤ — درس وعبرة

كانت النتائج التي انتهت إليها سياسة الحجاج غامضة الدلالة ،
مغلقة على أكثر الأذهان ، حتى ضاعت عنها الأجيال ، ولا تزال
ضائعة عنها إلى يومك هذا ...

كثيرون هم الذين يعتقدون أن الحجاج بطل من أبطال العروبة
ويباهون الآخريين — بكل بساطة وهدوء وارتياح — بما حقق
من فتوحات ، وأبدى من براعة في قتال الثائرين ، والقضاء على
مختلف الحركات الفكرية التي نشأت في عهده .

وأحسب أن الذين أعجبوا بالحجاج ، وأخذوا بما أظهر من
عنف يسمونه « حزمًا » وشراسة يسمونها « قوة » — أحسب أن
هؤلاء وانما هم لم يوفقوا بعد إلى تكوين فكرة قوية واضحة عن
الحرية وفيمنها في بناء الأمم ، بل اذهب إلى أبعد من ذلك ،
وأرى أن هؤلاء الذين يؤيدون أسلوب الحجاج في الحكم والادارة
إنما يبرهنون بتأييدهم هذا على أنهم منقسمون على أنفسهم في
التنظر للأشياء والحوادث . فليتصوروا أن الحجاج يحكمهم اليوم
ولننظر كيف يقولون ... ولكن أحدهم لا يقر الحجاج على أعماله
إلا إذا كان هو في مكانه وقدرته وسلطته !

لقد كان بلاء هذه المجموعة من البشر الذين يسمون أنفسهم
« عربًا » أنهم يخربون صفحاً عن قيمة الإنسان ، فالسكان الإنساني
عندهم شيء حثير ثاقب ، لا وزن له بالغاً ما بلغ من العلم والأخلاق
والفضل والمواهب الفكرية أو الأدبية أو الفنية أو الروحية .
هذا هو عيب العرب قديماً وحديثاً ، وهذا هو سر بلاءهم ومصدر

كوارثهم وينبوع آلامهم . وسوف تبقى حياتهم على ما هي عليه من تفكك وفتور وبشاعة واضطراب وبؤس ونعاسة ، ما داموا يجهلون « قيمة الفرد » ويجهلون الكيان الشخصي لكل انسان . يجب ان يطلع العربي على « الجانب المجهي » من شخصيته . ومهمة العربي ، كل عربي في كل عصر ومصر تلخص في موقفه السلبي من غيره اياً كان هذا « الغير » .

نأمل هذه اللازمة التي لم تفارق لسان الحجاج منذ قدر على استعمالها الى يوم هلاكه : « يا حربي ! .. اضرب عنقه . » نأملها نجد ان هذا الحاكم لم يكن يفكر بحياة الآخرين ولا كان يهتم بما يصيبهم بحال من الاحوال ، فسواء لديه مات الناس او عاشوا ، أمفقوا او اغتصوا ، سعدوا او شقوا . المهم ان يكون هو مريح البال ، منعم العيش ، مرفقاً في قيامه وقعوده ، ولو كلفت هذه الرفاهية هلاك المجنوع . على ان هذه الظاهرة في الخلق العربي التي جعلته « مهيئاً » حتى في ارفع اطواره الحضارية ، لم تقف عند دور من ادوار التاريخ ، ولا بحنها كارثة ، ولا صقلها عذاب ، ولا هلبها ألم ، فهي لا تزال كعهدك بها تفرق بين العربي واخيه ، وتترك السباب مفتوحاً لكل اجنبي طامع ، وتقبح امامه في مجال الدس والظمن وتغريه باستعباد العرب واستئثار منازعاتهم وخلافاتهم ومصائبهم ، حتى اذا تغلغل في حنايا وجودهم ، وعرقل اسباب تقدمهم ، وحطم مقاومة الاحرار منهم ، رجعوا الى « لازمتهم » السياسية المعروفة الا وهي لوم الاجنبي ، والتعامل عليه ، وجعله مسؤولاً عن كل ما اصابهم وما يصيبهم ، وفي ذلك من المغالطة والشطط وسوء الفهم ما لا حاجة الى تبينه .

وإذا أنت أعدت النظر في سيرة الحجاج تجد مصداق هذا الحديث ، فقد أوغل ذلك الحاكم في القتل والفسك حتى أتى على زهرة الشباب العربي . وجاء من بعده خصامه يدمون ما بنى ، ويحصدون الذين أبدوه ونصروه حتى أتوا على البقية الباقية من العرب . فكان من الطبيعي أن تخسر السلطة العربية المعركة مع أهل حراسان ، وكان من الطبيعي أن تسقط دمشق في يد جماعة العباسيين ، أي في يد الأجانب .

وجاء العباسيون فكان سلوكهم كسلوك أسلافهم الأمويين ، أي أنهم استهدفوا القضاء على خصامهم من العرب ، تساندهم في ذلك عناصر الفرس أولاً ، ثم الأتراك ، حتى أقبل المتوكل على الله وليس حوله غير الأجانب ، إذ انحدرت الجماعات العربية نحو الدل والتخاذل ، وانتقلت اليادة منهم إلى غيرهم عليهم بصورة تدريجية افضت إلى استيلاء العثمانيين على كل بلد يتكلم أهله كلاماً عربياً . ذلك هي مأساة العرب : لا يتكفن واحد منهم من القوة إلا ويستخدم قوته في محاربة أهله ، وإذلال خصامه ، والفتك بعشيرته . وتلك هي رواية الحجاج من أولها إلى آخرها .

وكان من العباسيين بعد أن استولوا على دمشق أن امرعوا إلى قبور الأمويين فنبشوها وأحرقوا ما وجدوا من جثة هشام ابن عبد الملك ، وجثة سليمان أخيه ، ثم استخرجوا بقايا الوليد وعبد الملك ويزيد ومعاوية وأحرقوها ، حتى انتهوا إلى جثة الحجاج في واسط فأحرقوا القبر كله . رأيت إلى هذه الاحقاد التي كانت تنتقل من جيل إلى جيل ؟ رأيت إلى ذلك العنف في الخصومة ؟ رأيت إلى الطغيان ونتائجه ؟

مضمون

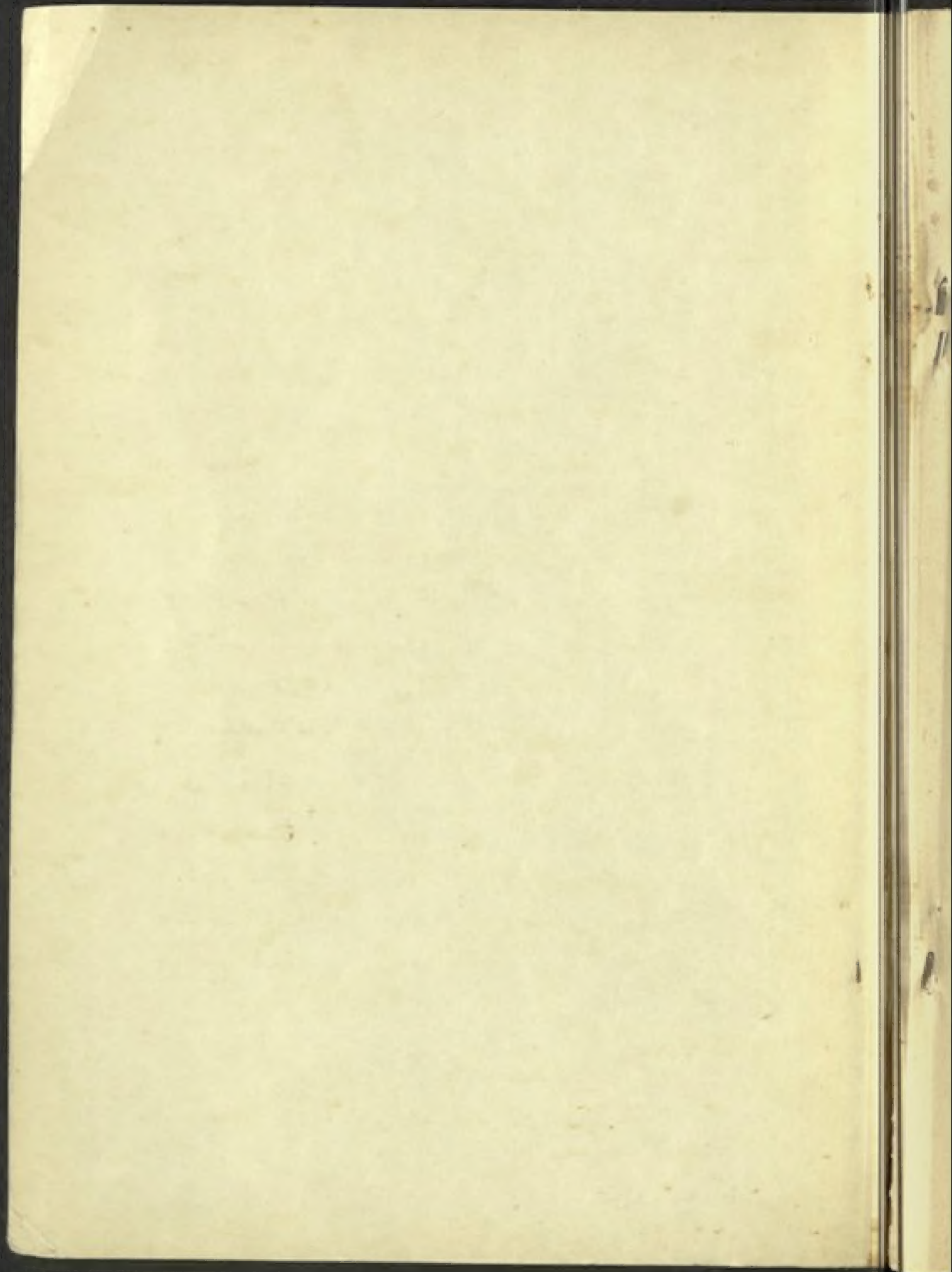
الصفحة	السطر	الخط	الروايات
٧	٢٠	إكناوها	كبارها
٨	٨	والعروش	والعروش
١٣	١	والغايات	والغايات
٢٣	٣	إما	أما
٢٤	٢٣	لوهن	لوهن
٣٢	٢٢	عن	من
٤٠	٢٠	عذري	عذري
٤٤	٧	لرجل	الرجل
٤٥	١٦	الخطيم	الخطيم
١٢٨	١٠	ساقه	ساقها
١٧٤	٣	فندبا	فندبا
١٧٥	٩	وعشرون	وعشرون
١٩٤	١٨	لمجتمع	المجتمع
١٩٥	١٨	نها	نها
١٩٩	٢	يشد	يفشد
٢٠٠	١٩	الحكومة	الحكومة
٢٠٢	١٠	بعد تركته	بعد ان تركته

تليه : فاما ان تذكر في الصفحة ١٨ تليها على ذكر الخلافة بعد التي ان الشيعة يذكرون
في روايات متعددة ان النبي لم يصراحة على خلافة الامام علي بن ابي طالب .

فهرس

١١٦	٥	مقدمة
١١٦	٥	نحو الحجاج
١٣٩	١٥	١ - ملقى المطامع
١٦٩	٢١	٢ - اساس الدولة الاموية
١٧٩	٣١	٣ - ارض الواقع
١٨٧	٣٩	٤ - ارض التمرد
١٩٢	٤٤	٥ - ارض الاربحية
١٩٢	٥١	٦ - ميدان الاستبداد
١٩٧	٦٢	من هو الحجاج
٢١٠	٦٧	١ - الطائف
٢١٧	٧٨	٢ - بنو ثقيف
٢٢٠	٩٢	٣ - جدانة بانسة
٢٢٠	٩٢	٤ - مع الخليفة

اتى طبع هذا الكتاب على مطابع نصار
في اليوم الخامس والعشرين من آذار ١٩٥٠ .



A.U.B. LIBRARY

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



00375367

